الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين الشمس

روايـة

إبتسام إبراهيم تريسي

بسم الله الرحمن الرحيم

عين الشمس (رواية)

إبتسام إبراهيم تريسي/ سوريا

لوحة الغلاف

للفنان العالمي فان غوخ

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-816-4

جميع الحقوق محفوظة

ص.ب: 222 الصفاة

الرمز البريدي 13003 الكويت

البريد الإلكتروني: info@masaa.info

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.masaa.info

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 785108 - 785107 (1-961) - 786233

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

عين الشمس

رواية

ابتسام إبراهيم تريسي

Acc. No. رقم القيد

Call No. رقم الاستدعاء
PJ
7964
U77
A96
2010

658807

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

إهداء

إلى أبـــي

لن تبرح الذاكرة، وإن غصّ الأفق بالرماد.

عتبة

سرقوا كلّ شيء، حتّى البحر...

أشعلوا حرائقها في الخامسة فجراً...

نـــــزعت ثوب صمتها، وسارت عارية من كلّ زيف، غمست قدميها بمياهه، ونذرت صلاتها للأفق.

حـــين استفقتُ على صوت الطائرات تحاصر سماءها، كنتُ أفتشُ أرجاء الحلم بحثاً عن عيني شمس الحزينتين. حين فتشوا ملابسي بحثاً عن الـــسّلاح، اعتراني الذّهول، أقام في دماغي زمناً، ثمّ رماني إلى غربة لن تنتهي!

أخبار الأيام

(1)

لم تلـــتقط حواسي مشاعر الغربة الحقيقية إلاّ بعد اجتيازي الرمل الفلسطيني، ووصولي إلى الشاطئ الجنوبـــي. صدمني منظر الأبنية العالية على الطرف المقابل للشاطئ! كم مضى من الزمن؟

عـــبّأت رئتيّ بالهواء، وزفرتُ كلّ ما علق بروحي من آثام البعد، وارتمـــيت علـــى الـــرمال، أقلّبها على جسدي، وأعفّر بها وجهي. في الـــصّورة المعلّقـــة بذاكـــرتي، رأيتُ جبل الأربعين، يركع عند أقدام الشّاطئ، والرّمال النّاعمة تفرك ساقيّ برفق، وتدلّك نبضي!

أخـــيراً، التقينا، أخيراً أنا هنا. انتهت رحلتي القاسية، انقضى زمن اغترابـــي عنه! لم أصدق أنّ السّاعات المرّة لسفري الطّويل قد انقضت حقّـــاً، لم أصـــدق أنّ إجراءات دخولي من المطار إلى أرض الوطن قد مرّت بسلام. كنت أتوقع عرقلة أكبر، لكنّهم اكتفوا بإخطاري بمراجعة فرع الأمن بعد أيام...

وعلى الرّغم من إحساسي بأنّي غريبة عن الأمكنة منذ وصولي إلى العاصـــمة، وحتّى وصولي إلى اللاذقية، إلاّ أنّ كلّ ذلك تلاشى بمجرد انغماس قدميّ في مياه البحر. أمضيت ساعات وأنا أتأمله، وحيدة، هل حقّـــاً يجـــب أن أذهب إلى البيت؟ هل عليّ أن أبدأ حياتي من حيث انتهيت؟ لا بدّ لي من مغادرة الشّاطئ، نعم، يجب أن أغادر...

فوجـــئت وأنا أجتاز الرصيف بأنّ معالم المكان تغيّرت، هجمت علـــيّ صـــورة واضحة من ذاكرتي الطفلة، رأيت يد عبد الفتاح تجرّني

بصعوبة، وأنا أتشبث بموقفي "أودُّ البقاء قريباً من الماء"، وسمعت صوته يغريني بأطعمة لذيذة حين نصل "الشيخ ضاهر". ورأيتني، وقد تملّكتني الفرحة، أسابق خطوات عمي - كما كنت أسميه في ذلك الزمن - كي أختصر الوقت. عبرنا البساتين المنتشرة في البقعة الواطئة قريباً من الشاطئ، هنا في المكان الذي وصلتُ إليه، فوجدت جداراً إسمنتياً عالياً، لم أعرف كيف خُلق هكذا في هذه البقعة حاجباً الخضرة الشاسعة، الّتي تليها زرقة متصلة بالسّماء! قبل أن أتجاوز السّرايا القديمة، فاجأني إحساسي بتلك الفرحة الّتي كنت أحسّها مع إيقاع خطواتي الصّغيرة، وأنا أتلمظ بطعم البوظة الّتي يصنعها "سعدية"، والّتي رافقتها في صباي لذة سطوي على زهور الفتنة من الأشجار المنتشرة في مداخل البيوت!

انحرفتُ غرباً، حتّى وصلت الحديقة، وسرت بمحاذاتها، علّني أفتح ذراعيّ لمعانقة "البحري" و"فينسيا"[1]، وحجارة الكورنيش المصقولة بخطوات العشاق. لكنّي لم أجد سوى رصيف مشجّر بأشجار غريبة، ومقاه بسيطة، بدت ضئيلة، وبائسة! ولا أثر للبحر!

أجفلني منظر مبنى البلدية الضخم، الذي أقيم مكان التينة العجوز الّتي كانت على أطراف بستان الكيالي، هنا حيث كنّا نتوغل في البستان، فيسطو الأولاد على التين، وأبقى أنا واقفة عند حافته، أنتظر وليد ليأتي لي بأشهى طاب من التين ذقته في حياتي كلّها!

على طول الطّريق المؤدي إلى حارة "الجميزة" انتشرت الأبنية الإسمنتية العشوائية مغيّرة وجه الشّارع القديم. توقفتُ للحظات، وأنا أتأمل مكان شجرة الجميز الضّخمة، كنت أعلّق أرجوحتي هنا، حيث لا أرى سوى زرقة السّماء!. المكان مشغولٌ ببراكة لبيع البسي والسّجائر والجرائد المحلية. تأملتُ العناوين عن قرب، لم يتغيّر شيء منذ

(1) مقهيان كانا على الكورنيش قبل تبليط البحر.

رحيلـــي، أكـــاد أجزم أنّ العناوين ذاها على الصّفحات الأولى، ربّما تغيّـــرت الوجوه والتّواريخ!. لم أحتج للتّحديق في الصّفحة الأولى، فأنا أحفـــظ كلّ شيء منذ ذلك الزمن الذي كان أبـــي يرغمني فيه على مطالعـــة الكتب والنّشرات والجرائد الخاصّة به من دون سواها، ويمنع عني كلّ ما يجعلني أنفتح على أنوثتي واستقلاليتي.

كـــأن الشـــارع بدا أوسع وأكثر رحابة عند الزاوية المؤدية إلى الزقاق!؟ لم يحيرني الأمر طويلاً، فقد رأيتُ تحت جفنيَّ المغمضين الجدار الواطئ لدار أم فاتح، الأرملة الّتي سافر ابنها المتبقي من سلالة الذكور إلى الخليج، وانقطعت أخباره. فقد رحل الذكور من دون عودة. جدها ذهب إلى حرب السّفر بر ولم يعد، وكانت جدها تربّي ابنها الوحيد، وورثـــت أمّها الجرح نفسه حين قُتل أبوها، ولم يعد من حرب 48، وجـــاء دورهـــا، لتحفر سنوات الغياب المتكررة في روحها، فقد غادر زوجها في 67 ولم يعد، فعكفت على تربية طفليها، كان فاتح في الثّالثة عشرة ووليد في السّابعة!. لم يكد الزغب حول شفتي فاتح، يتحوّل إلى شارب خفيف، حتّى طُلب للالتحاق بالجيش، فور اندلاع الحرب في رمضان 73، فغادرها إلى غير عودة!. لم يبق عندها سوى وليد، أرسلته إلى الكـــويت قبل أن ينهي سنته الجامعية الثانية آملة في حمايته من غدر الحـــروب. أم فـــاتح! أين تكون الآن بعد هذه التّغييرات؟ لا بدّ أنّها وجدت متراً أبيضَ من القماش، يلف جسدها، في بيت لا يستطيع أن ينتزعه منها أحد مهما عظُمت سلطته.

أين البحر؟

فوجئتُ حين وصولي أوّل الزقاق، أنّ لون الزرقة قد انمحى تماماً من الأفـــق، كـــان بيتنا في هذه البقعة! يطلُّ مباشرةً على البحر. شرفته العالية المكتظة بأصص الزرع، الفل والفتنة والجاردينيا وسلطان الزهور و...

أيعقل أن تكون تلك الشّرفة الرّمادية شرفة بيتنا؟

الباب مفتوح!

مياه شطف الصّالة السّفلية للبناء العتيق، تتسرب إلى الشّارع عبر الدّرجات الواطئة للحديقة المحيطة بالمنـــزل.

دفعـــتُ الباب الحديدي الصّدئ ببطء، أصدر صوتاً كئيباً، كان لإلفـــته جـــرسٌ لا يفارق ذاكرتي، جرسٌ لا يختلط هنا بصوت الأقفال والـــسّلاسل، وأصوات المحققين المبهمة عند عتبات الغرف ذات النّوافذ العالية المحاطة بقضبان الحديد!

السّتائر المسدلة زادت من عتمة الصّالة المطلة على الحديقة الخلفية بأسوارها العالية، وأشجار السّرو الكثيفة. هل كلّ شيء في مكانه كما تركته؟

سمعتُ صرخةً أرعبتني، التفتُ، فرأيت امرأة عجوزاً، رفعت ثوبها، وشـــكلته في حـــزامها، وشمّرت عن ساعديها، ولفّت رأسها بمنديل لم أتـــبين لـــونه، في إحدى يديها مقشة وفي الأخرى دلو ماء، من هيئتها عرفت أنّها خادمة في المنـــزل، كدت أسألها "ألا يوجد أحد هنا؟" لولا أنّها قالت بذهول:

- لا أصدق نفسي، نسمة!

ارتـــبكتُ قلـــيلاً، إنّها تعرفني! ألم أتغيّر بعد عشرين سنة؟ قلت بحياد:

- تعرفينني؟ أين أبـــي إذن؟

كأنّ كلماتي صدمتها، وأوقفت سيل حديث كاد يتدفق، فلجمه ردُّ فعلي البارد، أشارت بيدها إلى الطابق العلوي:

- لسه نايم، بدّك تشوفيه؟

رفعت كتفيّ بلا مبالاة، وقلت:

- ليس الآن.

صعدت الدّرجات. وجدت غرفتي كما هي، نظيفة ومرتبة، وباقة ورد علـــى الطاولة. قبل أن تتحرّك نبضات قلبـــي، اكتشفت أنّه ورد اصطناعي!

فـــتحت الـــنّوافذ، فـــدخلت الشّمس، وعرّت كلّ الذكريات المتـــراكمة في الـــزوايا لآخر زيارة لي إلى هذا البيت. ألقيت جسدي المـــرهق على السّرير. لم أشعر أنّي فارقته طوال تلك السّنوات. مع هذا لم آلف إسفنجه الطّري بعد أن اعتدت النّوم على الأرض زمناً، وعلى الأرصفة زمناً، وعلى...

لم أعرف كم كانت السّاعة، حين سمعت قرعاً خفيفاً على الباب، ودخلـــت العجـــوز تحمـــل في يـــدها كأس حليب وبضع قطع من البسكويت، رسمت على وجهها ابتسامة حانية، وهي تقول:

- صـــباح الخـــير، الظاهـــر ما نمتِ من زمن طويل، جبت لك كباية[1] حليب، بجيب لك الفطور؟

قلت بتلقائية، ولا زالت جفوني متشابكة:

- حلـــيب؟! أنا لا أشرب الحليب في الصّباح، اصنعي قهوة، من دون سكر.

نظرت إليّ باستغراب، وكأنّها لم ترني قبل الآن، وتمتمت:

- قهوة! من دون سكر؟

شعرت بجسدي يؤلمني، وأنا أنهض قائلةً:

- هاتيها في الشّرفة.

وقفـــتُ طـــويلاً تحت "الدش"، لففت جسدي المبلل بثوب بيتي قصير، وخرجتُ إلى الشّرفة.

---

(1) كأس.

صـــدمتني عيون البيوت الإسمنتية العالية، وهي تتفرّس في جسدي باســـتغراب. مـــن أين أتت كلُّ تلك البيوت المشوّهة؟ صدمني السّؤال ثانـــية "أيـــن البحر؟". سمعتني العجوز وهي تضع الصينية أمامي، قالت ببراءة: "بلّطوه، عملوا مكان الكورنيش مرفأ، وحطوا سور عالي، كأنّه قلعة يا بنتي، صار بدّك تروحي على الكورنيش الجنوبـــي لتشوفيه عن قـــرب". هززت رأسي، وكدت أقول لها، رأيته حين وصولي، وكنت أظـــنّ أنّي اخترت بقعة نائية!. لاحظت طوال سيري في الطرقات أنّ ملامح الشّوارع والأبنية تغيّرت، لكن، البحر! بلّطوه! يا إله الزرقة أين أنا؟

لم أستطع رشف قهوتي بلا مبالاة، و لم أستطع تجاهل النّظرات الّتي ترميها الجارات المتطفلات – من وراء الشّبابيك الصّغيرة – على الوافدة الجديدة؟!

دخلـــت العجـــوز إلى الـــشّرفة، وهي تنظر إليّ بحذر وخوف، وترددت في قول ما جاءت من أجله، نظرتُ إليها مشجعة:

– الجارات وقّفوني وأنا راجعة من السّوق، وسألوني: مين السّت الـــ... القاعدة في البراندا[1]، في الحقيقة خفت رد عليهن.

عـــرفت أنّ العجـــوز أخفت جزءاً من الحديث خوفاً مني، وأنّ النّـــساء الفـــضوليات قلن ما خجلت منه، ظهوري على الشّرفة هكذا بملابـــس لم يعتدن عليها، أثار قلقهن، لاحظتُ كيف أُغلقت النّوافذ، وكـــيف خلـــت الشّرفات خلال دقائق، لكنّي لمحت السّتائر تنـــزاح ببطء، والعيون تتلصص خلفها!

أضحكتني المفارقة الغريبة للتبدلات الّتي أحدثها الزمن في الحارة. في طفـــولتي لم تكن إحدى نساء الحي محجبة، ضحكت وأنا أتذكّر أم

(1) الشرفة.

محمّـــد العجـــوز الّتي كانت تصف منديل رمزة جارتنا بأنّه "برق دين حـــنا"[1]، كنت أرى النسوة "المحجبات" يضعن منديلاً رقيقاً جداً على رؤوســـهن مـــن دون أن يربطنه، لكن لم أفهم ارتباطه بدين حنا، و لم أعرف من هو حنا المقصود بتلك الكلمات! ربّما في صباي كنت الفتاة الوحـــيدة في حي الجميزة الّتي تضع حجاباً، وكانت النّسوة ينظرن إليّ نظـــرتهن لغريبة عن الحي. أما اليوم! انقلبت الآية، ويبدو أنّي الوحيدة النّشاز في هذا الحي المكتظ بالسكّان!

هززت رأسي، وقلت للعجوز:

- فعلت خيراً، لا أريد أن يعرف أحد من أكون، تحاشي الحديث في شأني مع أيّ إنسان. انتظري... لم تقولي لي، كيف عرفتني؟

ارتعشت العجوز، وهي تحدّق بـــي، وقالت بصوت مخنوق:

- توقعت تعرفيني.

لم أغمـــض عـــينيّ هذه المرّة لأرى أم فاتح تحضنني مع طفليها، وتضع في حضني حبات اللوز، ورمانة كبيرة، وتمسح "ليت وليد أكبر قليلاً"! هل جار عليها الزمان إلى درجة غدت خادمة عجوز؟ ولكن... أم فـــاتح! هنا، في بيتنا؟ بعد أن... أردت أن أقول لها: "سامحيني، فقد ماتـــت الطّفلة الّتي تعرفينها، و لم يبقَ في هذا الجسد سوى حطام امرأة، لكنّي سألتها:

- هل استيقظ أبـــي؟

قالت، وهي تمسح دمعة استقرّت على خدها:

- أي فاق، خبّرته إنّك هون، بدّك تشوفيه؟

قلت، وأنا أدخل إلى غرفتي:

- ليس الآن.

---

(1) المقصود أنّه رقيق جداً.

لمـــاذا أؤجل مواجهتي معه؟ في النّهاية لا بدّ أن أراه! في النّهاية لا بـــدّ أن أواجه ذلك الكره العاصف الذي أغلق قلبـــي دونه، لا بدّ من مواجهة أيامي القادمة الّتي سأعيشها هنا بوضع النّقاط على الحروف.

فاجأني السؤال "لماذا عدت؟" ماذا أرتجي من العيش هنا؟

لكنّـــي أقـــصيته عـــن ذهـــني، وتجاهلت ما أشعر به من مرارة، وارتديت ملابسي. غصَّ حلقي بالسّؤال: "إلى أين يا نسمة؟". همستُ بإصـــرار "لا بـــدَّ لي من مواجهته، يجب أن أراه، لن أبقى حياتي كلّها أعاني من إحساسي بالهزيمة!". ألقيت نظرة أخيرة على المرآة، ابتسمتْ تلـــك الفتاة البسيطة الّتي كُنتها في يوم ما "أتظنين أنّه سيعرفك؟ يبدو أنّك سترتكبين آخر حماقة في حياتك" قلت بعناد: "ليكن، عليّ وعلى أعدائـــي". قالت: "وهل تعتبرين شمس عدوك؟ منذ متى؟" ابتعدتُ عن المرآة رافضة التّفكير في الإجابة، وقبل أن ألتقط حقيبتي، سمعت صوت شـــجارهما يعلـــو من الغرفة الملاصقة لغرفتي، كعادتهما أحمد وأيمن لا يكفـــان عن الشّجار من أجل أشياء سخيفة. في طفولتهما، كانا دائماً يتـــشاجران من أجل الكرة، والطّعام، والنّوم، كلٌّ منهما يريد السّرير الملاصـــق للـــنّافذة، كلاهما يريد الجلوس إلى يمين والدته على المائدة، وعـــندما تُحـــضر أمّي لهما كرات جديدة، لا يريد أحدهما أن يأخذ الحمراء، وكلاهما يرفض ارتداء القميص الأطول كي لا يضطر لوضعه تحـــت البنطلون! وأمُّي ترتبك، كيف ستميز أحدهما عن الآخر؟ وكانا يشاكسانها، عندما تنادي أحمد، يردُّ كلاهما "نعم" فتنادي أيمن، فيفعلان الـــشّيء نفسه، كثيراً ما رأيتها تنهار، وتبكي، وتعاتب بصوت خاشع وخافـــت شخـــصاً ما على إنجابها توءماً متطابقاً في الملامح إلى حدٍّ لا تـــستطيع معه التّفريق بينهما! وقد تلاشت تلك المشاكل تدريجياً عندما كـــبرا، فقد نَحُل أحمد كثيراً، وتطاول وجهه بعض الشيء، وبقي أيمن

محافظاً على امتلاء جسده، و لم تعد أمّي بحاجة للتمييز بينهما بالملابس، ولا الفصل بين كتبهما وأدواتهما المدرسية.

مـــال أحمد في فترة مراهقته إلى الصّمت والهدوء، وغرق في قراءة الروايات، وحافظ أيمن على مرحه وحبّه للعب، وإهماله لدراسته.

أحمـــد هـــو الأقـــرب إلى قلبـــي، كان يحبُّ أخذ رأيي فيما يقرأ، ويناقـــشني طويلاً بأفكار تلح عليه حول الخلق والوجود والعدم. تعلّق في البداية بقراءة كتب سارتر، ثمّ فجأة صار يقرأ لسيد قطب! بعد فترة قصيرة نمـــت لحيته، ظننت أوّل الأمر أنّه يهملها ريثما تنتهي السّنة الدّراسية، لكنّ عزلته لفتت نظري إلى أنّ أحمد لم يعد يناقشني فيما يقرأ، وصار يحمل بين عينيه نظرة أبـــي الفاحصة لهيئتي حين خروجي من البيت!

فـــصرت أميل إلى أيمن الذي احتفظ بمرحه الدّائم ولا مبالاته بالقراءة والحـــياة، وحتّـــى الفتيات! لم يبالِ أيمن يوماً بهن، فلم أسمع منه قصّة عن إحداهن كما يفعل من هم في سنه، عشقه الوحيد كان للكرة!

انـــتظم في فريق السلّة في بداية المرحلة الثانوية، وتراجعت دراسته أكثر، فاختار أن يدرس الفرع الأدبـــي، على عكس أحمد الذي أحبّ العلوم، وخضع لرغبة والدي الذي كان يريد منه أن يدرس الطب.

شقيقنا البكر حمزة، عاد في ذلك الوقت من الاتحاد السّوفيتي بعد أن أنهى اختصاصه في هندسة البترول. كان أبـــي يطمح في تدبير عقد عمـــل لحمـــزة في الخليج عن طريق "أبو فراس" كما دبّر له البعثة إلى روسيا!

وقـــبل أن يسافر حمزة بأسبوعين حدث الحصار. كان أحمد وأيمن وقـــتها يحضّران لامتحان الثانوية العامة، لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم أبداً. وصلتُ ليلاً إلى أريحا حوالي العاشرة، فلم أجد أخوتي في البيت، حين سألت أمّي عنهم، قالت بغصّة:

- أحمد وأيمن تشاجرا كالعادة، لا أعرف أيّ شيطان تدخّل بين الـــولدين، صعد أحمد إلى بيتنا في الجبل، ولحق به أيمن وحمزة لمراضاته، لكنّهم لم يعودوا، قلبـــي مثل النّار، والدك أيضاً لم يعد حتّى الآن، لا أعرف ما الأعمال الّتي تجعله يبقى خارج البيت حتّى هذه السّاعة!

عـــاد أبـــي يومها في الحادية عشرة، لم يسأل عن أخوتي، دخل مكتـــبه، وأغلـــق الباب على نفسه، و لم تجرؤ أمّي على اقتحام خلوته. وغفونا أنا وهي في ساعة متأخرة.

نبّهتني أم فاتح بقولها:

- على شو مشتهية لأطبخلك؟

- لا شيء، ربّما لا أعود حتّى الليل.

خـــرجتُ مـــن غرفتي وهي تراقبني بذهول، صدمتني عينا أمّي في الـــصّورة الكـــبيرة على جدار الممر المؤدي إلى الدّرج. لمستُ النّسيج العتـــيق بأصابع مرتعشة، أذكر أنّها احتجّت على وضعها هنا، ربّما لم تعجـــبها، لأنّهـــا تبدو شابة بروح عجوز! تكاد الصّورة تنطق بتراكم رهـــيب للحزن والقهر، حتّى أنّ كتفيها متهدلان! أعتقد أنّ الفنان لم يكن أحمق حين رسم الصّورة، و لم يكن رسّاماً فاشلاً كما ظننتُ، بل رأى في عيني أمّي، ما لم أره أنا في ذلك الوقت. عينا أمّي في الصّورة، كانـــتا تنطقان بذلك الحنان الأمومي الفاتن، مصحوب بحزن شفيف، تحـــتفظ به الأمهات في أنسجة الجلد، وكأنّه مخلوق معهن. حزنٌ ينتظر وخزة دبوس ليد أطفالهن، كي ينهمر دموعاً، وقلقاً، ولهفة!

هربتُ من نظراتها، وهبطت الدّرجات بسرعة. حين أصبحت قرب بـــاب الصّالة، جمّدني صوتُه في مكاني "نسمة". ارتجف جسدي، وأنا أنظر إلى المـــرآة الكـــبيرة، الّتي تتصدّر الحائط المقابل للدّرج في الصّالة الواسعة. غاضت الدّماء في عروقي، وشحب لوني، امتدت يدي بحركة تلقائية لألف

صـــدري بالـــشّال، وأجمع فوضى شعري، لكنّي لم أستطع السّيطرة على ارتباكي. صوته الهادر ينسكب فوق رأسي كصاعقة من أعلى الدّرج. أوّل مـــرّة فاجأني صوته في هذا المكان، اعتقدت فيها أنّ أبـــي يمكنه أن يخترق جـــسدي لـــيراه مـــن كلّ جانب، لم أنتبه وقتها إلى المرآة الّتي عكست صـــورتي، و لم أعـــرف كـــيف استطاع أن يرى وجهي الملون بالكحل والحمرة، وحجابـــي المعقود بلا مبالاة أسفل ذقني؟. كنت على موعد مع شمس. وقد تجرّأت على التزيّن في غرفتي قبل نـــزولي للقائه. حينها جمّدني صـــوته علـــى آخـــر درجة، وهو يصرخ بـــي: "ما شاء الله، رايحة على العـــرس؟ أهذا ما تعلّمته في الجامعة؟ كان الأفضل أن تبقي في البيت إذن! امسحي هذه المساخر عن وجهك". وقتها خضعت بأكبر قدر من الخوف والارتـــباك، فهـــل أتركه الآن يفعل بـــي ذلك؟ التفت إلى الخلف، وأنا مصممة على مواجهته بثوبـــي القصير، وشعري الفوضوي، وزينتي، و...

لم يكن هناك أحد أعلى الدّرج!

صـــعدت الدّرجات وكأنّي منوّمة، شعرت أنّي أصعد جبلاً صخرياً شـــديد الانحـــدار، كلّما تقدّمت خطوة، انـــزلقتُ خطوات. وامتدّ الممر كنفق ضيّق، كنت أزحف، وأنا أحسُّ بالاختناق، ولا أصل باب غرفته!

دفعـــت الـــباب برفق، وترددت في مدِّ رأسي، تصورت أن أراه مستلقياً على سريره، يقرأ جرائد الصّباح، وبجانبه فنجان القهوة البارد. كـــنت أقف بوجل، ولا أجرؤ على رفع رأسي أمامه حين أطلب منه مـــصروفي، أو الأذن بالذهاب إلى مكان ما، كانت يدي تمتدّ مراراً إلى حجابـــــي للتّأكد أنّه ما زال في مكانه ثابتاً راسخاً كما يريده، وإلى أســـفل ثوبـــي حيث تستقرُّ نظراتي على السّجادة العجمية الّتي تحيّرني نقوشـــها، فأمـــضي الـــوقت في تصور أشكال آدمية توحي بها تلك التعرجات، أو أشكال أشجار وزهور، وأجد نفسي وقد شكّلتُ منها

لوحة، بستاناً، حديقة حيوانات، وأحياناً أتذكّر قصة عزيز نسن الطريفة حـــول الحمار والسّجادة، فابتسم لنفسي، المهم أنّي أشغل ذهني حتّى ينتهـــي أبـــــي من محاضرته ومواعظه، وتنبيهاته، ثمّ يمدُّ يده إلى جيبه ليعطيني النقود والأذن بالانصراف!

بعـــد أن عرفت شمس، أصبحت السّجادة العجمية مرتعاً لقصص حب ولقاءات، وأجواء مثيرة، تشبه ألف ليلة وليلة، وكان على أبـــي أن ينـــبّهني من شرودي دائماً بصوته الغاضب "أين أنت؟ ألم تفهمي ما قلـــت؟" فأهز رأسي موافقة على شيء عوّدت نفسي على عدم سماعه. تدريجـــياً فقدت حاسة السّمع حين يتكلّم أبـــي، وأرحت نفسي من التّفكير في كلماته، كان شمس هو من يتكلّم داخلي.

علـــى الرّغم من الحصار المفروض حولي في البيت، إلاّ أنّي كنت أقـــرأ في السّر دواوين نـــزار قباني الّتي يقوم أيمن بتمريرها من "الرقابة" إلى غـــرفتي، ثمّ يخرجها بأمان. أوّل انتصار لي تخلّصت فيه من الرقابة، كـــان تـــسجيلي في الجامعة. حينها تشكّلت أجنحتي، وامتلكت قدراً كبيراً من حريتي المفقودة. ورحت أقرأ بنهم في كلّ الاتجاهات، وتمنيت في لحظة ما، لو أعيش أكثر من عمر، لأقرأ كلّ ما كتب في هذا العالم، لكـــنّ قراءاتي المتناقضة، شوّشت ذهني، وجعلتني بلا انتماء حقيقي إلى أيّ مبدأ أو اتّجاه فكري. وقررت أن أكف عن قراءتي العشوائية، منذ أهـــداني شمـــس بعـــض الكتب الماركسية، وكانت أوّل كتب أقرؤها بتحـــريض خارجـــي، وتوجيه مدبّر، فقد أصرّ شمس على مناقشتي في محتوى كلّ كتاب بعد قراءتي له. على الرغم من رفضي لذاك النقاش، فقد خشيت للحظات أن أضعف أمام قدرته على إقناعي بأفكاره!

بقـــيت زمناً طويلاً تحت تأثير آراء شمس وأفكاره، حتّى وصلت حدَّ الاعتقاد بقداسة كلّ شيء يقوله لي.

فـــتح أبـــــي عينين انطفأ بريقهما، ونظر إليّ باستجداء، وانهمرتْ دموعه بصمت، تساقطت على الوسادة، ومدّ يده بصعوبة نحوي، كتمتُ صـــرخة، كادت تفلت من حنجرتي. نظرت إلى بقايا الرجل الممدد على السّرير، فلم يتحرّك فيّ حسٌّ البنوة! أهذا أبـــي؟ أهذا ما بقي من جبروته، وتسلّطه، وقوته؟ أهذا الرجل العجوز النّحيل، الأصلع، المرمي وحيداً على السّرير، ويده العاجزة متدلية قربه بشكل يثير الشّفقة، أبـــي الذي...

لا، لا يمكن!

مـــادت الأرض تحتي، واهتزت الجدران، وغشيت عيناي، كانوا جمـــيعاً يـــتحلّقون حـــول سريره، أمي بجمالها وطيبتها، حمزة بأناقته ووســـامته، أيمـــن بمرحه وجسده الممشوق الممتلئ، أحمد بنحوله المريع وخديه الغائرين، وذقنه النابتة بشكل عشوائي.

كانـــوا جميعاً هناك، يصرخون، ويشيرون إليه بأصابع تتحوّل إلى حـــراب، تنغـــرس في جسده، فينفر الدّم حارّاً، يلوث أغطية السّرير، ويتناثر على الجدران.

لا تـــزال يده ممدودة تستجدي يدي، ألم ينتبه إلى هيئتي؟ ثوبـــي القـــصير، شعري، زينتي، ألا يرى أنّي لم أعد ابنته المطيعة، الفتاة البريئة المهذبة، المحجبة، الّتي لم تقل له مرّة واحدة كلمة "لا"؟

لم أستطع أن أتقدّم خطوة واحدة، أردت أن أقول له: "أبـــي". خرج صوتي محشرجاً، خشناً، ناطقاً بكلمة غير مفهومة.

أخـــرج مـــن حلقه أصواتاً تشبه العواء، وراح يئن، ويشير بيده السّليمة إلى صدره. لكنّ شيئاً ما أبقاني مسمّرة قرب الباب للحظات، ثمّ فررت، وأنا أصرخ بكلّ قوتي "لا، لن أفعل، لا يمكنني أن أسامحه، لا يمكنني أن أفعل هذا أبداً".

* * *

(2)

توقفتُ للحظة أمام الباب...

خـــيّل إليَّ أنّي أسمع من نافذة فدوى العالية صوت عبد الوهاب، يـــنطلق من أسر اسطوانة قديمة، وهو يغني "مريت على بيت الحبايب، وقفت لحظة هنية، من اشتياقي..." تصاعدت حرقة من معدتي، لسعت حلقي ولساني، وغصصت بتنهيدة مرّة. أكانت مجرد لحظات!؟

هاجمـــت صورة فدوى مخيّلتي، وهي تنـــزع من شعرها الأجعد زهـــرة فل، تشمّها بعمق، وتغمض عينيها متأوهة مع كلمات الأغنية! وتغرســـها في شـــعري، وهـــي تقول بمرارة: "لم يعد ينفع أن أتزيّن، يا حسرة، لا يوجد من أتزيّن له" وتغمز بعينها ناحية شمس: "ستكونان أجمـــل عروسين، لا تسعني الدّنيا من السّعادة، تصوري يا نسمة، كثيراً مـــا أحلـــم أنّي أحمل طفلاً جميلاً، تماماً مثل شمس في صغره، ويشبهك أيضاً، لكن..." وتصمت فدوى طويلاً قبل أن تكمل: "لا أستطيع أن أخـــبرك، يقـــال إنّ المنام السيئ يجب ألاّ يروى، فهو فأل غير حسن لصاحبه". لم أفكّر مرّة بالإلحاح على فدوى لمعرفة المنام الذي رأته عدّة مـــرّات، لأنّـــي كنت مؤمنة بالرؤيا، وخشيت أن أسمع تفاصيل تربك علاقتي بشمس.

الأمر لا يعدو كونه لحظات!

عـــبرتُ الدّهليـــز المعتم، فصرتُ في مواجهة غرفته، الّتي تتصدَّر الفـــسحة السّماوية، وتقبع خلف شجرة النّارنج الكبيرة. كان الوقت

ربيعاً، وزهر الليمون قد ملأ الدّار برائحة تغلغلت في جسدي، وأنعشت خلاياه الكسولة. أسكرتني الرّائحة، قطفت بضع زهرات، خبّأتها في حقيبتي، ودخلت إلى "الليوان". أحضرت فدوى قهوة بالحليب، ووضعت قطرات من ماء الزهر عليها، وملأت صحن الفنجان بزهرات الليمون، فوجئت أنّها تعرف مزاجي تماماً! اختلط صوت فدوى بصوت عبد الوهاب، وهي تغني "كلّ دا كان ليه" وتروي بنبرة متقطعة تاريخ الأغنية، لقد أحبت في الماضي شاباً كان يسكن آخر الزقاق، أمّه دلّالة، وأبوه غيّبه الموت وهو طفل، كانت تراه، وهو يمرُّ في الزقاق، ونجومٌ تلمع على كتفيه، التقت به أوّل مرّة في عرس صديقة لها، وعلى غير العادة الجارية من انفصال النّساء في الحرملك، جمع الحفل بين الجنسين. لو علم والدها الشّيخ علي في ذلك الوقت، لذبحها، كما كانت تقول. لكنّ أحداً من معارفه لم يكن موجوداً، فقد أقيم العرس في أحد الأحياء الرّاقية، لأنّ العريس ابن تاجر كبير في "خان الحرير" وقد وجدت الحاجة منوّر صعوبة كبيرة في إقناع الحاج بذهاب فدوى إلى عرس صديقتها، عسى الله يطلق نصيبها هي الأخرى!

ألحّ عليه الحضور يومها أن يغني موّالاً، تحيّة للعروسين، ارتبك في البداية، لكنّه حين بدأ الغناء، لم تنزل عيناه عن وجهها. كانت فدوى تتمتع بذكاء فطري، فهمت معه تلك الإشارات المرسلة من عينيه، والذبذبات الخفية لارتعاش صوته، وتلك الكلمات الّتي تنخفض حدَّ الهمس، عرفت أنّه يغني لها وحدها. وعرفت أنّ "طاقة القدر" لا يمكن أن تنفتح على مصراعيها سوى مرّة في العمر، فتعمدت أن تخرج إلى الشّارع قبله بلحظات، لتترك له فرصة اللحاق بها، وتركته يهمس كلمات مبعثرة، عبّرت عن اضطرابه وعشقه. وبعد أيام أرسل أمّه

لخطبتها. لكنّ الشيخ علي رفض بشدّة، كان يسعى لتزوجيها من تاجر كبير، أو على الأقل من ابن عائلة يستطيع أن يباهي بنسبه. بكت فدوى عشية الحرب، وهو يصعد إلى سطح الجيران ليرمي لها وردة ورسالة صغيرة، احتفظت بها سنوات، وهي لا تعرف الكلمات الموجودة فيها، لكنّها أحسّت بها. قالت لي: "ليس مهماً أن أعرف، وإن قتلني الفضول في البداية، لكنّي اقتنعت فيما بعد أنّ الكلمات تموت حين تقال[1]!". قالت عندما رأت دهشتي، إنّ شمس قرأ لها تلك القصيدة، فحفظتها في قلبها، وتأكدت أنّها تستطيع خلق المزيد من الكلام، طالما لم تقرأ يوماً حروفه، فهي تخترع رسائل ملوّنة حسب حالتها النّفسية، تتخيّل كلّ مرّة أنّه كتب لها ما يعيشانه معاً. "قدري القصير" عاد من الحرب عاجزاً، كما قالوا لها، مع هذا تمنّت لو تخدمه طيلة عمرها، وتعيش قريبة منه. لكنّ الشيخ علي سرعان ما جاءها بخبر زفافها إلى رجل من أصحابه، أكبر تاجر خيوط في خان الحرير، توفيت زوجته، وأولاده يسكنون بعيداً عنه. لم يكن من حق فدوى أن تفكّر بالأمر، وتتخذ قرارها، مصير البنت السّترة في بيت زوجها، ومنه يسترها القبر. والرجل سيدفع مهراً كبيراً، وسيشتري لها كيلو ذهب!

خبّأت فدوى في القلب سرّها الصّغير، وحملت معها أشياءها الحميمة، وخاطت على الرسالة أسفل حقيبة ملابسها. لم تنسَ فدوى رسائل قدري الملوّنة في حياتها الجديدة، فقد كانت تعينها على تحمّل حياة لا تطاق، لكنّها تعلّمت مذ كانت طفلة أنّ المرأة الصّالحة خادمة زوجها، وهكذا كانت، تغسل، وتكوي، وتنظف، وتطبخ، وتستقبل، وتودع، مع هذا كان "مهران العتر" يدير لها ظهراً محدّباً آخر الليل، ويغط في النّوم، ولا يلبث طويلاً حتّى يعلو شخيره قاطعاً عليها تأملاتها!

---

(1) من قصيدة نزار قباني.

لم تكن فدوى تعرف ماذا تفعل، فقد آلمها إهمال الحاج مهران لأنوثتها المختبئة في الثوب الفضفاض الطّويل، الذي فرضه عليها، كما فرض عليها عدم نزع الحجاب أمام أولاده، انفجرت ذات ليلة لتطلب من الحاج أن يهتم بها، فاكتفى بصفعة، أدارت لها وجهها ناحية الجدار، وشتمها ببذاءة واصفاً إياها بالعاهرة، مهدداً بإعادتها إلى بيت والدها كي يربيها، ويعلّمها الأدب، و لم ينسَ أن يسألها باستغراب: "أين تعلّمتِ ذلك يا ابنة الأصول؟". تدريجياً وجدت فدوى نفسها مجرد خادمة له ولأولاده وزوجاتهن وأولادهن.

مرّت السّنة الأولى على زواجها من دون أن تتوقف الرحى عن الدّوران، وشعرت فدوى فجأة بالوهن والتّعب، ووقعت طريحة الفراش. ورفض الحاج مهران أن يحضر لها الطبيب، كيف يرى جسدها رجلٌ غريب! فتجرّأت فدوى على طلب صغير، أن تذهب لرؤية أمّها ووالدها قبل أن تموت، كان يكفيها أن ترتمي على فراشها، وتشم رائحة الفل في فسحة الدّار، وتسقي أصص الحبق، وترى أطفال أخوتها يتراكضون حولها، حتّى تبرأ مما ألمّ بها، وهكذا اتّخذت فدوى أوّل قرار في حياتها بعدم العودة إلى الحاج مهران، و لم تفلح تهديدات والدها ولا ليونة أمّها في الإقناع، الجميع حاولوا، لكنّها أصرّت على البقاء في بيت والدها، لتعتني بابن شقيقها المتوفى. ووجدت تأييداً من الجيل الثاني في العائلة، وبعد مفاوضات طويلة مع الحاج مهران، وافق على طلاقها شرط أن تتنازل عن حقوقها كاملة، وتعيد إليه كلّ ما جلبه لها حتّى ملابسها!

قالت لي فدوى: "حين أرسلتُ له صرّة ملابسي، شعرت بأنّي امتلكت حريتي" وقد حاولتْ أن تنسى تلك السّنة من الذل والقهر،

وحاولت أن تعيد إلى القلب خفقاته باستحضار تلك الرسائل الّتي كتبتها على لسان قدري وبأنامله، إلاّ أنّها فشلت! لقد أحسّت بالعطب يتسرّب إلى قلبها، كما نال جسدها.

فدوى... شعرتُ حين رأيتها للمرّة الأولى أنّ روحها معجونة بماء الورد، وأنّها تملك طاقة إضافية من الحبّ تنثرها حيثما حلّت، توزعها بسخاء على كلّ من تعرفه. وتمنيت لو كانت صديقتي أو عمتي، لآخذ من جمال روحها ما يجعلني أتوازن في عالم بغيض، تمنيت لو تخرج فدوى من هذا الحصار الذي فرضته على نفسها إلى العالم، علّها تتنفس الحياة، وتغيّر رأيها في الطريقة الرتيبة الّتي تمضي بها أيامها، فدعوتها للذهاب معنا لحضور أمسية شعرية، لكنّها رفضت أن تغادر البيت، وقالت: "يكفيني أن تكونا سعيدين".

لم أكن أحلم بمفاجأة أجمل، أنا وشمس، وأمسية لنزار! حلّقت روحي بعيداً، وراء حلم تمنيت أن يتحقق، متى ستمرُّ السّاعات الثقيلة لألتقي به؟

في السّادسة كنت أتّجه إلى الكلية مشياً بسبب الزّحام. في السّابعة إلاّ ربعاً كنت أمام مدرّج الجاحظ أبحث عن شمس بلهفة، شعرت بيده تربت كتفي، وصوته يهمس: "أتبحثين عن أحد". نطقت عيناي: "عنك". ولم أستطع أن أضيف شيئاً. في الزّحام الشّديد لم نستطع أن نجد مكاناً لنا، بقينا واقفين قرب الباب، ولم تمض دقائق، حتّى أُعلن عن تغيير مكان الأمسية إلى مدرّج كلية الطّب، وهناك قيل لنا إنّ المكان لا يتسع، وقد انتقلت إلى صالة الأسد الرياضية، ربّما لم أشعر بتلك المسافات الّتي قطعناها، ولم أعانِ من الزّحام في الحافلة، فلم أكن أشعر إلاّ بوجوده، لم تعنِ لي وجوه النّاس شيئاً، كنت أحسّ أنّه يحتويني، فتتسع الأمكنة، ويتلاشى الضجيج. حتّى وجدنا مكاناً في

الصّالة الكبيرة، وجلست ملتصقة به. أطلّ نـــزار على الشّرفة كعادته بهياً، وجميلاً ورائقاً. حينها لم يعد هناك وجود إلاّ لصوته يتردد في سمعي وداخلي:

" لنفترق أحبابا...
فالطيرُ كلَّ موسمٍ
تفارقُ الهضابا
والشّمسُ يا حبيبي
تكونُ أحلى عندما تحاول الغيابا...

ضـــغط شمس يدي، فالتفتُّ لأنظر في عينيه، وأنا ثملة بالكلمات، والصّوت، والرعشة الّتي سرت في جسدي من نبضه المتسرب عبر يده إليّ، من نظرة عينيه، هل قلت له: "

كن في حياتي الشّك والعتابا
كُن مرَّة أسطورةً...
وكُن مرَّة سرابا..
كُن سؤالاً في فمي لا يعرف الجوابا
من أجلِ حبٍ رائعٍ
يسكنُ منا القلبَ والأهدابا
وكي أكونَ دائماً جميلةً
وكي تكونَ أكثرَ اقترابا
أسألكَ الذهابا...

بعـــد الأمـــسية بـــدا شمس مرحاً أكثر من المعتاد، حتّى أنّه راح يضحك بصوت عالٍ لحرجي واستيائي من كعب حذائي الذي خذلني في لحظة، عندما انكسر، وتسبب في سقوطي، ربّما وجدها فرصة جميلة ليـــتأبط ذراعـــي، ويسندني طوال الطّريق، أمّا أنا فقد شعرت بالمرارة

والـــضيق، لأنّـــي احتجت إلى مساندته، واضطررت لتحمل سخريته ومرحه طيلة ساعة من الزمن حتّى وصلت البيت!

دخـــل شمس الإيوان، فارتعش كوب الحليب بين أصابعي، غمزته فدوى، وقالت:

- سأحضّر الغداء، لن أتأخر.

مدّ يده، ونـــزع حجابـــي، وهو يضحك:

- لماذا تقيدين نفسك بهذه الخرقة؟

كـــدت أقول له، إنّ نساء عائلته كلّهن محجبات، وأنّي محجبة بقـــناعتي، وليس خضوعاً لظاهرة اجتماعية كما يظن، لكنّي أعرف أنّ كلماتي ستكون صرخة في واد، فأنا أعرف رأيه من قبل، ليست المرّة الأولى الّتي ينـــزع حجابـــي فيها، أوّل مرّة كانت في الصّيف حـــين رافقـــته لـــزيارة صديق له، قال لي حينها: "سأعرّفك على صـــديقيّ، وستعجبك جميلة، ربّما تصبحان صديقتين، فهي لطيفة، ولهـــا محاولات في كتابة الشّعر". حين وصلنا مدخل البناية، نـــزلنا إلى طابـــق ثالث تحت الأرض، كانت المرّة الأولى الّتي أرى فيها بيتاً منخفضاً هكذا! أفزعتني العتمة الشّديدة كلّما هبطنا بضع درجات، وقف شمس قبل أن يطرق الباب، ونـــزع حجابـــي، طواه ووضعه في حقيـــبتي، وقال: "لا أريد أن يرياك هكذا!". لا أستطيع وصف مـــشاعري في تلـــك اللحظـــة، كنت مرتبكة ومحرجة، وأحسستُ بالـــضيق والغيظ، والنّدم لأنّي جئت معه، وما يهمني من أصدقائه؟ ولماذا عليّ أن أبدو في مظهر يلائمهم؟ هل كان يخشى أن يسخر منه صـــديقه لمرافقته فتاة محجبة؟ قال لي: "نسمة، هذه آخر مرّة تضعين فـــيها الحجـــاب". قلت بغيظ: "بأيّ صفة تأمرني؟". نظر إليّ نظرة جعلـــتني أرتعـــش، واكتفى بالضغط على أصابعي بيد وعلى جرس

الباب بالأخرى! حاولت نـــزع يدي من كفه، إلا أنّه جذبني إليه، وصديقه يفتح الباب مرحّباً بنا.

لا أنكـــر أنّ "جميلة القاسم" كانت امرأة لطيفة فعلاً، حاولت أن تجذبني للمشاركة في الحديث، لكنّي لم أستطع أن أنطق سوى كلمات المجاملـــة، وأنا أنظر في وجه شمس أحثه على النّهوض. حين خرجنا إلى الشّارع، عرفت إحساس يوسف حين خرج من الجب. فيما بعد حين التقـــيت جميلة في استكهولم عرفت أنها كانت تعيش مع صديقها من دون زواج، وأنّهـــا اضـــطرت إلى مغادرة البلاد بعد اعتقاله خوفاً وفي اللحظة المناسبة.

هزّني صوت شمس، وهو يجلس بجانبـــي، ويأخذ يديّ بين كفيه، ويحدّق في عينيّ:

- وجودك حلم تمتدّ إليه يدي لتتحقق من أنّه حقيقة!

- ألم تشعر به يدك بعد؟

- بلـــى، شـــعرت به يدي، بعد أن استشعرته روحي، ما أجمل المكان بك!

- لأنّك ترى بقلبك، وجدتني كذلك.

- بل لأنّك كذلك وجدك قلبـــي.

لم أجب، كنت في تلك اللحظة أرشف نظراته، لون عينيه، وكفي مرتاحة كحمامة بين يديه.

لم أفهم معظم ما قاله، لكنّي واثقة أنّه ليس بأهمية ما كنت أشعر بـــه في تلك اللحظة، كنت على يقين أنّ كلّ ما حولي تلاشى، سكن الكـــون تماماً، وتلاشت الأصوات... لم أعرف متى فتحت عينيّ على نبـــضي الصّاخب، وهو يطرق أذنيّ بعنف، وقد ضرب الدّم وجهي... مـــددت أصابعي لأمسح شفتيّ من رطوبة قبلته وأنا أرتعش. أحسست

وقـــتها أنّـــه اعتدى على الحلم، واغتال صورته المثالية في ذهني، لكنّي كـــنتُ مـــنجذبة إليه كفراشة تعشق الضّوء، وتهوى الاحتراق. مسّد شـــعري، وهـــو يغمغم: "كم هو ناعم، لَم تخفين كلَّ هذا الجمال؟". أردت أن أقـــول لـــه، إنّـــي أحتفظ به له وحده، لكنَّ لساني يبس في حلقي، و لم أستطع أن أنطق بحرف!

لم يدم شرودي طويلاً، وفي أعماقي شكرت فدوى، لأنّها جاءت في الوقت المناسب. لم أستطع تناول شيء من الطّعام رغم إلحاح شمس، واكتفـــيت بمراضاة فدوى ببضع لقيمات من التبولة، فقد أقسمتْ أنّها عملتها لأجلي...

انتهز شمس فرصة خروج فدوى لإحضار الشّاي، أخذ يدي ثانية، قلت بحذر:

- ألن نـــزور والدتك؟

قال بغيظ:

- مـــنوّر نائمة الآن، تعلمين أنّها منذ موت الحاج علي لم تغادر غرفتها، وهي في حال لا تمكّنها من مقابلة أحد الآن، سترينها في زيارة أخرى.

الحاجـــة منوّر كما كان يحلو له أن يناديها، لم تغادر غرفتها منذ مـــوت الحاج علي المناخيلي رفيق دربها، إلاّ لزيارة المقابر، تذهب إلى هناك صباح كلّ جمعة، ترش قبور أحبائها بالماء، وتزيّنها بالورد وأعواد الآس، يرافقها أصغر أحفادها ليقرأ معها القرآن، ويساعدها على اجتياز الطّـــريق المـــزدحمة، الّـــتي لم تعد "كما كانت أيام زمان" فقد كثرت السّيارات، واختفت العربات، وصار عليها أن تستعين بنظارتها الّتي لا تقدّم ولا تؤخر في معرفة الطرق والحافلات! رأيت الحاجة منوّر والدة شمـــس مرّة واحدة في الطّريق، عرّفها عليّ غامزاً، واكتفى بذكر اسمي،

فغـــرق وجـــه الحاجة البيضاوي بضحكة صافية، وربتت كتفي، وهي تقول:

- تعالي لبوسك.

غمرتني الحاجة بذراعيها على الرغم من قامتي الطويلة، واكتشفت حينها دفئاً غريباً، كانت نبضات قلبها قريبة جداً، وشعرت بالإحراج، فلم أنبس ببنت شفة، وزاد في حرجي همس شمس:

- سأغار منك يا حاجة.

الحاجة قالت ببساطة:

- ما رح تطوّل غيرتك.

ولكزته بمرفقها:

- انتبه لعروسك، ما شاء الله، خزيت العين حولك يا بنتي.

الحاجـــة منوّر كانت تتعامل مع شمس بطريقة تُشعر من يراهما أنّهمـــا أخـــوان، فقد حبلت به في الوقت الضائع، بعد أن تجاوزت الخمـــسين مـــن عمـــرها، وظـــنّت أنّ الدورة الشّهرية قد قطعتها، واستسلمت لإحساسها بأنّ التغيرات الّتي تطرأ على جسدها، كانت بـــسبب ســـن الـــيأس، و لم تعرف أنّها حامل، حتّى تحرّك الجنين في أحـــشائها، كـــان ذلك في سنة الخير - كما تصفها - حين قامت الـــوحدة بـــين مصر وسوريا، وكانت ترغب أن تسميه جمال، لكنّ الحـــاج علي المناخيلي الذي كان من جماعة عصام العطار، رفض أن يسميه باسم مارق مثل عبد الناصر، واختار له اسم شمس الدين، كان متفائلاً بالاسم جداً، وحين كبر شمس قليلاً في بيت يعج بأبناء الأخوة والأخوات، لم تكن منوّر تميّزه عن أحفادها، وخاصة ابن بكرها عبد الحمـــيد الذي توفي في ظروف غامضة، وتركته أمّه بعد مولده بسنة لتتـــزوج. وبقي شمس يحمل للحاجة إحساس الحفيد المدلل، ونفد من

أسلوب التّربية الصّارم الذي طال أخوته وأخواته. حتّى أنّه كان ينادي فدوى "عمتي" كما يفعل أبناء أخوته!

صحوت تماماً وهو يضغط أصابعي بقوة، ويحتجّ على شرودي: "لا أريد أن يسرقك مني شيء". همسه لسع وجهي، لم أستطع أن أقول: "من يجرؤ؟ وأنا قطرة تسبح في شهد عينيك". ابتسمت عيناه، بسمتهما تلك الّتي تأسر قلبي، وتقيده بأطواق الياسمين، وتطلق روحي في سمائه، يمامة تنقر حب الشّوق واللهفة والوجد... لا أدري أيّ سحر تغزله ابتسامة عينيه وهما ترنوان برقة إلى عينيّ، ترصدان ارتعاش شفتيّ، وتقلبات وجهي، ورجفة يدي، وإطراقي الطّويل خشية أن أفقد توازني أكثر! "ارفعي رأسك، لماذا تهربين من نظراتي؟ أريد أن أسمعها منك، أحبكَ". شعرت بأنّ نبضي سيتوقف، أحبّكَ؟ أشعر أنّ الكلمة تافهة أمام ما أشعر به في هذه اللحظة.

أنقذني صوت فدوى، وهي تنادي شمس ليفتح الباب. حين انفرجت الدرفة الثانية، رأيته يدفع أمامه الكرسي المتحرّك ليواجهني وجهٌ جميل لشاب يبدو أقرب إلى النّساء بنعومة بشرته، وجمال عينيه، وتصفيف شعره الكستنائي الكثيف. قدّمه شمس:

- ابن أخي عبد الحميد.

ولد في سنة "الكوارث" كما تسمّيها الحاجة، السّنة الّتي مات فيها عبد الحميد قبل أن يرى ابنه، وانفصلت مصر عن سوريا! ومُنع فيها الحاج عصام العطار من دخول سوريا في طريق عودته من مكة. وقتها حظّر الحاج علي المناخيلي على أهل بيته الاحتفال بعودته، ونزع الزينة من الأبواب، وترك عبارات التّرحيب فقط، وأطلق على المولود الجديد اسم عصام وفاءً لصديقه ورفيق رحلته إلى الحج.

لم يكـــن عـــصام قد تجاوز السّنتين من عمره حين أصيب بمرض الـــسّحايا، وقـــد ظنّت الحاجة منوّر في البداية أنّ جنياً تلبّس الطفل، بـــسبب تلك التّشنجات الغريبة الّتي سيطرت عليه، والزبد الذي يخرج مـــن فمه أثناءها، فأخذته إلى المشايخ، ونذرت له النذور، وأكثرت من الـــصّدقات، لكنّ حال الطّفل لم تتحسن، حتّى التقت يوماً ابن خالها العائـــد من بيروت، نظر إلى الطّفل باستغراب، وسألها عما به، فأخبرته بالأمر، فما كان منه إلاّ أن طلب منها الحصول على ورقة للسّماح لها بالسّفر.

رافقها قريبها إلى بيروت مع الحاج علي، كلُّ ما فهمته آنذاك أنّ الدكـــتور الـــذي سيعالجه صديقٌ لقريبها، وأنّ المستشفى لا يدخله إلاّ أصـــحاب الوســـاطات. فوجئت حين وصولها إلى مستشفى القديس جاورجيوس في الأشرفية "الروم" أنّ الأطباء يتحدّثون هناك بلغة غريبة، لم تعرف بالتّحديد إن كانت الفرنسية أم الإنكليزية، فهي تروي الحادثة أحـــياناً بقولها: "جاء طبيب أمريكي" ومرّة تقول: كان يكلّم الممرضة بالفرنـــسية! أصعدوها إلى الطابق الرابع الخاص بالأطفال، وكانت المرّة الأولى الّـــتي تـــركب فيها المصعد الكهربائي، تحكي عن ذلك وكأنّه أعجوبة العصر.

أدخلـــوها إحـــدى الغـــرف، وطلبوا منها خلع ملابسها كاملة، وأعطوها ملابس خاصة بالمستشفى. تقول ضاحكة، إنّها للمرّة الأولى تعتمر "بيريه" الممرضات، وكان شكلها مضحكاً، وإن قالت لها إحدى الـــراهبات، إنّها تبدو كأميرة بلباسها ذاك! ما حز في نفسها ذلك اليوم أنّهم أحرقوا ملابسها وملابس الطفل، فقد كانت ترتدي ثوب المخمل الأزرق الـــذي أحـــضره لها الحاج من الحجاز. أدخلوها غرفة معقمة، مُـــرتّبة، كلُّ ما فيها أبيض، الشراشف والأسرّة، والجدران، والنّوافذ،

خـــيطٌ أخضر وحيد يمكن أن تراه، إن هي أطلّت على الحديقة الرائعة الجمال الّتي تحيط بالمستشفى!

أسمـــت تلـــك الغرفة "غرفة عزرائيل" وهي أوّل درجة في سلّم يـــصعده المـــريض بعـــد دخوله المستشفى، يدخلونه هذه الغرفة، فإن تحـــسنت حاله، نُقل إلى غيرها، وإن لم تتحسن، يبقى فيها، حتّى ينتقل إلى يدي ملك الموت.

في الـــيوم الخامس أخذوا الطّفل من بين يديها، وطلبوا منها عدم مغـــادرة الغـــرفة، لكنّ شيئاً حارقاً كان ينهش أحشاءها، ويدفعها إلى كـــسر الحصار والخروج إلى الممر الطويل، هناك همست لها مستخدمة كانت تنظّف المكان "أنت واحدة مجنونة، الحقي، خذي ابنك منهم قبل مـــا يقـــتلوه". لم تعرف كيف اخترقت قلبها تلك الكلمات، وجعلتها تـــركض مـــن دون وعي إلى غرفة العمليات، دفعت الباب، ودخلت. تقسم أنّها رأت في تلك اللحظة مجموعة من القتلة، يسترون وجوههم المخـــيفة بأقنعة خضراء، وقد قيّدوا الطّفل إلى السّرير، وفي أيديهم إبر ضـــخمة، يسحبون بها سائل الحياة من عموده الفقري. لا تعرف شيئاً ســـوى أنّ أحـــدهم صفعها "كفاً" على وجهها، وشتمها بلغة أجنبية، ودفعهـــا خارج الغرفة، وهي تصرخ: "أعيدوا لي عبد الحميد". بقيت فترة من الزمن تعتقد أنّ جنّياً قد تلبّسها، اعترفت بذلك، بعد أن رأت حفيدها عصام في السّرير أمامها، وأدركت أنّه ليس ابنها عبد الحميد!

قـــضت هـــناك خمـــسة عشر يوماً، كانت كلّما انتقلت إلى غرفة أخرى، شعرت بأنّ روحها تحلّق خارج الجدران، وأنّ الفرج قريب.

وبالفعـــل انتهى علاج الطّفل، وغادرت المستشفى معه، بعد أن طلب منها الطّبيب العودة كلّ أربعة أشهر لمراجعته.

مـــضت سنوات أربع وعصام يخاف أن يمشي أو يصعد الدّرج، ويتعثر في الكلام، كما يخاف الغرباء، إلى أن أصبح في سن المدرسة.

كانـــت الحاجـــة مـــنوّر ترافقه يومياً في غدوه ورواحه، إلى أن اضـــطرت في أحد الأيام أن تلزم البيت لأمر طارئ، فعاد عصام وحيداً تحـــت المطر، وتعثر في الطّريق، وبقي مرمياً على الأرض حتّى عثر عليه أحد الجيران.

لم يطل الأمر به وهو يعاني من الحمى، لكنّ المفاجئ أنّه لم يستطع أن يـــنهض مـــن الفـــراش بعد ذلك. وبقي على هذه الحال سنوات، اضـــطروا بعدها إلى شراء كرسي متحرّك يساعده في الخروج إلى أرض الدّار، والتّنقل في الزقاق مع الأولاد.

وضـــع عصام الصّعب بالإضافة إلى حرقة قلب الحاجة على ابنها البكـــر الـــذي وجُدَ في غرفته مشنوقاً في صباحٍ ربيعي؛ جعلاها تعامل الطّفل برفق شديد، وتدلله، وتلبـــي طلباته، وقد شعر هو بوضعه المميز في العائلة، فأسرف في دلاله، وطلباته المستحيلة.

كنت أعرف كلّ هذا، قبل أنْ أراه داخلاً إلى الغرفة على كرسيه المتحـــرّك، يدفعـــه شمس، فيبدو كأمير في جماله الملفت للنّظر وعنايته بملبسه وشكله.

نهـــضتُ ببطء، ومددت يدي لأسلّم عليه، أبقى أصابعي في كفه لحظـــات خلـــتها دهـــراً، ضغطها برفق، وهو يحدّق في عينيّ بذهول، أحرجني تصرفه، مع هذا لم أقدم على سحب يدي فوراً. لاحظ شمس ما يحدث، فقال بمرح:

- لا شكّ أنّه يجد شبهاً بينك وبين ممثلات الزمن الذي يحبه، قلتُ لكِ سابقاً، ابن أخي مغرم بالسّينما، وهو يحبّ شادية وفاتن و..

قاطعه عصام، وهو يلفظ كلماته ببطء، وعيناه معلقتان بشفتيّ:

- هدى سلطان! ألم أقل لك مرّة إنّني مغرم بها؟

حاول شمس صرف نظر ي عنه، وقال:

- لقد تأخرنا، عندنا محاضرة، ألا نذهب؟

تابع عصام - وكأنّه لم يسمع كلام شمس - موجهاً حديثه إليّ:

- تشبهك، نفس الإثارة في الجسد، والعينين، تملكين نظرة تذبح، ألا ترين نفسك في المرآة؟

اضطر شمس إلى تنبيهي مرّة أخرى:

- هيّا، لقد تأخرنا.

لكنّه لم يتوقع ردّة الفعل الشّرسة لعصام، الذي صرخ به فجأة:

- أنت أناني، إنّها تريد أن تبقى، لم أتحدّث إليها بعد.

أمسك شمس الدين يدي، ولم يتح لي فرصة وداع فدوى كما يليق. في الزقاق، ترك يدي، وسار بخطوات سريعة حتّى وصلنا الميدان الكبير، حينها نطق أوّل كلمة:

- آسف نسمة، لم أتصوّر أن يتهوّر هكذا، لا بدّ أنّك تعذرينه.

لم يتوقع ردّي، بل صعقه، وتوقف لحظات ينظر إليَّ مستغرباً، وأنا أقول:

- ولماذا أنزعج منه؟ هل قال ما لا يليق؟ لقد أبدى إعجابه بهدى سلطان، وقال إنّي أشبهها! وأنا فعلاً أشبهها، أم أنّك ترى غير ذلك؟

قال بصوت غريب:

- ألا تفهمين؟ إنّه يتغزل بك، قال: هي تشبهك. أنت لا تفهمين.! بلا شك لا تفهمين!

قلت، وكأنّما لإغاظته:

- أنت من لا يريد أن يفهم، ابن أخيك مقعد ومسكين، ويحتاج لمعاملة خاصة، وأنا لا أستطيع أن أكون فظة معه.

قال بسخرية:

- وأنتِ من سيصلح الكون!؟

لم أجب، على الرغم من تحرشه بـــي طوال الطّريق "هل تتناولين كـــأس شاي في مقهى النّخيل؟" "ما رأيك لو أخذنا بعض الشّطائر؟". ساعة ونصف قضيناها مشياً حتّى وصلنا الكلية، ودخلنا قاعة الجاحظ، وأنـــا مصرّة على الصّمت، يبدو أنّه قرر أن يردّ لي موقفي بموقف أشدّ إيلاماً، انسحب قبل نهاية المحاضرة بهدوء، من دون أن يلتفت إليّ.

بدا لي الممر المؤدي إلى الدّرج الخارجي للكلية بلا نهاية، استوقفني "المـــثنى"، وســـألني عن شيء ما، ربّما يخص محاضرة فاتته، لم أفهم ما يقـــول، تركته ومضيت من دون انتباه. ركبت سيارة أجرة، ومن غير هدف قصدت الحديقة، جلستُ في مكاننا المعتاد على الرغم من برودة الطّقـــس، لم أهتم كثيراً لنظرات الفضوليين الذين يمرّون بمقعدي، ولا لحـــارس الحديقة الذي كان يصدر صفيراً خفيفاً كلّما مرّ قربـــي، ولا للعشاق الذين يتأبطون ذراع الحب، ويرشقونني بنظرات إشفاق، حتّى حلّت العتمة.

لم أكـــن أودُّ مغـــادرة المقعد البارد، الصّقيع الذي لفّ جسدي، أوقف إحساسي بالعالم من حولي، لكنّ نظرات الحارس المرتابة، نبّهتني إلى أنّ السّاعة تجاوزت الثامنة، وأنّ جلوسي هكذا مثل تمثال من جليد قد يعني...

كدت أصدم نفسي بالعبارة المناسبة، لكنّي نهضت فوراً، وقصدت الطّـــريق الرئيسي، ومن هناك تابعت سيري، حتّى أوقفني صوتٌ شرس لجندي يقف على مفرق الطّريق الصّاعد إلى حينا، ورأيت الحديد البارد للسلاح يلمع في وجهي، فتوقفت:

- إلى أين؟

- إلى بيتنا، هناك.

- افتحي الحقيبة.

نـــبش حقيـــبتي اليدوية، وفتّش كتبـــي، ضحك وهو يرمي زهـــرات الياسمين اليابسة من بين الصّفحات، ونظر في عينيّ بوقاحة أربكتني:

- المعطف.

خلعت معطفي، وناولته إياه، ردّه إليّ، وهو يبتسم:

- جمـــيلة مـــثلك عليها أن تخاف من المشي في مثل هذه السّاعة وحدها.

هـــاجمني البرد بعنف، اصطكت أسناني، وعرتني رجفة قاسية، لم أفلـــح في الـــسّيطرة عليها حتّى دخلت غرفتي، وأقفلت بابها، وتمددت على سريري.

استلقيت على وجعي، أزفر أنفاسي بحرقة، أحدّق في السّقف علّ النّوم يضغط أجفاني، لكن لا فائدة، إن أدرت وجهي إلى الجدار، رأيت وجهه يرتسم على الجير الأبيض عاقداً حاجبيه بتوتر. أهرب من الجدار إلى الطّـــرف الآخر للسّرير، فأجده على الكرسي مواجهتي، ينظر إليّ بعتب. أيمكن أن يكرهني شمس؟ يا لي من حمقاء!

قـــضيت اللـــيل تأكلني الهواجس، وتنهب دماغي التّساؤلات، أحـــياناً ألتمس العذر له، وأحياناً أغضب حدّ التّفكير في القطيعة، وأحياناً أنظر إلى المشكلة بحياد، وأقنع نفسي أنّه محقٌ في غيرته، ثمّ لا ألـــبث أن أصرخ بوجه العتمة المحيطة بـــي "غيرة؟ أيّة حماقة تلك! اللعنة عليه، وعلى الغيرة، إنّه، إنّه...". يأبى لساني أن يلفظ ما يهينه، وتغـــوص العبارة في صدري، تلسعه، فأشعر بالسّم يسري في بدني، البرد، السّم، شمس...

أهـــذي حتّـــى تطلّ الشّمس من نافذة الغرفة، وأسمع ضجيجاً في الخـــارج. فيشملني الصّمت، وأحسّ أنّي بدأت أرتاح لقراري بنسيان الموقف كلّه، وكأنّه لم يكن... وأغفو.

أفقـــت من كوابيسي على تقلّصات رهيبة في معدتي تقول: "انهضي يا مجنونة وتناولي الطّعام، أنت لم تأكلي منذ البارحة، لا فائدة مما تفعلينه".

خـــرجت مـــن غرفتي وأنا لا أكاد أتوازن، الصّداع يكاد يفجّر رأســـي، حاولت أن أضع بعض الطّعام في فمي، لكنّ اللقمة وقفت في حلقـــي، دفعتها بكأس ماء، وصنعتُ شراب ليمون. امتلكت بعضاً من صفاء ذهني. كاد الدّمع يطفر من عيني، وأنا أستعيد ما حدث، حدّثتني روحي "لقد سأل عنكِ اليوم، باله مشغول".

قفزتُ من مكاني ملسوعة، وقلت بدهشة: "حقّاً سأل عني؟ ماذا قـــال بالـــضبط؟". "قال إنّك مجنونة، ولا تستحقين شاباً عاقلاً ومتزناً مثله".

أعـــرف أنّ شمس لم يقل هذا، مع هذا سألت روحي بفتور:"هل حقّاً أنا مجنونة؟ هذا إذا سلّمنا فعلاً بأنّه عاقل ومتزن!".

قالـــت روحـــي: "أنت فعلاً مجنونة، وسيضيع شمس منك بسبب حماقاتك الّتي لا تنتهي".

قضيت بقية ساعات النّهار الشّتوي القصيرة، وأنا أدور في الغرفة كالمجـــنونة، ولم أســـتطع الاحتمال أكثر، فخرجت أمشي وحدي في الشّوارع.

فاجـــأني المطر، عند مركز المحافظة، تلفتُّ حولي مذهولة، لأجد الـــشّوارع خالـــية تماماً، والمطر بلل ملابسي، واخترق جلدي، حتّى راحت عظامي ترتجف. وكأنّ الدّنيا تآمرت عليّ كلّها في تلك السّاعة، فانقطع سيل السّيارات، وحين تمرُّ واحدة، أجدها متخمة بالرّكاب.

أخيراً أطلّت سيارة أجرة فارغة، قبل أن أومئ للسائق، انتبهت إلى أنّي لا أحمل حقيبتي!

كـــيف أوقف سيارة أجرة وليس معي نقود؟ ولا هوية، ولا... يـــا إلهي! لم يعد أمامي سوى العودة سيراً متحدية المطر أو متآلفة معه! بعـــد ساعة من المشي، كنت أسبح داخل ملابسي الخفيفة، و لم أشعر بدفء المنـــزل، ولا بطعم الشّاي، ولا بنعمة ارتداء ملابس جافة.

في العاشرة صباحاً، كنت أعبر الممر الضيّق في الحديقة المؤدية إلى الكلية حين سمعته يهمس قرب أذني:

- صباح الخير يا قمر.

لم ألـــتفت، تجمّـــدت للحظة، خفق قلبـــي بعنف حتّى سمعت ضرباته تعلو في أذنيّ، تراكمت كلمات الاعتذار في حلقي، كنت أودُّ احتـــضانه وإشـــهاد الأشجار المبللة بالمطر، والسّماء الغائمة، ولسعات الـــبرد، والكـــون بأســـره على عشقي لتلك الذبذبات النّاعمة لصوته الهـــامس. لكـــنّ قدميّ سارتا عكس اتّجاه القلب، وملامحي احتفظت ببرودها وحياديتها. وكأنّني لم أسمع شيئاً!

لحق بـــي، وحاذاني، وأمسك يدي:

- توقفي؟ تخطئين وتكابرين.

ارتـــسمت الدّهـــشة علـــى وجهي، ورفعتُ حاجبيَّ استنكاراً، وانتزعت كفي من يده:

- تكلّمني أنا؟

كدت أقول له: "أردت أن أعرف كم تحبني؟ أردت أن أختبر عـــواطفك قلـــيلاً، أردت أن... يا إلهي كم أحبك!". لكنّي قلت ببرود:

- ضربني وبكى!

انفـــرجت أساريره بابتسامة عذبة، تحوّلت بثوان إلى ضحكة من القلـــب، أردت أن أقـــول له: "أعشق هذه الضحكة، ليتك تضحك باستمرار". لكنّ لساني قال بحمق:

- تهزأ مني؟ أم تراني مهرِّجة؟

توقف عن الضّحك، وعبّر بحركة من يديه عن حيرته، وآثر متابعة الطّريق إلى الكلية.

"اللعـــنة لقد تركني، ما به؟ من يظن نفسه؟ فليذهب إلى الجحيم" أسرعتُ الخطا، وتجاوزته، صعدت الدّرجات قفزاً، غير مبالية بالكعب الرفيع العالي لحذائي، الذي تصاعدت ضرباته المنغمة عالياً في فضاء الممر الخالي في هذا الصّباح الباكر، فرك أوراق شجرة "الفلفل" بيديه، وقرّبها من أنفي، يعرف كم أحبّ هذه الرّائحة، أداعب أوراق الشّجرة كلّما مـــررت في الحديقة، أقطف بعضها، وأخبئها في حقيبتي. أمسكني من يدي، وهو يحدّق في جسدي، ظننت في البداية أنّ ملابسي الجديدة قد أعجبـــته، خاصـــة وأنّي اخترت لونين يعجبانه العسلي والبيج. قبل أن ينطق بحروفه المربكة، توقعت أن يبدي إعجابه بذوقي، لكنّه قال بمنتهى الجدية:

- تعرفين أنَّ مؤخرتك جميلة؟ مالك؟ هل قلت ما أفزعك؟

صـــعقتني العـــبارة، ارتجفت الكتب بين يدي، وخرس لساني، لم أعـــرف بمَ أجيب! كيف يجرؤ؟ هل أسبّه؟ هل أصفعه؟ هل... استدار قبل أن يدخل القاعة، وهمس لي:

- تناسبك هذه التّنورة المكسرة، حلوة، وفضفاضة، لا تلبسي زيّاً ضيقاً بعد الآن.

جلـــس قربـــــي، وتشاغل بفتح كتبه ودفاتره وكتابة عبارة ما، نظـــرت إلـــيه بطـــرف عيني، انفتح الأفق في مواجهتي خلف النّافذة

الواســـعة، فرأيت حقلاً من زهور عباد الشّمس، رفعت أعناقها صوب شمـــس باهتة، ترسل أشعة بخيلة، ثمّ تختفي وراء سحابة! اخضلّت عيون الزهر الأصفر، وانحنى صوب التّراب، كدت أصرخ لولا إحساسي بيده تضغط يدي المتشنجة فوق المقعد. كتب على الورقة متسائلاً:

- هل تشعرين بألم؟

انتـــبهت إلى أنّ الدكتور شوقي يرمقنا بريبة، فتشاغلت بكتابة ما يقول بشكل آلي.

خرجت قبله عند انتهاء المحاضرة، وسبقته إلى المقصف، لمحت المثنى قادمـــاً مـــن آخـــر الممـــر، وهو يومئ لي. بادرني بالتّحية، ومدّ يده، صـــافحته، فتـــرك يدي بين كفيه، ونظر إليّ طويلاً قبل أن يستأذن في الجلـــوس إلى طـــاولتي. أحسست بالحرج، وعرفت أنّ ذلك سيضايق شمـــس، فقـــد تطورت الأمور إلى درجة لم أعد أطيقها. انتبهت على صوت المثنى يقول:

- مـــنذ قـــرأتُ اسمك في لوحة الإعلانات بجانب النتائج، لفت انتباهي شيءٌ غريب.

قلتُ بلا مبالاة:

- ما هو؟

قال:

- ذكّرني اسمك باسم شخص أحبّه.

قلت بحياد:

- ومن يكون؟

قال هامساً:

- شخص نكن له الاحترام، وتتحدّث عنه مجموعتنا بالخير، فقد كان من أوائل من أسسوا حزبنا. اسمه ماهر عبد الحي الصّياد.

فتحت فمي دهشة:

- أبـــي؟

قال بذهول ممزوج بالفرح:

- أبوك؟ حقّاً ما تقولين؟ أنت ابنة ماهر الصيّاد؟

قلتُ مستنكرة:

- و لم تستغرب؟ هو حقّاً أبـــي.

قال بحيرة:

- أستغرب أن تكون ابنة مجاهد قديم مثله شيوعية.

قلت بحدّة:

- أنا لست شيوعية، ثمّ من قال لك إنّ أبـــي من الأخوان؟

قال بهدوء:

- أعـــرف أنّـــه اعتـــزل السّياسة منذ زمن طويل، ظاهرياً كما أتـــصور، لكن هذا لا ينفي تاريخه النضالي، وربّما تاريخه الحالي أيضاً، أعـــتقد أنّـــك لـــست في صورة ما يحدث من حولك، أمّا عنك، فقد حكمت من خلال معرفتي، أنّ المرء على دين خليله!

لم يتـــرك لي فرصـــة لأعترض، فقد تابع، مغيّراً لهجته القريبة من الهمس، وشحن صوته بكلّ ما يستطيع من دفء، وقال:

- تعلمـــين، أنت الوحيدة من بين فتيات دفعتنا الّتي أشعر بالارتياح إلـــيها، فقط لو لم تكوني مرتبطة بشمس... لكن هذا لن يمنعني من البوح بمكـــنونات نفسي، أحسّ حين أراك بطاقة نور تنفتح، فتتلاشى الجدران، وأرى الكلية حديقة كبيرة، أنت تشبهين ملاكاً نورانياً أخشى لمسه، أنا لا أريد منك شيئاً، فقط دقائق تستمعين فيها إليّ، دقائق لا أكثر.

لمحت وجه شمس المكفهر وهو يمرُّ قرب الطّاولة، ويمضي إلى زاوية بعـــيدة، يـــضع كتبه، ويأتي بكأس الشّاي، يشعل سيجارته، ويتأملني

بغـــيظ، لم أعد أسمع شيئاً مما يقوله المثنى، كنت أنتظر أن ينهي حديثه، وينـــسحب، لكنّه استرسل في وصف مشاعره، حاول أن يلطّف الجوّ بسرد طرفة، لكنّي لم أبتسم، كانت أعصابـــي متوترة إلى درجة لم أعد أطـــيق معها وجوده، فاعتذرت منه، ونهضت. سرت إلى طاولة شمس، جلست صامتة، انتظرت أن يبدأ الحديث لأعرف كيف أدير دفته. قال بغيظ:

- ماذا كان يقول لك؟

قلت:

- حدّثني عن نفسه وأمه وضيعته، وفقره، وظروفه السّيئة، وسألني عن أبـــي وأمي وعائلتي.

قال بغيظ:

- وما المناسبة؟ هل يريد التّقدّم لخطبتك؟

ضـــحكت بـــصوت عالٍ على طرفة بدت لي في هيئته المتحفزة لقـــتال، ولـــشعوري العميق بالرضا من غيرته، وأردت أن تمضي تلك الغيرة إلى غايتها القاتلة، فقلت بمواربة:

- ومـــا الخطأ في ذلك؟ هو حر في تفكيره، لا يمكنني أن أحاسبه على مشاعره، مادام لم يخطئ في معاملتي!

كاد يصرخ في وجهي، لكنّه ضبط صوته، وقال بهدوء مفتعل:

- لا أريد أن أراه معك ثانية.

قلت باستفزاز:

- لكنّه صديقك؟ ألست أنت من عرّفني عليه؟ أكاد أنكرك! قلت لي إنّك أحببتني لشخصيتي القوية والمستقلة، ألم تقل ذلك؟ ثمّ تريدني أن أهـــتم بقـــراءة ماركس، وتناصر الشيوعيين في أفكارهم، وتستنكر أن يكون لي صديق!

ارتبك قليلاً، وتشاغل في البحث عن علبة الدّخان، حين استقرّت السّيجارة بين شفتيه، شعرت برعشة زلزلت كياني، لم أعد أحتمل ذلك السّحر الذي تغمرني به شفتاه وهما تسحبان دخان السّيجارة بقوة، وتنفثانه في وجهي. اضطررت للنّهوض بسرعة، مدّعية أنّي أشعر بألم مفاجئ في معدتي، استأذنت، وركضت صوب الدّرج. حين انفلتُّ من الباب الخارجي إلى الفضاء الواسع للمرتفع المحاذي للكلية، دلفت تحت شجرة كينا، أغصانها تلامس الأرض بحنان، وتشكّل خيمة تحجب رؤية ما دونها. وضعت كتبي أرضاً، وافترشت الأوراق الجافة، وأطلقت العنان لدموعي. لم أتوقف كثيراً عند الأسئلة الّتي أربكتني "إلى متى هذا العناد؟ ماذا تريدين يا نسمة؟ ألا تحبينه؟".

توالت الأسئلة هذه المرّة من حنان صديقتي الّتي تشاركني السّكن، بعد أن دلفت ورائي إلى خيمة شجرة الكينا الصّغيرة، وهي تتساءل عن سبب تخلّفي عن حضور حصة اللغة الإنكليزية. رددت بسخرية:

- هو عدائي الأزلي مع اللغات، ألا تعرفين؟ ثمّ مدرّس اللغة ذاك لا ينزل في حلقي، لا أستطيع هضمه.

ضحكت ضحكة مجلجلة، وهي تحدّق فيّ:

- من أين نأتي لك بمدرسين على مقاسك؟ استبدلت اللغة الفارسية بالعبرية لأنّك لم تهضمي أستاذها، يا ستي، تحتاجين إلى رحى وليس إلى معدة، إنْ كانت المسألة متعلقة بالهضم، وأنا أعرف معدتك الحساسة. لكن... يبدو لي أنّ الموضوع متعلق بشمس، وليس بمدرّس اللغة الوسيم الذي تتهافت عليه الطالبات.

رددتُ متجاهلة إشارتها:

- من قلة عقلهن، هو من دون شخصية، خجول، ويتلعثم من نظرة.

قالت:

- وشمس؟

سالت دموعي رغماً عني، لم أستطع هذه المرّة أن أكبح غضبـــي، ولا غيظـــي. شمـــس! لا أعرف من منا يدور في فلك الآخر، ومن منا ســـينحرف عـــن مجرّته أولاً، ولا كيف سينفجر محطّماً في طريقه كلّ الأحـــلام الّتي بنيناها على هرم من رمال. وأبقى مندفعة في اهتياجي. كـــدت أصـــرخ "هذا العشق سيهلكني" لكنّي قلت بغيظ: "أكرهه، فليذهب إلى الجحيم".

قالت: "معه حق، إنّه يغار عليك، راعي شعوره، لماذا جلستِ مع المثنى؟".

قلت بغيظ: "المثنى صديقي".

لم تقتـــنع حـــنان بما قلت، كانت تعتقد أنّي أورط نفسي بمغالطات كـــثيرة، ستدمر علاقتي مع شمس، وتؤمن أنّه لا وجود لعلاقة صداقة تربط بين شاب وفتاة، ما لم تكن تلك العلاقة عتبة للحبّ. أحياناً أحسدها على عقلها وسلامها الروحي. حين تعرّفت عليها، اقتنعت تماماً بضرورة الهرب مـــن الجوّ الموبوء في المدينة الجامعية، الذي لا يلائم مزاجي، والسّكن معها من دون أن أخبر أحداً بذلك. كنت أحتاج لصديقة أثق بها، تربّت كتفي، وأنا أروي لها أحلامي، وأخبرها عن كوابيسي، غيظي من شمس وحبـــي لـــه، حينها تضحك، وتقول: "أنتِ مثل شمس شباط". تأسرني طريقتها في حـــشر اسم شمس في كلّ جملة تخاطبني بها، من تحيّة الصّباح "شمسك عالية الـــيوم" إلى وصـــيتها المعتادة قبل النّوم "لا تفيقي قبل طلوع الشّمس مثل الشّحاذة وبنتها، وتزعجيني بضجيجك المعتاد!".

غفـــوت عـــند الظّهر بعد تناولي كأس نعناع وبعض المسكنات، وتدثرت بعدد من الأغطية السّميكة، فرأيت المثنى في الحلم، كنّا معاً في

بــريّة واســعة، ربّما هو حقل قمح أخضر، اكتسحته زهور النّرجس وشقائق النّعمان، أومأ لي لأقترب، حين صرت بمحاذاته، أشار إلى بقعة فيها زهور غريبة، وقال كلاماً لم أفهمه، واقترب أكثر، وأمسك يدي، وقــال: "ستكونين لي". استيقظت مذعورة على الرغم من لطافة الجوّ والنّسيم والشّمس، وانطلاقي بين الحقول، وتلك الرّائحة العذبة للقرنفل الّــتي زكمــت أنفــي!. إلاّ أنّي بعد ساعة من الصّحو نسيت الحلم، ونسيت ذعري، وتحاملت على نفسي لأذهب إلى الكلية، كنت أريد أن أرى شمس، لم أستطع أن أحتمل أكثر.

حــين وصلت، كان الوقت مبكراً على موعد المحاضرة، لكن لا أدري لَمَ اعــتقدت أنّــي سأجد شمس هناك. خاب ظني، وقفت أنتظر بغــيظ، أنظر في ساعتي حيناً وأراقب المدخل حيناً، إلى أن لمحت المثنى قادماً، وهو يضحك، سلّم عليّ، وقال:

- قلــب المؤمن دليله، شيءٌ ما حثني على القدوم قبل الموعد، لا، بل إحساسي بأنّي سأجدك هنا.

قلت بحياد:

- حسناً، وها أنت وجدتني، ما الأمر؟

قال:

- لنجلس في المقصف، ريثما يحين موعد المحاضرة.

حــين رأى تــرددي، قال بأنّه يريد إخباري أمراً مهماً. أحضر الشّاي، وجلس مواجهتي، وهو يقول:

- نعم يا سيدتي، حدّثيني.

قلت بضيق:

- هل تراني شهرزاد؟ ثم أنت دعوتني لأمر تريد أن تحدّثني عنه!

حدّق في عينيّ طويلاً، قبل أن يقول:

- أنـــت أجمـــل بالثوب الزيتي، هذا اللون يعطيك أصالة شجرة، أجمل بكثير من اللون البني الفاتح والبيج، لكن ليس هذا ما أردت قوله حتماً.

وخـــزني قوله، هذان اللونان اللذان يحبّهما شمس! داهمني إحساسٌ بوقوع مصيبة، مقدمة حديثه تقول ذلك!

أشعل سيجارة، نفث دخانها بعصبية، وتابع:

- أنـــا محرج في الحقيقة، لا أعرف ماذا أقول لك، ربّما تعتقدين أنّي أحاول الإيقاع بينك وبين شمس، لكنّي أحبُّ أن أضعك بالصّورة. هل أنت مستعدة لتفكّري بحياد في كلامي؟

قلت مسايرة له:

- نعم.

- لي رجاء وحيد، شمس أسرّ لي الحديث لأنّنا صديقان، أرجو أن يبقى ما سأقوله بيني وبينك.

قلت بنفاد صبر:

- حسناً، أعدك، لن أخبره.

تنفس الصّعداء، وسحب كرسيه ليقترب مني أكثر، وقال هامساً.

- شمس لا يحبُّك، بصراحة، هو قال لي إنّه ينتظر الفرصة المناسبة لينهـــي مـــا بيـــنكما، لا أعرف كيف أخبرك، لكن أرجو أن تكون أعـــصابك هادئة، قال إنّه يشكُّ بك. وإن لم تصدّقي دعيني أخبره أنّنا خرجنا معاً، وانظري ردَّة فعله.

قلت بدهشة:

- ولماذا أضعه في موقع اختبار؟ لَمَ لا أسأله مباشرة عن الأمر؟

قال:

- لقد وعدتني! أم نسيت؟

قلت بغيظ:

- اطمـــئن، شمس لن يعرف ما قلته لي، وسيبقى ذلك في قلبـــي حتّى آخر عمري.

ابتسم المثنى بارتياح، وقال:

- حسناً لنذهب، اقترب وقت المحاضرة.

قـــبل أن أصـــل القاعة، رأيت "شمس" واقفاً أمام الباب، وكأنّه بانـــتظاري! شـــعرت بهبوط في ضغطي وألم في معدتي، وضرب الدّم وجهي بموجة حارّة. وصل المثنى قبلي إليه، وصافحه، لم يمد يده ليسلّم عليّ، وبادرني بالسّؤال:

- كنتما معاً؟

لم يترك المثنى لي فرصة لأفتح فمي، فقد ردّ بسرعة:

- نعـــم، كنّا معاً، منذ الصّباح، التقينا في الطّريق، نسمة كانت تشعر بالضّجر، وعدم الرغبة في حضور محاضرات الصّباح، فذهبنا إلى السّينما.

نظر شمس في عينيّ متسائلاً باستغراب:

- بجد؟

قلت، وأنا أتصنّع ضحكة، خرجت غريبة من حلقي:

- نعم، هل اعتدت الكذب عليك؟

انـــسقتُ وراء اللعبة، كنت أظنّها لعبة! لكنّي اكتشفت أنّها مؤامرة كبيرة كان هدفها قلبـــي! مَنْ تآمر على مَن؟ لمْ أرضَ بدور الضّحية يوماً، وفـــضّلت - حين حوصرت بكلام المثنى - أن أكون القاتلة لا القتيلة، مع يقيني أنّ التّسمية لا تليق بورطة ستكون الشّرارة الأولى لنار فراقنا.

أقنعت نفسي أنّه لا سبيل إلى التّراجع، وعليّ أن أمضي إلى نهاية الشّوط، وأنا وحظي!

لم تطـــل قناعتي، سيطر عليّ إحساس بالذنب، كيف أترك شمس يشكّ في تصرفاتي؟ كيف أتركه نهباً للهواجس من أجل مزاح سخيف؟ كلمـــات المـــثنى عادت لتطرق دماغي بشراسة "شمس لا يحبّك، شمس يشكُّ بك، شمس ينتظر الفرصة المناسبة لينهي علاقته بك". ماذا كان ما بينـــنا إذن؟! أيـــن أذهب بتلك القناعات الّتي سيطرت على مشاعري وتفكـــيري بأنّ شمس لي وحدي، ولن يكون لغيري يوماً؟ ماذا أسمي ما كان بيننا؟ هل يعقل أن يكون وهماً؟ مجرد وهم!

صـــدمني شـــعور مفاجـــئ يؤكد استنتاجي، أنا الّتي بدأت، أنا الّتي تحـــدّثت إلى شمس، كسرت الحواجز بسرعة لم يتوقعها، استوقفته بعد أيام مـــن بـــدء الدّراسة في السّنة الأولى، وقلت له: "أريد أن نكون أصدقاء". وكنت أعني ما فهمه بدقة "أشعر أنّي سأحبُّك" و لم يطل الزمن حتّى قلت: "شـــيء غـــريب يربطني بك، أشعر أنّ صداقتنا ستربطنا إلى نهاية العمر". وكـــنت أعني ما ترجمه لي: "أحبُّك، وأرغب أن نبقى معاً إلى نهاية العمر". أســـرني بتفسيره لما أقول، حتّى شعرت أنّ شمس يسكن روحي، وبإمكانه أن يفهم ما أريد حتّى وأنا صامتة، ويبدو أنّي انسقت وراء هذه الفكرة إلى حدٍّ خلط الأوراق ببعضها، و لم أعد أحسن اختيار الوقت المناسب للكلمة المناســـبة. وفهمـــت بعد فوات الأوان، أنّ شمس لا يمكنه أن يفهم تقلّباتي كلّها، مطري وصحوي، نـــزقي وجنوني، لا يعرف أن يفرّق بين حماقتي وجـــديتي. وواجهـــت خسارتي بشجاعة حسدت نفسي عليها. شجاعة دامت أياماً، كانت قاسية ومُرّة.

في الخـــامس عشر من الشّهر، خطر لي أنّ شمس سينسى في هذا اليوم ذلك الموقف، وسيأتي إلى الكلية، لكنّي فوجئت بالصّقيع هناك، لا أثـــر له، كدت أبكي، وقررت العودة إلى البيت، وقبل أن أعبر الحديقة إلى موقف الحافلة، سمعت المثنى يناديني.

هـــرول، حتّـــى لحق بـــي، وتوقف وهو يلهث. ناولني سلّة من الخيزران، فيها لفافة ورقية، وقال:

- أرجو أن تقبليها مني، لا تفتحيها الآن.

أخـــذتها بيد مرتعشة، طوال الطّريق وأنا أفكر، لِمَ جلب لي المثنى هديـــة؟ ماذا يقصد؟ شغلني الأمر حتّى دخلت غرفتي، وأغلقت بابها. مـــددتُ يداً مترددة إلى السّلة، كانت رائحة القرنفل منتشرة في فضاء الغـــرفة، حرّضـــها الدّفء على الإعلان بقوة عن حضورها الجميل، نـــــزعت الـــورق، وفوجئت بباقة غاية في الروعة، نُسّقت بيد فنان حتماً، كانت تحوي ثلاثين قرنفلة بيضاء، وثلاثين لونها زهري، وثلاثين بلـــونين زهري وأبيض، وعشر قرنفلات حمراء صُفّت في الوسط على شكل قلب. مائة قرنفلة! كاد قلبـــي يتوقف عن الخفقان! كيف عرف المثنى أنّي أحبُّ القرنفل؟ وهذه الألوان بالذات؟ وكيف عرف أنّ اليوم عيد ميلادي؟ الورقة الّتي ربطها بشريط حريري إلى الباقة، كَتب عليها بخطّه الصّغير "مائة قرنفلة، مائة عام من الحبّ، أتمنّاه لك".

ماذا حدث في هذه اللحظة؟ هل شعرت بالارتياح لأنّ هناك من تذكّر عيد ميلادي على وجه هذه الأرض؟ أم بالحزن لأنّ تلك الباقة لم تكن من شمس؟ على الأقل كنت على يقين أنّي لم أعد أكره المثنى، وأنّ لفتـــته تلك، جعلت قلبـــي نادياً كزهوره، وتجاهلت أن يكون صيّاداً ماهراً، يصطاد في المياه العكرة!

مـــشاعري المـــضطربة منعتني من دراسة مادّة امتحان الغد. وقد جعلني ذلك أقرر أن لا أقدِّم آخر مادة في الامتحان، لكنّ حنان أصرّت عليّ:

- اذهبـــــي، واكتبـــــي ما تعرفين، ربّما تكون الأسئلة سهلة، بعدين، أنت قدّها.

ذهـــبت إلى الكلية، ليس لأنّي اقتنعت بكلامها، بل لأنّي أملت برؤية شمس، فليس من المعقول أن لا يحضر الامتحان. تحقق أملي بلقائه بطريقة لم أتوقعها. شمس كما كان دائماً، يمد يده إليّ بحنان، وينظر إليّ بلهفة، ويسأل عن صحتي وأخباري، ودراستي! ثمّ يقول:

- دعوت نفسي على فنجان قهوة عندك، هل توافقين؟

اضطربت في البداية، ثمّ وافقت. خرجنا معاً بعد الامتحان، كانت فكرة دخول شمس إلى غرفتي، ومعانقة أشيائي بعينيه، وحدها تثير مخيلتي وأعـــصابـــي، وتستنفر جيوش الأحلام للهجوم على قلبـــي الضّعيف. فكـــيف بالفكرة وهي حقيقة؟ كيف وشمس جالسٌ قرب سريري على الكرســـي الوحـــيد الذي يحتوي جسدي برفق كلّ يوم، كيف وشمس يأخذ يدي، وينظر في عينيّ بوله، و...

كـــيف يمكـــن لي أن أتحدّث عن ذلك كلّه، ولا ينفجر القلب، ويتناثر أشلاءً!؟

انفكَّ تلاحمنا فجأة، حين طرقت حنان باب الغرفة برفق، وناولتني صـــينية الشّاي. مدّ يده إلى فنجان الشّاي، أطرق طويلاً، وكأنّه يستعد لقـــول شيء يخشاه، قال وعيناه لا تفارقان باقة القرنفل المتألقة وسط الطاولة:

- أنت مَن رتَّب القرنفل هكذا؟

عـــرفتُ أنَّ شمس بحث طويلاً عن صيغة مناسبة لسؤاله، كي لا يبدو فجاً ومباشراً، وعلى الرغم من استيعابـــي للموقف، قلت بصدق، يمكن أن يُسمى حمقاً:

- إنّها هدية من المثنى.

شرد للحظات، وقال بضيق:

- ما المناسبة ليهديك المثنى كلّ هذا؟

قلت بغيظ:

- المناسبة الّتي كان يجب أن تجلب فيها أنت ولو قرنفلة واحدة!

قال ساخراً:

- أنـــا قليل الذوق، احمدي ربك، لقد عوّضك بشخص أفضل مني، يعرف بالأصول!

تابع، وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

- قلت لك منذ البداية، علاقتك بالمثنى لا تعجبني، لا تريدين أن تفهمـــي أنه لا يوجد صداقة بين شاب وفتاة، وإذا أحسنتُ الظّنّ بك، فلـــن أحـــسن الظـــنّ بالمثنى، وبدل أن تحترمي رغبتي، ذهبتِ معه إلى السّينما، هل تدركين معنى ذلك؟ هل تدركين أيّ هاجس عشته جرّاء تصرّفك الأحمق؟ هل تعرفين أيّة صور وخيالات منعتني من النّوم؟ ماذا يمكن أن يجري هناك؟

شعرت بأنّي أنـــزلق في هاوية لا قرار لها، حاولت التّشبث بقشة، قلت، وقد هدّني تصوري لفراق وشيك بيننا:

- الأمر كلّه مزاح.

قـــال بصوت عال، وكأنّ كلامي استفزه أكثر، مع أنّي أردت به الاعتذار:

- مـــزاح سخيف، مواقفك كلّها أصبحت تدل على تهوّر وعدم مـــبالاة بمـــشاعري. وبعـــدين، ما أدراني أيّهما الحقيقة وأيّهما المزاح؟ ذهابـــك معـــه أم عدمه؟ أتلعبين بـــي؟ أكاد أشكُّ في كلّ أحاديثك. أعتقد أنّه من الأفضل لكلينا أن نفترق.

قلت بعناد، وبرود:

- ليكن، هي رغبتي أيضاً.

أشعل شمس سيجارة، وقال بهدوء نـــزل على قلبـــي كصاعقة:

– حسناً، لنفترق كأناس متحضرين، لا أريد أن تحملي في نفسك كـــرهاً تجاهي. عن إذنك، وأرجو ألاّ يؤثر هذا المشهد السّخيف على علاقتنا. أليس كذلك يا نسمة؟

كـــان عليّ في تلك اللحظة أن أكون أكثر صلابة منه، ابتسمت وأنا أقول:

– طبعاً، سنكون أصدقاء، في النّهاية المسألة كلّها قسمة ونصيب.

ومـــددت يدي لأصافحه، فشدَّني إليه، احتضنني، وقبّل جبيني، ثمّ ابتعد مغادراً، وأنا أقف مذهولة أمام الباب!

في هذه اللحظة الّتي احتضنني فيها، لعنت التّحضّر، ولعنت نفسي، لَمَ لَمْ أتـــشبث بـــه لحظتها؟ لَمَ تركته يبتعد؟ كان بين يديّ، أقرب إلى قلبـــي من نبضي، كان ملتصقاً بجسدي، حتّى لم أعد أفرّق بين دقات قلبـــــي وقلبه، لماذا أطلقَتْهُ يداي؟ رحتُ أنظر إليهما بحقد، لقد اقترفتا أخيراً تلك الجريمة الرهيبة!

اكتشفت أنّي لم أفهم شمس يوماً، حتّى هذه اللحظة، اعتقدت أنّـــه ســـيعود، وأنّ المسألة لم تكن أكثر من مزاح فعلاً.! وقلت في نفـــسي، لعلّ بعدنا في عطلة نصف السّنة، سيجعل جراحنا تلتئم، وسيترك فرصة لشمس ليفهم كلّ شيء، كنت أعتقد بما يشبه اليقين، أنّ شمـــس سيفكّر في الأمر بمنطقه المعهود في تحليل الأمور، وسيصل إلى نتيجة أكيدة بأنّ ما حدث لم يكن أكثر من حماقة صغيرة يخلقها الحبّ، وينساها العقل.

ارتحـــت لهـــذه النتيجة، ومرّت الأيام، وأنا أتحرّق للقائه، انتهت العطلـــة، ولم يظهر شمس، ومرّ شهر آخر، ولم يداوم شمس في الكلية، ولم أستطع أن أسأل عنه، لم أعرف أهي كرامتي المجروحة؟ أم خوفي من جواب يذبحني؟ أم عنادي؟

شـــهران وســـتة أيام مرّت على غيابه، حين لمحته قادماً عبر الممر الطّويل المؤدي إلى قاعة سامي الدّهان، كنت أستند إلى النّافذة الكبيرة المطلـــة على الحديقة، ارتجف العصفور الصّغير بين ضلوعي، وطار عبر الـــنّافذة، لـــيقف على شجرة الكينا. اغتسل بالرذاذ النّاعم، واغتسلتُ بمطـــر حضوره. كنتُ ألملم مشاعري المضطربة، وأحاول السّيطرة على بقايا ارتعاشي، حين وصلت ابتسامته العذبة إلى قلبـــي، ففتحتُ نوافذ الـــرّوح، وامـــتص جلدي رحيقها، عددت أيام غيابه باليوم والسّاعة، شـــهران وستة أيام، وبضع ساعات من يومي الاستثنائي هذا. كانت الدّنـــيا مـــن حولي تضحك، وتستقرُّ في كفي، لحظات، وأطبقُ عليها أصـــابعي إلى الأبد! لحظات فقط، تكفي لتحكي له عيناي عن كلّ ما اختزنَته في غيابه من شوق ولهفة، ولتعتذر له عن كلّ هفواتي وطيشي، ولـــتقول ما كنتُ أخبئه في القلب، وتعترف بأنّ ما مرّ لم يكن سوى حماقـــة، حماقة صغيرة، أردت أن أختبر بها حبّه وصبره! أصبح شمس في مـــواجهتي، مدّ يده كالعادة ليصافحني، فلسع عينيّ بريقُ خاتمه، وتسلّل الصّقيع إلى قلبـــي، للحظات، شعرتُ أنّ كلّ ما فيّ يتجمّد، مشاعري، ذاكرتي، يدي الممسكة بأصابعه، شعرت أنّ الأرض مادت تحتي، لكنّها لم تجـــرؤ علـــى ابتلاعي، لبستُ ثوب اللامبالاة والتّجاهل للحظات، خـــرجتْ من جسدي فتاة أخرى، محايدة، باردة، بلا مشاعر، وقالت وهي تبتسم:

- ألف مبروك.

ردّ بنفس الابتسامة الرائقة:

- الله يبارك بعمرك، عقبى لك.

قلت بشرود:

- أنا! لا أظن، لا أفكّر في الزواج، لا الآن ولا بعد سنوات.

كـــنت أعـــني ما أقول، كنت أعرف ما أقول، أعرف أنّ شمس سيـــشرق على تربة أخرى، سيرسل دفئه في رحم آخر، سينبت هناك قمحـــاً، وعبّاد شمس آخر، وسأكون أنا على الضّفة القاحلة، حيث لا ماء ولا زرع، ولا دفء. كم بتُّ أكره زهور عبّاد الشّمس!

انتظـــرت حتّى ابتلعه ضجيج الأصدقاء ومباركاتهم، وهو يدخل قاعة سامي الدّهان، وفررت، هربت بكلّ قوتي.

كـــان العـــصفور متفحماً على سلك كهربائي قريباً من النّافذة، والمطـــر في الخارج، ينذر بعاصفة شديدة، والبرد يخترق عظامي، لكنَّ قلبـــي ينبض بعنف، حتّى خفت من توقفه فجأة.

حـــين وصلتُ البيت،كانت رغبة حارقة تجتاح أعماقي، أريد أن أحطـــم أيّ شيء يعترض طريقي، لكنّي لم أجد شيئاً يستحق التّحطيم ســـوى روحي، حتّى الكأس الزجاجي الذي حملتُه لأضرب به الجدار، ضـــننت به، ووضعته بهدوء بجانبـــي. هل أنتقم منه حقّاً أم من نفسي؟ أنتقم منه في نفسي، لأنّه نفسي! خلعت ثوبـــي الزيتي، ورميته أرضاً، كم بتُّ أكره اللون الأخضر، وأكره أن أكون أصيلة كشجرة. اللعنة، لماذا ارتديته اليوم؟

مضى يوم على إضرابـــي عن الطّعام والنّوم والكلام، يوم كامل، كـــنت أحسّ بالجّفاف فقط، بالضياع، بالنّهاية، بالعتمة، لم أكن أطيق رؤيـــة ضـــوء النّهار، كنت أخشى رؤية الشّمس مشرقة على الكون، كـــوني داخل الغرفة، انطفأتْ مجرّاته، واحترقت شهبه، وسادت عتمة رهيـــبة. حاولت أن أكتب له، مزّقت الأوراق مراراً من دون أن أجد الكلمـــات المناسبة. أكان شمس يعتقد حقّاً أنّي استطعت التّخلي عنه؟ هل كان على يقين أنّي أستطيع أن أحبّ غيره؟ أيعقل أنْ يشكَّ للحظة أنّ بإمكـــان أحد غيره أن ينير سمائي...! ياللعتمة الّتي لا تنتهي! أذكر

بدقــة تلك النّظرة الّتي خصّني بها أثناء أمسية نــزار، تلك النّظرة الّتي ترافقت مع قوله "

انــزع حبيبــي معطف السفر
وابقَ معي حتى نهايات العمر
فما أنا مجنونةٌ كي أوقفَ القضاءَ والقدر
وما أنا مجنونةٌ كي أطفئ القمر...

اعتقدت لحظتها أنّ الكون بأسره ملك كفي، وأنّ شمس لا يمكن أن يفارقني طيلة عمره لحظة واحدة، فما معنى حياتي لولا وجوده؟

ماذا أنا؟
لو أنت لا تحبني؟
ما الليلُ؟
وما النّهارُ؟
وما النّجومُ؟
ما السّحر؟
ستصبحُ الأيامُ لا طعمَ لها
وتصبحُ الحقولُ لا لونَ لها
وتصبحُ الأشكالُ لا شكلَ لها
ويصبحُ الربيعُ مستحيلا
والعمرُ مستحيلا...

* * *

(1)

كـــان عليّ أن أقتنع من رحلتي إلى حلب بأنّ لا شيء يمكنه أن يعيد الزمن إلى الوراء! حين وصلت ساحة الجامعة، صدمني منظر السّور الحديدي، حتّى الأشجار سجنت وراء القضبان!

لم أجد أثراً لشجرة زهر العنقود عند مدخل الكلية! المرتفع قاحل لا أثر لشجرة الكينا! نظرت إلى آثار قلبـــي الّذي تفحم على السّلك الكهربائي عندما رأيت خاتمه يلمع كنصل سكين!

أيـــنا كان أكثر شراسة؟ تتساوى أدوات القتل أحياناً مهما كان معدنها، كالبرق شقّ رأسي منظر السّكين في يدي أثناء نوبة جنون، وأنا أقتـــرب مـــن شمس، وأحاول غرسه في ساعده. أيهما كان الأقوى؟ جـــسده أم جنوني؟ استطاع نـــزع السّكين من يدي، لكنّه لم يستطع نـــــزع الرعب من ذاكرته، أتساءل عن مدى جديتي في تلك اللحظة، ومدى تصديقه؟ أكنت أستمتع بخوفه مني وعليّ؟ أم كنت على استعداد لقتله حقّاً حتّى لا أراه مع أخرى!

كـــلّ الأمكـــنة فقدت براءتها الأولى، لا شيء يمكن أن يعيد إليّ شمـــس، وأيام شبابـــي، والنكهة اللاذعة لزهور القرنفل "الشعرة التي قـــصمت ظهر البعير". كان عليّ أن أفهم منذ البداية أنّه لا جدوى من زيارتي، وأنّي سأفتح جرحاً لا يزال طرياً على الرغم من سنوات الغربة والبعد. لماذا لم أحتفظ بتلك التّفاصيل في ذاكرتي فقط؟ لماذا لم أرتوِ من النـــزف السّاخن حتّى اللحظة؟ أحياناً أتصوّر أنّها خدعة الحبّ الأوّل

الّـــتي تتغذى عليها عواطفنا الجائعة في سنوات القحط والوحدة! أحياناً أكون متيقنة أنّه الحبّ الحقيقي، مادام قادراً على حمايتي من السّقوط في فخ إنهاء حياتي بالانتحار.

وعلـــى الرغم من سيطرة إحساسي بلا جدوى استعادة ما كان، ركـــبني عنادي في رؤية شمس، وخطّطت في طريق عودتي للبحث عنه مهما كان الثمن، أشعرني ذلك العناد بارتياح نسبـــي، أعطاني جرعة هدوء، جعلتني أغفو مباشرة حين دخلتُ غرفتي، وتمددتُ على السّرير.

لم أســـتيقظ مباشرة حين دخلت أم فاتح صباحاً، ونادتني بصوت خافـــت، ثمّ أعادت النّداء، ففتحت عينيّ بضيقٍ من أضاع حلماً لذيذاً، كـــان يتمنّـــى أن يرى نهايته السّعيدة! نظرتُ إليها مستفسرة، فقالت بلهفة:

– إن شـــاء الله ارتحت بالنّوم؟ أبوك سألني عنك؟ بدو يشوفك، بعمل لك قهوة؟

أومـــأتُ بالموافقة على القهوة، ونهضتُ من السّرير بتثاقل، كان جسدي محطّماً، وعضلات ساقيّ متشنجة، مع أنّي تعودت على المشي مسافات طويلة، ولم تفارقني تلك العادة في غربتي.

المـــاء البارد أعاد إليّ بعض النشاط، ارتديت ملابسي، وخرجت إلى الشّرفة على أمل أن ألمح البحر!

لكـــنَّ المنظر المشوّه للبنايات العالية، عاد ليصدمني ثانية، وليؤكد لي، أنّي أعيش المكان والزمان الخطأ!

ارتفعتْ أبخرة القهوة، لتتسلّل إلى أنفي، وأنا أرشفها ببطء. أم فـــاتح امرأة ذكية، وكأنّها تصنع قهوتي منذ تعودت على شربها من دون ســـكر ومن دون هال، مغلية كثيراً، وكثيفة!. أردت مجاملتها، قلت وأنا أبتسم:

- قهوة لذيذة، تسلم يدك.

ربّمـــا لم تُـــصدِّق أمُّ فاتح أنّي ابتسمت لها، وقلت كلمة طيبة، ارتـــبكتْ، وتلعـــثمت، وتعثرت، وهي تمضي إلى عملها. لا أدري لم تخـــيّلتُ أنّ الماضـــي حضر بقوة في ذهنها، فأربكها. أفهم ذلك بحس الأنثى الّتي عاشت تجربة الحبّ والكراهية والفراق والغربة. يمكنني الآن أن أشـــعر بمـــا عانـــته هذه المرأة البسيطة طيلة حياتها من قهر وظلم، ويمكـــنني قبل ذلك أن أفهم، لماذا قبلت أن تخدم والدي بعد أن انفضَّ النّاس من حوله!

في طفولتـــنا، كنّا نقضي الصّيف في بيتنا هذا، وكنت أتعلّق بأمي حـــين تزور أم فاتح. اعتقدت وأنا صغيرة أنّهما صديقتان، فقد كنت ألمحهـــا تنفـــرد بها، وتتحدّثان همساً بعيداً عنا، أو تأمراننا بالخروج إلى الفـــسحة التّرابية خلف البيت، لنلعب بالأرجوحة، وكانت تلك متعتي الكـــبرى، كـــان ولـــيد يقف باستعداد ليلبـــي رغباتي كلّها، يدفع الأرجـــوحة، ويحـــضر لي لعبتي حين تقع، ويقطف لي حبات "النبق" اللذيذة!

فـــيما بعد عرفت أنّ أمّي كانت "تحن" على زهرة لأنّها وحيدة وأطفالها أيتام، وكانت تعطيها من أموال الزكاة، وقد أوصتني بها مراراً، حين اعتكفت في المنـــزل، ولم تعد تخرج من غرفتها.

نهـــضتُ، وراقـــبت الشّارع قليلاً، ثمّ دخلت إلى غرفتي. ترددت كثيراً في الذهاب إليه، لكنّي حسمت أمري، وتوجهت إلى غرفته. كان الـــباب مفتوحاً، ونسائم لطيفة تلاعب السّتارة، وهي تجلس على حافة السّرير، وظهرها تجاهي.

راقبـــتها وهي تطعمه، وتناوله الدّواء، أراه ينظر إليها بلهفة طفلٍ صغير متعطش للمسة حنان، وهي تغضي حياءً، وتمدُّ يدها بالملعقة! أيّ

قلب تمتلك هذه العجوز حتّى تنسى أنّه غدر بها يوماً؟ همستُ "زهرة" التفـــتت إليّ مصعوقة، ووقعت الملعقة من يدها، وهي تقف، وجسدها يرتجف. ابتسمتُ، وقلت:

- أخفتكِ؟

قالت:

- ما سمعت اسمي من حدا من دهر.

قلت، وأنا أشير إليه:

- وهو، بمَ يناديكِ؟

صـــمتت زهـــرة، وأطـــرقت، والدّموع تنسكب على وجنتيها، حاولـــت أن أعتذر عن قسوتي، لكنّ حنجرتي خرست تماماً، كم أجيد القتل!

جالـــت عيناي في أرجاء الغرفة، وكأنّي أراها للمرّة الأولى، لفت انتباهي جهاز الكمبيوتر في الزاوية الملاصقة للنّافذة الشّرقية، وقد غطّته أم فـــاتح بقطعة من الحرير، صنعتها بالمخرز، كانت في صباها مشهورة بحياكتها الفريدة للحرير، والصّوف، أذكر الشّال الأبيض الذي صنعته لي وأنا صغيرة، كان يضمّ جسدي، ويرسل الدّفء في عظامي أيام البرد الـــشّديد. حرّك قلبـــي حنينٌ عنيف لتلك الأيام، كم أتمنّى لو أستطيع امـــتلاك بـــساطتي الأولى وبراءتي الأولى، كم أتمنّى لو أنّ الزمن أبقى الأرجوحة ما بين الحدّ الفاصل للجميزة وزرقة السّماء الشّاسعة. أكاد ألمح نفسي معلّقة على حدود الشّمس والنّسيم، وفي يديّ حبات النبق تقطر خمراً.

نظـــرتُ إلـــيه للحظات، تعلّقت عيناه بوجهي برجاء، وأومأ لي لأجلس قربه، تمطّى شيطاني النّائم، وهمس لي: "ماذا يريد منكِ؟ أيريد مـــنحك حنانه؟ أم يستجدي حنانك؟ كلاكما لا تملكان ما تعطيانه،

كلاكما أرضٌ بور، تلفظ حتّى الأشواك". سرت صوب السّرير بتردد، جلستُ على حافته، و لم أقترب من اليد الممدودة نحوي، كنت أرتجف وصـــور الماضي تقتحم الغرفة، وتختلط الأشياء، والأشخاص، فلا أسمع ســـوى الـــضجيج، وضـــربات قلبـــي! أردت أن أقول له: "أبـــي". حاولت أن أنطق الكلمة، فبرز لي أحمد، عيناه جاحظتان قليلاً، ولحيته عـــشوائية، ونظـــراته قلقة، قضم أظافره بغيظ، وقال كلاماً لم أفهمه. أدرت وجهي صوب الحائط، طالعتني صورته على الجدار يتوسط أيمن وحمـــزة، وابتسامة صغيرة ترتسم على محياه المشرق، كثيراً ما حاولت الـــبحث عـــن الملامح المشتركة بين أحمد الذي في الذاكرة، وبين هذا الـــذي في الصّورة، فلا أجد ما يجمعهما! أحمد هنا كان شعلة نشاط، يقرأ الشّعر، ويمارس الرياضة، ويملأ البيت بالضّجيج. أحمد الذي بقي في ذاكـــرتي، شخصٌ نحيل، باهت النّظرات، شاحب الوجه، عدواني تجاه كلّ مظهر مبهج في الحياة.

أحمـــد، أهـــو السّدُّ الوحيد الذي يقف بيني وبين أبـــي؟ ولماذا أحكـــم عليه بهذه القسوة؟ أيعقل أنّه لا يشعر بعاطفة الأبوة تجاه أبنائه؟ لمـــاذا أصرَّ إذن على ملاحقتي طيلة تلك السّنوات، طالباً إليّ العودة إلى أرض الـــوطن؟ لماذا لا أترك شيطاني ينعم بالنّوم قليلاً، وأفكّر في الغاية الّتي جعلته يطلب مني الحضور لأجلها؟ سمعت صوت زهرة يهمس:

- اشـــربـــي شوية بابونج، الطبيب قال، إنّه رح يتحسن وقت بيشوفك. كان هالك حاله بالكتابة على هاد الجهاز.

وأشـــارت إلى جهـــاز الكمبيوتـــر، وهي تناولني كأس البابونج الـــسّاخن. رشفتُ قليلاً، وأنا أتابع حديثها عن الأطباء الذين عالجوه، وعـــن العـــناية الّتي أولوه إياها، وكمية الأدوية الّتي يتناولها وأسعارها الغالية، وعن إصراره على حضوري، كحل وحيد لشفائه.

هـــل يعتقد حقّاً أنّ في حضوري شفاءه؟ كم هو واهم! من بين تلـــك الأحاســـيس الغامضة، والمتضاربة، برز سؤال أقلقني "ما حاجته للكمبيوتـــر؟ مـــاذا كان يكتب؟". أعرف أنّ والدي كان يغلق باب مكتـــبه، ويقضي معظم الليل ساهراً يكتب، لكنّنا لم نكن نعرف شيئاً عـــن تلـــك الملفات الغامضة الّتي يقفل عليها أدراجه. الغموض انجلى جـــزئياً حـــين واجهته أمّي كإعصار بالحقائق المرّة الّتي عرفتها ببحثها الدّائب وراءه قبل وفاتها بعامين! فجأة كشّر والدي عن وجهه الحقيقي، ورفع يده، ليضرب أمّي، الّتي نسيت في فورة غضبها، أن تضبط صوتها كعادتها في حضوره، ونسيت أن تناديه باحترام، لا أعرف كيف تجرّأت على قول ما قالته، وكيف وصفته بالنّكرة والتّابع والعميل والقاتل!

المفاجئ، كان ردُّ والدي، الذي قال لها ببرود بعد أن أدمى فمها بـــصفعته: "أنـــا كذلك، هل ارتحتِ الآن؟". بعدها لم تنطق أمّي حرفاً واحـــداً، كانـــت تكتفي بالدّموع، والتّنهدات، وهي قابعة في كرسي جدتها أم مصطفى، ترفع عينيها طيلة اليوم إلى صورة أخوتي المعلقة على الجـــدار أمامها، كانت تشير إليهم، وكأنها تريد احتضانهم، لكنّ أحداً منهم لم يترجّل من الصّورة أبداً.

مـــع تحطـــم التّمثال، امتلكتُ الجرأة في ذلك الوقت كي اتّخذ قـــراري بترك البيت، وأسافر إلى حلب مصممة على عدم العودة. و لم أعـــرف وقتها أنّ الظروف ستجبرني على مغادرة البلاد كلّها! كانت آخر مرّة أرى فيها هذا البيت الذي فقد الدّفء والحنان، وفقد مسببات العـــيش فـــيه. طرت بعيداً غير عابئة بسلطة قيّدت روحي بطوق من حديد صدئ. الأمر الوحيد الذي حزّ في نفسي، هو ابتعادي عن أمّي. دخلتُ غرفتها قبل أن أرحل، حاولت أن أستعطفها لتنطق، نظرتْ إليّ بحـــياد، وكأنّهـــا لا تعرفني، كانت في عالم آخر. لا ينتمي إلى الفضاء

المحـيط بها. جلستُ على حافة السّرير، حدّثتها، مسحت على شعرها، كدت في تلك اللحظة أتراجع عن قراري، وأبقى بجانبها، لكن لم يبدر منها ما يدل على أنّها تحسُّ بوجودي! أردت أن أخبرها برحيلي، علّها تنتـبه إليّ، قلـت: "أمّي ربّما تكون المرّة الأخيرة الّتي أراك فيها، ألن تباركـيني بـدعائك؟". حـدّقت فيّ طويلاً، ولم تستوعب ما قلت، ونهضت إلى الحمّام!

انـسلّلت مـن غـرفتها، وأنا أبكي بصمت، وغادرت البيت، وتركت الباب مواربا.

كنّا في أواخر رمضان، أيام امتحاني الأخير، وكنت أفكّر بالبحث عـن عمل مؤقت في الصّيف، ريثما أحصل على شهادتي حين اعتقل المـثنى، وماتت أمّي. لم أعرف بالخبر مباشرة، أخبرتني حنان في رسالة الكتـرونية فـيما بعـد، أنّها كانت صائمة، توضأتْ لصلاة المغرب، وجلست في الصّالة على كرسيها المفضل، كانت ترنو إلى صورهم على الجـدار، وأغمضت عينيها على ظلّ دمعة. ظنّها أبـي قد غفت. حين اقترب منها مكرراً نداءه لتتناول الطعام، وجدها قد فارقت الحياة.

لم يطل الأمر به، اعتزل هو أيضاً الحياة العامة، عرفتُ أنّ أحداً لم يعـد يـراه، وأنّ هناك امرأة عجوز تقوم على خدمته، وهو يعيش بين جدران عزلته وحيداً...

وصـلتني رسـائل الكترونية منه، يستعطفني لأعود. لم يخبرني بمرضـه، اكتفى فقط بالقول، إنّه يعتزل في غرفته، ولا يرى أحداً، وأنّي الوحيدة القادرة على إخراجه من حالة الاكتئاب الّتي أصابته، اعـتقدت أنّ بـه مسّاً من الجنون، وعليّ العودة لأضع يدي على ميراثـي، قبل أن يسطو عليه الغرباء! ثمّ انقطعت رسائله فجأة، ولم أعد أسمع عنه شيئاً.

قالت لي حنان "ماذا تفعلين في بلاد الصّقيع تلك؟ هل ترجين حبّاً هـــناك؟ أم تأملين بطفل لن يأتي؟ كفاك عناداً وعودي". استطاعت أن تؤثر على قناعاتي، وخدمتها الظّروف النّفسية القاسية الّتي عشتها هناك بعـــد طلاقي، والفراغ القاتل الذي أحاط بـــي على الرغم من انخراط الجسد في دوامة أعمال لا تنتهي.

اقتحمت أم فاتح شرودي بقولها:

- رح أنـــــزل علـــى السّوق أشتري أغراض للبيت، ما بتأخر، بجبلك معي شي؟

قلت:

- ابقي أنت بجانبه، سأذهب أنا، ماذا ستطبخين؟

فاجأها قولي، ردّت بفرح:

- مثل ما بتحبـــي.

لم أفكّـــر بالطّعـــام قدر تفكيري بالهرب من الجلوس في مواجهة والـــدي، وددت أن أخرج من ذلك الجوّ المشحون بالذكريات المرّة، والغـــضب والكراهية، أردت أن أتنفس هواء نقياً، لم أحظَ به في زحام الـــسّوق، وبجادلات الباعة وضجيج الحافلات. هل نسيت أنّ أم فاتح تنتظرني لأجلب لها ما تطبخه؟ هربت من سوق السّمك، واتّجهت إلى البحر، جلستُ ساعات طوالاً في مقهى وسط المياه، كنت أعوم داخل الـــزرقة، وأشعر بانفصال تام عن وجودي. جلس قبالتي على الطّاولة، بقيـــنا صامتين لدقائق خلتها دهراً، كلانا ينتظر أن يبدأ الآخر الحديث كاسراً حدّة التّوتر، كلانا بقي منتظراً في المسافة نفسها، لم يستطع أن يخطـــو إلى الآخر الخطوة الأولى. لمحتُ في عينيه ذلك القلق الخفي الذي يـــسبق العاصـــفة، خـــشيت أن يهاجمني بما لا أحتمله، مع هذا بقيت مـــسمّرة علـــى مقعدي، لم أجرؤ على المغادرة، لم أجرؤ على الكلام،

آلمني أن أبدو هشة وضعيفة أمامه بعد سنوات الغياب الطّويلة، آلمني أن يرى امرأة لا تشبه الفتاة الّتي أحبَّها يوماً. ترى هل يستطيع أن يراني من الدّاخل؟ أشعر أنّ أفكاري مكشوفة إلى حدٍّ مخجل. هربت بنظراتي إلى الـــزرقة الشّاسعة للبحر، وتوقفت قرب سفن بيضاء، تتهادى عند الحدِّ الفاصـــل بين السّماء والماء. انعكاس الشّمس الحادّة على صفحة المياه الهادئـــة، أرتني رجالاً يلوّحون بمناديل مبلّلة بالدّمع، وضعت يدي على رأسي أتحسسه، وخشيت أن أكون قد تعرضت لضربة شمس، خلطت أمام عينيّ المشاهد والأشياء. حين عدت بنظراتي من الإبحار في الزرقة، لم أجده على الكرسي المقابل! لكنّي على يقين أنّه كان هنا، وأنّه ترك رائحـــة عطره في كفي، وأنّ أنفاسه لفحت وجهي، وأنّي سمعت صوته ينبعث من شراييني، يهمسُ، فيتنفس نبضه تحت جلدي، لا يمكن لكلّ تلك الأحاسيس أن تكون وهماً!

نهضت بسرعة، وغادرت المقهى. مررت بسمّان الحارة، اشتريت أشـــياء لم أفكّر بها، وعدت إلى البيت، ناولت أم فاتح أكياس النايلون، وطلبت منها ألا توقظني.

أسدلتُ السّتائر، أغلقت الباب، اندسست في الفراش، وسحبت الغطـــاء. تدفـــق الهواء البارد من فتحة التكييف، لسعني أوّل الأمر، ثمّ شعرت بخدر في أطرافي، فغفوت.

لم أســـتطع تحديد الزمن ولا المكان حين أفقت مذعورة على صوت طرق على الباب، لحظات، واستوعبت أنّي في غرفتي، وأنّ صوت أم فاتح يناديني بإلحاح ولهفة. حين فتحت الباب، كادت الدّموع تفرُّ من عينيها:

– خفت عليك، صار لك نائمة من أمس، صرخت عليك ما في فائـــدة، قلت لحالي خليها يمكن تعبانة، رجعت بالليل دقيت الباب ما رديتِ، والله غلي قلبـــي.

ابتسمت، وسألتها:

- ماذا طبخت؟ أشمّ رائحة زكية.

قالت بذهول:

- طبخت ملوخية وورق عنب، بس بردت الطبخة، الدّنيا الصبح، بدّك تاكلي؟

قلت:

- أشعر بجوع شديد.

قالت بلهفة:

- يا قلبي، ولا يهمك، دقائق وكلّ شيء بيكون جاهز. أحسن من شرب القهوة على الريق.

نبهتني أم فاتح إلى طقسي اليومي، مع هذا لم أخضع لندائه، وصممت أن أتناول غدائي في هذا الصّباح الباكر في الشّرفة.

أحسست أنّ للطعام نكهة غريبة، ترتبط بطفولتي البعيدة. الرائحة تسحبني إلى مساءات غامضة، وأزقة باردة، ترتجف ضلوعي فيها، وأنا أحاذر الغوص بمياه المطر، الّتي تحوّلت إلى برك صغيرة، بسبب الحفريات المتواصلة لإصلاح أنابيب لا أعرف فائدتها! ما أراه جيداً وجه جدتي وراء الباب الكبير، وهي تحثني على الإسراع والانتباه، ويد أمّي وهي تشدُّ أذني موبخة إياي على التّأخير، لكنّي لا أشعر بتلك الأشياء، تسحبني الرّائحة إلى الدّاخل، فأهجم على الطّعام مخالفة التّعليمات الصّارمة لأمّي بغسل اليدين، أحسُّ بتلك اللسعة للطّعام السّاخن، الّتي تبقى على لساني مدّة طويلة مذكرة إياي بحماقة تناول الطّعام بتلك الطّريقة البدائية. في ذلك الوقت، كنت ألتمس الحماية من جدتي، ويبدو أنّها كانت تجدها فرصة، تتفوق فيها على أمّي ابنة الباشا، فتتركني آكل على راحتي، وتقول لأمّي، وكأنّها تتهمها بالقسوة

"اتركيها تعيش طفولتها" تصمت أمّي بغيظ، وتتوعدني نظراتها بالعقاب حين العودة إلى البيت! وأنا أدعو الله أن تنسى أمّي ما فعلته، فتنسى! ما يضحكني هو اعتقادي في ذلك الزمن، أنّ أمّي كانت تنسى حقّاً معاقبتي، لأنّي دعوت الله بقلب صافٍ. ولازمني ذلك الاعتقاد في دراستي حتّى وصلت الجامعة، لم يعد دعائي ينفعني شيئاً، فتخليت عنه حين أحببت شمس.

ربّما لأنّي امتلكت يقيناً آخر اقتنعت أنّ فيه خلاصي. يقين الحبّ الذي يرتفع بالنّفس إلى مرتبة الوجد، فتنمحي ظلال الوجود، وأطيافه، وتبقى طاقة النّور، تتدفق بضوء لا نهائي، يزيل العتمة، ويمنحني قوة عجيبة على مواجهة الحياة. خاصمني ذلك الشّعور منذ اللحظة الّتي لمع فيها الخاتم في إصبع شمس طاعناً كفي! حينها عرفت أنّي فقدت كلّ يقين يساعدني على أن أكون ذاتي. هل أصبحتُ فتاة أخرى؟ أجزم أنّي لم أكن أنا طيلة السّنوات الماضية الّتي عشتها بعد فراقنا.

نادتني أم فاتح بذعر:

- نسمة، تعالي، والدك غاب عن الوعي.

لا أعرف كيف نهضت بلهفة، وأسرعت معها إلى غرفته، راقبت نبضه، وطلبت إليها الاتّصال بالطّبيب. بعد انتهاء الطبيب من فحصه، وحقنه بإبرة أنسولين، عرفت أنّه يعاني من السّكر! خفق قلبي بشدّة، إذن حالته خطرة فعلاً! جلست على مقعد بعيد قرب النّافذة، وأنا أرتجف، لم أتصوّر أنّ مشاعر القلق والتّوتر يمكن لها أن تدخل قلبي مجدداً، وعلى من؟ ذاك ما استغربته، وأنا أحدّق طويلاً بأشجار الحديقة. لمحت شجرة التّفاح، وقد كبرت، وتشابكت أغصانها اليابسة، واتكأت عليها شجرة خوخ ضخمة، واضح أنّ أحداً لم يعد يهتم بتلك الأشجار، ربّما تقوم أم فاتح بسقايتها وجني ثمارها، عدا ذلك تفصح

أغصانها اليابسة الممتدة بشكل عشوائي داخل الأغصان الفتية عن إهمال طويل الأمد.

حرّكت الكرسي صوب شاشة الكمبيوتر، مددت يدي، وشغّلت الجهاز، لم يكن الفضول دافعي، بل حركة تلقائية تعودت عليها، على الرغم من معرفتي أنّ الجهاز لا يخصني، فتحت المستندات، فوجدت ملفات كثيرة سُميت بأسماء غريبة، ترددت في فتحها، ذهبت إلى ملف الأغاني، الغريب أنّه لم يكن فارغاً! لم أرَ أبي من قبل يستمع إلى الموسيقى مع أنّ مكتبه كان يحوي فونوغرافاً قديماً واسطوانات كثيرة، ملف الأغاني كان مرتّباً بشكل أنيق، يبدأ بملف خاص لصبري مدلل، وملف عزف على العود لفريد الأطرش، وملف لأسمهان، وآخر لـ لور دكاش ونور الهدى، وضعت يدي على آخر ملف وفتحته، فانساب لحنٌ عذب، وشدت سعاد محمد "بقى عايز تنساني" للحظات ظننت أنّ ما قالته نابع من حواسي كلّها، لكنّ يدي امتدت لتغيّر الأغنية، وأنا أهمس "لن يكون ذلك، أنا لا أفكر بنسيان شمس، بل بالعودة إليه، أريد أن أراه". لا أعرف إنْ كان إصراري على رؤية شمس بعد كلّ هذه السّنوات مجرد عناد أريد من خلاله مراقبة عواطفي والتّأكد من حبي له، أم أنّ الكراهية الّتي رافقتني في غربتي، تدفعني إلى إيذاء شمس في حياته المستقرة بعدي؟

هربت من السّؤال بفتح ملفات أخرى، طالعتني صورٌ لأريحا القديمة بأزقتها الضيّقة وحاراتها الأليفة، الصّور باللونين الأسود والأبيض، من الواضح أنّ مصورها لا علاقة له بفن التّصوير، الأماكن تبدو مشوّشة ومبهمة، يخيّم السّواد على المساحات الواسعة، وتبدو الوجوه كأنّها نيجاتيف للصّورة الحقيقية، لكنّي استطعت معرفة بعض الأشخاص، وبعض الأماكن، صورٌ أخذت في الربيع، يبدو زهر الكرز

لطخات بيضاء في أرجائها، لفتت انتباهي صورة لطفل عاري السّاقين والجذع، يحضن بقوة شيئاً بدا لي وكأنّه حذاء، وفي عينيه نظرة عدوانية موجهة للكاميرا! تلك النّظرة، تخترق ما وراء اللحظة، لتوحي بوضوح أنّها ليست آنية، بل سمة ملازمة لذلك الوجه، لم تغب عنه طيلة حياته! دققت جيداً في ملامحه، واكتشفت أنّي لم أعرفها في يوم من الأيام، لم أكن أجرؤ في مرحلة صباي أن أنظر إليه مباشرة، ولم أحتفظ من مرحلة طفولتي بشيء يعينني على تذكره، هل كان غيابه الدّائم عن البيت السّبب؟ أم اللحية الّتي غطّت وجهه بكثافة منفرة؟ أم عدم اهتمامه بي؟

ما تبقى في قعر الرّوح من مشاعر غامضة يقول، إنّه لم يضعني في حضنه يوماً، لألمس بيدي الصّغيرة بشرة وجهه، وأداعب لحيته، وأقبّل عينيه. فاجأني سؤالٌ خفق له قلبي، هل أستطيع فعل ذلك الآن؟

نفس الخوف والتّردد، شعرت بهما وأنا أنظر صوب السّرير، أتأمل الجسد النّحيل المسترخي فوق الأغطية البيضاء النّظيفة، والرأس الأشيب الغائص في الوسائد الطّريّة!

همست لنفسي: "هل تستطيعين؟". أحسست برجفة، منعتني رهبة غريبة من النّهوض والاقتراب منه، أدرت وجهي ثانية إلى شاشة الكمبيوتر، ورحت أفتح الملفات الباقية من دون مبالاة. وجدت في الأرشيف ملفات صعقتني أسماؤها، وتجمّدت يدي قليلاً فوق الفأرة. كيف عرف أبي هؤلاء؟!

أفهم أن يكون هناك ملفٌ باسم أمّي وزهرة، وحمزة وأحمد وأيمن، وباسمي، أفهم أن يسجّل أبي مذكراته، ويحكي عن حياته، لكن، هؤلاء...

سـؤال آخر أطلّ برأسه، لماذا كتب أبـي عن هؤلاء؟ ولمن ترك هذه الملفات؟

تملّكني يقين أنّها لي، وأرضاني يقيني، فلم أشعر بأنّي أتلصص على أشياء لا تخصني.

كـاد قلبـي يتوقف، وأنا ألمح ملفاً باسمه "المثنى بن أحمد علوان" تسارعت نبضات قلبـي، وارتعش جسدي بقوة، جعلتني أحيط كتفيّ بيدي، وأنحني إلى الأسفل ضاغطة معدتي. ماذا يحدث لي؟

"هل يمكن أن أجد في هذا الملف أسوأ مما أعرفه؟" لم يكن هذا ما يخيفني، كنت أخشى مواجهة أبـي، هل كان يعرف ما بيننا؟

حين أنهيت القراءة، انتبهت لدموعي الّتي غسلت وجهي، لم يكن غريباً أن أبكي، ما استغربته هو تلك المعلومات الّتي وجدتها في الملف، لم أهتم بمعرفة مصدرها هذه المرّة، فقد أيقنت منذ زمن بعيد، أنّ أبـي رأس شبكة عنكبوتية مذهلة الدّقة في جمع المعلومات! هل هذه التّسمية صـحيحة؟ أخجـل من إطلاق تسمية أخرى عليه! ما أقلقني في هذه المعلـومات، مدى علاقة أبـي بمصير المثنى؟ زفرت آهة من أعماقي، وأغمضت عينيّ على صورته المرتعشة تحت المطر!

* * *

(2)

فوجئت به أمامي يرتعش، وقد غسله المطر، حين فتحت الباب!

تغلّغـــل الهـــواء البارد في ثوبـــي، واصطكت عظامي، فارتجف جـــسدي، وطارت بقايا النّعاس من جفني، مدّ يده ليصافحني، وطلب الدّخـــول بـــتهذيب. قبل أن أنتبه، أو أنبس بكلمة، وجدته في الصّالة قـــرب المدفأة، يحاول تجفيف ملابسه وشعره، وقد اختار كرسياً واطئاً، سحبه بهدوء، وجلس بصمت! وقفت مرتبكة في باب الصّالة زمناً، قبل أن أنطق، وأسأله:

– ماذا هناك؟ هل حدث شيء؟

قال، وهو يحدّق فيّ:

– أودُّ أن أشرب معك كأس شاي، ونتحدّث.

أشـــعلت الغاز، ورحت أرتّب الفناجين والسّكرية، وأنا أفكّر في الـــسّبب الذي جاء بالمثنى في هذا الوقت! قررت بسرعة أن أعتذر منه، لأنّي أريد الخروج.

عـــدت إليه في الصّالة، ناولته فنجان الشّاي، وجلست بعيداً على الأريكة، وساد صمت أحرجني. كنت أفكّر في تلك اللحظات بزهور القرنفل تلك، قلت من دون تفكير:

– تنسيق باقة القرنفل جميل جداً، وكذلك الألوان، كم دفعتَ ثمناً لتلك الباقة؟

كنتُ أودُّ أن أقول: "لقد دفعتُ ثمناً باهظاً لباقة زهورك".

ردَّ مبتسماً:

- لم أدفـــع شيئاً، كنت في زيارة صديق لي، عنده مزرعة ورد، بـــيوت بلاســـتيكية، وذكرت له أنّك تحبين القرنفل، فاختار لك باقة، ونسّقها.

اخـــتار! ونـــسّق؟ كأنّ أحداً صبّ على رأسي دلو ماء بارد، لم أعرف كيف أداري ارتعاشي، إذن أنا من دفع ثمن حماقة لا ثمن لها، أنا فقـــط، وهـــو جاءني بالورد من دون أن تمتدَّ يده لاختيار اللون! قلت بسخرية:

- يبدو لي أنّ صديقك هو الذي كتب البطاقة أيضاً.

ضحك، وكأنّي قلت طرفة:

- لا، الحقـــيقة، أنـــا كتبت البطاقة، مع أنّ صديقي عرض عليّ الفكرة، لأنّه يكتب دائماً بطاقات بخطٍّ جميل، يرفقها مع باقات الورد.

لم أستطع احتمال المزيد، قلت وأنا أنهض:

- أعتذر منك، أريد الخروج من البيت.

قال:

- إلى أين؟

ارتـــج عليّ، فأخبرته أنّي أودُّ شراء بعض الحاجيات من السّوق. عـــرض علـــيّ مرافقتي، وقال، إنّه سينتظرني في الخارج. أنهيت ارتداء ملابسي على عجل، وخرجت، لأجده أمامي عند موقف الحافلة. سار إلى جانبـــي، وهو يتنحنح، ثمّ قال:

- ما رأيك أن أدعوك إلى فنجان قهوة؟ نحن لم نتحدّث بعد.

وافقـــت على مضض، فقد وجدتها فرصة للتّخلص من السّير في الـــشّارع مـــن دون هدف، ولأنّي لم أكن أريد التّسوق! ركبنا سيارة أجرة، وقصدنا "مقهى النخيل".

خلـــو المقهى من النّاس في هذا الوقت المبكر، أشعرني بالارتياح. طلب لي قهوة اكسبريس، وأشعل سيجارة، وقال:

- تعلمـــين أنّ شمس تزوج؟ حضرتُ عرسه الأسبوع الماضي، لم تـــتح لي فرصـــة رؤيـــتكِ لأخبرك بالأمر، لذا غامرت بزيارتك هذا الـــصّباح، بـــصراحة، شعرت أنّ ما بينكما انتهى تماماً، وأنت تعرفين مـــشاعري نحوك منذ البداية، وإن لم أعلنها من قبل احتراماً لصديقي. بصراحة أكبر نسمة، أنت خسارة في شمس، أخبرتك منذ البداية، أنّه لم يكن يحبُّك. لكنّك لم تقتنعي، وهاهو يتزوج من دون أن يعبأ بمشاعرك.

كـــدت أصـــرخ في أرجاء المقهى، وأقلب فوق رأسه الطّاولة بما علـــيها، أردت أن أصـــفعه تلـــك اللحظـــة، أن أقول له: "كفَّ عن تعذيبـــي" أن أبكي، أن أفعل أيّ شيء، يُخرج ما بداخلي من براكين، خمدت لشهر مضى من غيابـــي عن الكلية. لكنّي قلت ببرود:

- ومـــن قـــال لك إنّي لا أعرف؟ لقد دعاني شمس إلى عرسه، ودعتني فدوى أيضاً، لكنّي لم أكن موجودة هنا، اضطررت للسّفر إلى بلدتي لأمرٍ يخصني. لقد أقلقتَ راحتي من أجل أمر سخيف.

يبدو أنّ ردَّة فعلي لقيتْ لديه أثراً طيّباً، فراح يحدّثني عن أحلامه، وآمالـــه، ومـــستقبله، ومـــضت ســـاعات والمثنى لم ينتبه إلى صمتي، وشرودي، ولم يعرف أنّي كنت أعوم في لجّة القهر، وأنّي لم أعد أشعر بجـــسدي المثلج المتيبس على المقعد، وأنّي لم أتناول فنجان القهوة، مع أنّـــي دخّـــنت آخر سيجارة معي. لم يشعر بأنّ أمامه تمثالاً من الجليد، شمـــسٌ واحدة يمكنها إذابته! ويبدو أنّ غياب الشّمس، وضبابية الجوّ، ساعدا المثنى في الاتّحاد مع تمثال الجليد، وتآمرا على مشاعري في غفلة مني، فقد أخذ المثنى يدي، وشهق متألماً:

- ما بك؟

كـــان ألمـــه حقيقـــياً، عرفت ذلك، مع أنّي لم أشعر بكفّه الّتي احتضنت أصابعي، وراحت تفركها بلطف ليسري الدّم فيها، رأيتها من بعـــيد، بيضاء كالثلج، لا شحوب فيها، لكنّها لم تكن يدي، لم أشعر بقـــبلة المثنى عليها، ولا بضغط أصابعه، ولا بأنفاسه، كنت أرى ذلك كلّه بحياد وعيون مفتوحة على آخرها، وكأنّه لا يعنيني!

حتّى حين تجرّأ المثنى، وجلس بجانبـــي في السّيارة، بدل أن يجلس قـــرب السّائق، لم أهتم، وعندما أحاط كتفي بذراعه، وضغطها، كنت أنظـــر مـــن نافذة السّيارة، أشيّع الشّوارع الّتي شهدت خطواتي برفقة شمـــس، شهدت حبنا، خلافاتنا، شجاراتنا. كنت ألمحه في كلّ زاوية، عـــند كـــلّ إشارة مرور، عند المنعطفات، ابتسامته، أنفاسه، همساته، ويعلـــو صوته "بتُّ أشكُّ في كلّ تصرفاتك". ليتني أستطيع أن أعرف، أن أفهـــم، كـــيف اســـتطاع شمس أن يتركني؟ ألم يمنعه قلبه؟ زفرتُ أنفاسي، يبدو أنّ المثنى على حق، لم يحبني شمس يوماً، وإلاّ لمنعه قلبه من قتلي.

تركت كفي للمثنى يقبّلها عند الباب، ويقول:

- ســـأراك غداً، يجب أن تأتي إلى الكلية كالعادة، ليتأكد الجميع أنّك لا تهتمين لزواج شمس.

أقنعـــتني كلماتـــه، يجب أن أخرج من الظلمة الّتي فرضتها على نفـــسي. أكّـــدت حنان فكرة المثنى، وقالت: "أعلم أنّه يحبُّك، ويخاف عليك، لكن، أنت، بم تشعرين نحوه؟".

صـــدمني سؤالها، لم أكن أعرف مشاعري بالتّحديد، لكنّ المثنى شخص طيب، يحمل في قلبه بساطة الريف الذي قَدِمَ منه، ويحافظ على قـــيمه، وجوهره، ربّما أكون بحاجة لشخص مثله، يستطيع أن يجعلني سعيدة بحبّه، وربّما أحبّه مع الأيام!

لكنّـــي أشكّ بمقدرتي على التلاؤم مع بيئته المحافظة، لقد تعودت جـــوّ المدينة الكبيرة، تعودت أن أتنفس بحريّة من دون قيود، ولا رقابة، وصار محالاً أن أرتبط بشخص يعيدني إلى القمقم!

المـــثنى أوضح لي بلا مقدمات، أنّه يريدني زوجة، وأنّه حدّث أمّه عـــني، وهي تنتظر زيارتي لها لتتعرّف عليّ. لم تعجبني فكرة مرافقته إلى قـــريته، ورفضتها تماماً، متعلّلة بأنّي حين أوافق على الزواج، تأتي هي لتتعـــرّف علـــيّ. ربّما أراد استعطافي بقوله إنّها مريضة، وتشتاق فعلاً لـــرؤية أولاده، وتلحُّ عليه ليتزوج بسرعة، لكنّه كان يؤجل الموضوع حتّى يجد الحبّ الذي يدفعه لاتّخاذ خطوة بهذه الخطورة!

حـــنان حاولت دفعي هي الأخرى لاتّخاذ هذه الخطوة، لا أدري إن كان تأثيرها عليّ قد جعلني أوافق، أم أنّي فعلاً اقتنعت بأنّ المثنى هو الشّخص المناسب لأسجن نفسي معه بقية العمر؟!

زرت "خـــربة الـــورد" برفقته، شعرت أنّ الطريق امتدّ إلى ما لانهاية، على الرغم من أنّنا وصلنا بعد أقلّ من ساعة! أجلسني قرب الـــنّافذة، بعد أن دخل الرّكاب كلّهم، مع هذا لم أشعر بالارتياح، فقـــد كنت الأنثى الوحيدة بين ثمانية رجال، يبدو أنّهم لم يروا فتاة مـــن قـــبل! مما اضطرني إلى النّظر من النّافذة طيلة الوقت، حتّى لم أســـتطع أن أهمس للمثنى بكلمة واحدة، ولا أن أطلب منه أن يفكّ حـــصار ذراعـــه عن كتفي، فقد كانت لديه حجة جاهزة، ضيق المكان، وحمايتي!

والـــدة المثنى امرأة في الخمسين من عمرها، لكنّها تبدو أكبر من ذلـــك بسنوات عشر، المنـــزل لشدّة بساطته لم يكن يحوي من الأثاث سوى بضع فرشٍ ووسائد وأدوات مطبخ بسيطة، وبعض الكراسي من الخيزران، وخزانة من خشب الجوز، عرفت أنّها جهاز عرسها!

عاملتني بلطف مصحوب بحذر! نظراتها المتفحصة، جعلت صبري ينفد، فسألتُ المثنى - حين ذهبت تعدُّ الغداء - عمّ يضايقها؟ أمسك يدي، وهمس: "فيما بعد".

بعد مضي ساعة، شعرت بأنّي أختنق، و لم أستطع السّيطرة على لياقتي، ببضع كلمات مجاملة أنهيت الزيارة، وعدنا في سيارة بلا ركاب، مما جعلني أرتخي في المقعد، وأطلق حواسي في دنيا النّوم. لم أكن نائمة، فقط هربت من أيّ حديث يشعرني بالعجز، ويجبرني على تحمّل ما سيقوله المثنى، بعد أن فهمت في الطريق، أنّ أمّه أبدت استياءها لخروجي من دون حجاب، و لم يعجبها ثوبي الذي يكشف عن ساقيّ. قال بلطف: "أمّي محقة، أنا أيضاً لا أريد أن يرى أحدٌ غيري جمالك، لا تعتبري الموضوع فرض رأي من قبلي، ولا إلزام، لكن أثبتي حسبك لي، لا أريد أن ترتدي ثوباً طويلاً، لكن أمام أمّي فقط، مراعاة لخاطرها وعاداتنا".

اشتعل داخلي بنيران الغيظ والحنق على نفسي، وحماقتي الّتي ارتكبتها في موافقتي على الزيارة، وكان لا بدّ أن ادّعي التّعب وحاجتي إلى النّوم حين وصلنا، كي أفرَّ من دعوة المثنى لشرب فنجان قهوة!

وكذلك هربت من حصار حنان وأسئلتها المحرجة الصّادمة، بدفن رأسي في المخدة، لكنّ النّوم شاكسني، ولسعتني الأسئلة، وحيّرتني الأجوبة. وهويت إلى قاع بئر مظلمة، يقيّدني سؤال يتيم بحبال الشكّ: "هل سأتزوج المثنى حقّاً؟". كنت أدور كمجنونة في عمق البئر، أحاول التّخلص من القيد من دون جدوى، وقرّرت أخيراً أن أخبر المثنى أنّني لا أستطيع الارتباط به، لكنَّ غصّة أخرى وقفت في حلقي، كيف سأفسر موقفي؟ ارتحت لجواب هلامي أطلَّ برأسه ليجعل لي خلاصاً "سأجد الحل حين أحاوره، سيُخلق الجواب في تلك اللحظة".

في الـصّباح، وأثناء المحاضرة الأولى، كنت أرتّب في ذهني صيغة الجملـة الّـتي سأبدأ بها الحديث مع المثنى. كان المهم عندي أن أبدأ، وبعدها كلّ شيء سيهون.

خـارج الكلـية كان الجوّ لطيفاً، فقد أطلّت شمس نيسان على اسـتحياء، وأرسلت بعض الدّفء في جسدي، وهبّت نسمات باردة، لسعت وجنتيّ، وأشرقت نفسي بنور الارتياح، بعد أن قلت للمثنى من دون مقـدمات: "أنـت في حـلٍ من وعدك لي، أعتقد أنّي لا أصلح للـزواج". نظـر إليّ بذهول، وقال: "تمزحين؟ أم هي كذبة نيسان؟". قلـت: "بـل أنا جادّة، وفي كامل قواي العقلية، هذا إن خطر لك أن تـتهمني بالجنون". لم يقبل المثنى كلماتي على أنّها حقيقة، بل ردَّ ذلك إلى مـزاج سـيئ سـيطر عليّ، أو إلى تدخل خارجي، وربّما بسبب فقـره!. صـدمني كلامه، لم يخطر لي أنّ المثنى سيعتقد ذلك، ويربطه بـزيارتي لبيـتهم. حاولت أن أوضح له أنّ الأمر لا علاقة له بأمّه ولا ببيتهم، لكنّه رفض أن يفهم، فتركته ومشيت. أوقفت سيّارة أجرة قبل أن يلحق بـي، وذهبت إلى البيت. رحت أفكّر في طريقة أقنع بها المثنى من دون أن أؤذيه، لكنّ ذلك لم يكن ممكناً، فهو سيرفض كلّ الحلول، وسيصرُّ على أنّي تلاعبت به، وخدعته، وخنته، و...

واجهني بكلّ قسوة بعد أيام قائلاً: "لن تكوني لأحد غيري". قلت بـتحد: "ومن سيمنعني؟". أخرج يده من جيبه ببطء، وأراني زجاجة صغيرة، وقال: "هذه".

ربّما بسبب عنادي، وتهوري، لم أفهم مباشرة ماذا يعني، و لم أنتبه إلى ماهـية الـزجاجة في يده، فقلت من دون تفكير: "ولا هذه، ولا عشرة منها". فتح فمه بذهول، ونظر إلى وجهي بلهفة، وعيناه تطفران بالدّمع: "اللعنة عليك، لم أعرف فتاة مجنونة مثلك في حياتي، لا تخافين؟

حتّى من ماء النّار!". ارتعش قلبي بعنف، وتسارعت ضرباته، وخشيت أن يظهر اضطرابي، حين فهمت قصد المثنى، الأحمق! هل كان سيفعلها، ويشوّه وجهي؟ بتلقائية ابتعدت بضع خطوات، ويده تضغط الزجاجة، والألم يعصف بوجهه، فتتقلص شفتاه، وهو يرميها أرضاً، فتتناثر على الإسفلت، وتصيب قطعة صغيرة ثوبي، محدثة بلمح البصر شقاً طولياً من الجانب. أحسست بنار تلسع ساقي، لكنّي أظهرت ثباتاً غريباً، لقد تأكدت أنّ حبه لي أكبر من حقده عليّ، وأنّه لا يمكن أن يؤذيني على الرغم من تهديده. فافتعلت الغضب، أمسكت طرف ثوبي، وتركته واقفاً يراقب خطواتي، من دون أن يجرؤ على اللحاق بي.

لم يمر على الحادثة سوى بضعة أيام، حين رأيته في مدخل الكلية، فتحاشيته، ودخلت، وكأنّي لم أره. لحق بي بصمت. حين دخلت القاعة، جلس ورائي، وهمس: "أريد رؤيتك بعد المحاضرة، أرجوك الأمر هام جداً". فكّرت مباشرة بالهرب منه بأيّ وسيلة، لم أكن أريد سماع المزيد، فقد خمّنت الموضوع الذي يريد أن يتحدّث عنه!

أفشل صوت الرصاص القريب مخططاتي كلّها خلال دقائق، حتّى الدكتور شوقي، أنهى محاضرته بتلعثم واضح، وحمل كتبه، وخرج من القاعة، وعمّت الفوضى بين الطّلاب، وأغلقت الأبواب الخارجية للكلية، وحوصرنا في الطّابق السّفلي، وكأنّه يوم الحشر. استمرّت المعركة في الخارج حوالي السّاعة والنّصف، كانت قوات السّلطة تحاصر خلالها بعض الطّلاب المسلّحين في الكليات المجاورة، انتهز المثنى الفرصة ليبقى قربي، ناصحاً إياي بالابتعاد عن النّوافذ، والكف عن التّدخين. لم أكن أهتم لما يقول، ولا للتعليمات الصّادرة لنا بالبقاء في الطّابق الأرضي، رغبة الانطلاق في هذه السّاعة حيث الشّمس في الخارج،

كانـــت أقوى مني، لم أحدد بالضبط دوافعي لمخالفة التّعليمات. لحق بـــي المثنى، وهو يرجوني أن أنـــزل إلى الطّابق السّفلي حتّى يتوقف إطـــلاق الـــنار، وتفتح الأبواب. انتزعت يدي منه، ووقفت في فسحة الـــدّرج قرب نافذة واطئة، تتيح لي رؤية الأشجار في الحديقة الخلفية. لامـــستْ يدهُ كفي: "من أجل خاطري إن كنت لا تهتمين بنفسك". هـــل كـــان لكلمات المثنى سحرها؟ أم أنّي خشيت تلك اللحظة على حـــياتي مـــن رصاصـــة طائشة، فتبعته إلى الأسفل؟ حيث الضّجيج، والزّحام، والدّخان، والخوف!

مـــرّ الـــوقت بطيـــئاً، ثقيلاً، مشبعاً بالقلق والتّوتر. حين فُتحت الأبواب، اشتدت الفوضى والتّدافع، الغريزة تغلّبت على اللياقة!

المشكلة الأولى الّتي واجهتنا حين خروجنا، عدم وجود حافلات، فقد توقفت في الشّوارع، وهرب سائقوها، ولم تمرُّ سيّارة أجرة واحدة خلال أكثر من ساعتين، كان الطّلاب أثناءها في حال اهتياج، بسبب بُعد منازل غالبية الطلبة عن مبنى الجامعة، لكنّ الجميع وجدوا أنّه لا بدَّ مـــن التّحرّك سيراً على الأقدام، ولو اضطروا لمشي متواصل طيلة اليوم كي يصلوا بيوتهم!

لم يكن البيت الذي أسكنه يبعد عن الجامعة مسيرة طويلة، لكننا فوجئـــنا بحاجز يقطع الطّريق الصّاعد من الجامعة بشكل مباشر، وكان علينـــا أن نختار بشكل إجباري الطّريق الآخر المؤدي إلى مركز المدينة. معـــرفتي بأحياء المدينة وحاراتها، كانت بسيطة حتّى ذلك الوقت، مع هـــذا شـــعرت باطمئنان لوجود المثنى معي، ولم يكن أكثر معرفة مني بالطّرق الفرعية المؤدية إلى مركز المدينة، لكنّه قال بثقة "يمكننا الالتفاف من مركز المحافظة، لنأخذ شارعاً فرعياً يؤدي بدوره إلى منطقة قريبة من ســـيف الدولة عند الإذاعة، ومنها نصعد عبر طرق فرعية من الحارات،

وندخل الحي الذي تسكنينه، ثقي بـــي". وثقت بالمثنى، لم يكن أمامي خيارٌ آخر!

عندما وصلنا مركز المحافظة كان الطّريق من هناك مقطوعاً أيضاً! احترنا فيما نفعل، وفاجأنا الرصاص من جديد، فرحنا نحتمي بالجدران ومـــداخل البـــيوت، كلانا لم يجرؤ على طلب جرعة ماء من أيّ بيت نحتمـــي بجدرانه أو مدخله، واخترت أن أريح جسدي من المشي على أحـــد الأدراج، ألقيت جسدي من التّعب، ولم يستفزني بعدها طلب المثنى لمتابعة السّير، البرودة وحدها خلخلت عظامي، وجعلتها تصطك، وأفزعني ألم حاد في عظم الركبة، فنهضت مرغمة، وتابعت السّير.

كانـــت السّاعة تقترب من السّادسة، حين رأينا عربة طعام وسط شـــارع تـــشتعل فيه الحرائق وإطارات السّيارات، ولم أكن حتّى تلك الـــسّاعة قـــد انتبهت إلى أنّي لم أتناول شيئاً من الطّعام منذ ليلة أمس! عرض عليّ المثنى ضاحكاً أن نسرق شيئاً من العربة، وقال إنّها مشاع، لكنّـــي رفـــضت، وسيطرتُ على تقلصات معدتي بحبة شكولا صغيرة كانت في حقيبتي. فجأة قال المثنى بيأس: "لقد أضعتُ الجهة، لا أعرف أيـــن نحـــن بالضبط، هل تستطيعين أن تحددي؟". قلت بهدوء: "أظنني أعرف، سنسير من هنا". واخترت جهة القلب من دون يقين، فوجدنا أنفـــسنا قـــبل الـــسّابعة بقليل في الشّارع المقابل لحديقة "عبد الرحمن الكواكبـــــي". شـــعرت بالارتياح ونحن نصعد شارع الإذاعة، أخيراً وقفـــنا في القمـــة، على تلة ترابية فسيحة، لم تطلها يد العمران بعد، ووقفنا نتأمل المدينة، لم يكن هناك ضوء في الشوارع، ولا المنازل، فقط كانت مئذنة القلعة، تضيء ببصيص يشبه بصيص جمرة. والعتمة تسيطر علـــى كلّ شيء، للحظات أخذتني النّشوة من اللوحة الفضية أمامي، وشـــدّني الخيال بأجنحته بعيداً عن واقعي، رأيتها وكأنّي في حلم، أنا

أمـــتلك هـــذا الأفق وحدي، شوارع خالية، أنوار خامدة، لا وجود لـــسيارات، لا نـــاس، فقط سكون مطبق، يقطعه نباحٌ متقطع لكلاب متشردة، ونسيم بارد يلسع وجهي، ويبعثر شعري، ويطيح بأتربة وبقايا أكـــياس ورقـــية من بناية لم ينتهِ بناؤها. هل عاد بـــي الزمن إلى قرنٍ مـــضى؟ لا، بـــل رأيته بوضوح، واقفاً هناك في المئذنة، عيناه تشّعان بابتـــسامة عذبة، وتحدّقان بـــي، اقترب كثيراً، وحين أحاطت ذراعاي بكتفه، انثنى بليونة، كعجينة طريّة، وخلّف بين يديّ جمجمته، وتبخّر!

أمـــسك المثنى كفي، وهو ينبّهني همساً إلى حاجز في آخر الشّارع خلفنا. وقع قلبـــي بين قدميّ تلك اللحظة، وشعرت بالبرد، بردٌ طحن عظامـــي، وإرهـــاق زعزع ثقتي بقدرتي على المتابعة، وتسرب خوفٌ شـــرس، فأطاح بهدوئي، قلت بعصبية: "ماذا نفعل؟". شدّني من يدي و لم يـــرد. هبطـــنا التلّة ثانية، وانحرف في شارع فرعي، ودخل إحدى البـــنايات. صـــعد الـــدّرج، وهـــو يضيء أمامه بنار القدّاحة، قلت باستغراب: "إلى أين؟". أشار إلى المكان بيده، وأخرج من جيبه مفتاحاً، وفـــتح أحـــد الأبواب. وكأنّ كلّ شيء كان مرسوماً سلفاً! وكما في الأحـــلام، وجـــدنا مأوى، وانتهت رحلة تشردنا في الشّوارع. أشعل شمعة، فأضاءت المكان، وقال: "أنت في بيتي، الحمد لله، البيت لا يوجد فيه أحد، أصدقائي سافروا البارحة إلى البلد".

كنت أعرف أنّ المثنى يسكن بيتاً استأجره مع عدد من طلاب بلدته، لكنّي لم أكن أعرف أين يقع!. جلب لي غطاء، ووضعه في حضني: "لفي جـــسدك جيداً، الجوّ بارد". ضايقتني رائحة اللحاف، مع هذا سحبته فوق جسدي، وأنا أقول:"أفضل من البرد". اعتذر قائلاً: لا يوجد كهرباء كما تـــرين، وليس عندنا مازوت للتدفئة، سأصنع لك كأس شاي، أعرف أنك جائعة، لكنّي لم أجد شيئاً في المطبخ سوى القليل من الأرز.

قلـــت، وأنا أضحك: "ينفع، اسلقه فقط، ونشرب معه الشّاي". شـــعرت أنّ المثنى يكاد يطير من الفرح، لأنّي معه! أم لأنّي ضحكت للمـــرّة الأولى بعـــد طـــول صمت وقلق؟ أم لأنّي رضيت بوجبة أرز مسلوق وشاي، واعتبرتهما وجبة ملوكية في مثل هذا الظرف؟

تناولـــنا الطّعـــام بـــصمت، وشربنا الشّاي، فسرى الدّفء في جـــسدي، وأحســـست حينها برغبة في النّوم، على الرغم من الألم في قدميّ الذي نغص عليّ ارتياحي. قال مداعباً: "تستأهلين، قلتُ لك من قـــبل، الحذاء الرياضي يناسبك، لا داعي للكعب العالي، لستِ بحاجة لطولٍ إضافي". انتبهت لحقيقة لم أكن أهتم بها من قبل، الحرقة والضيق في صوته! وتجاهلت الأمر بقولي: "إنّ الأحذية الرياضية لا تتناسب مع مظهري، وتلغي أناقتي". وأضفت ربّما رغبة في إرضائه: "لكني سأفكّر بشكل جدي في ارتداء بنطال يتماشى مع الحذاء الرياضي".

جلـــس المثنى قربـــي، وهمس: "دعينا من هذا، أخيراً، نحن معاً، تجمعـــنا غرفة واحدة، ومصير واحد، و...". مدّ يده، وتحسس عنقي بأصابع مرتجفة، لسعتني أصابعه، فانتفضت مبتعدة، وأنا أقول بضيق: "ماذا ستفعل؟". ابتعد عني، وهو يقول: "لا شيء، تصبحين على خير، سأنام في الغرفة الثانية". لم أصدق في البداية أنّ المثنى تركني، وذهب إلى الغرفة الثانية! ولم أستطع تفسير ذلك الموقف! أيعقل أن يجدني بين يديـــه، ويتركني بهذه البساطة؟ غفوت على أسئلتي خلال دقائق، فقد غلـــبني الـــتّعب. ثمّ صحوت على أصوات نباح وضجة في الشّارع القـــريب، نهـــضت مذعورة، وناديته، خُلق بجانبـــي، وكأنّه هدهد ســـليمان، وقال: "لا تخافي". ربّت شعري، وضمّني بهدوء، وتحسس نبـــضي قـــرب القلـــب، كانت يده دافئة، التصقت به أكثر، وقلت "مـــتأكد أنّ الـــصوت بعـــيد؟" قال بثقة: "لا بدّ أنّها دورية تتفقد

الشّوارع". ما خشيته في تلك اللحظة أن يكون للمثنى علاقة بشيء مما يجري، لم أستطع تحديده، لكنّني شعرت به يلحُّ على تفكيري. كانت السّاعة قد تجاوزت الثانية ليلاً، والفجر بعيد، وأنا أتحرّق لطلوع النّهار، والذّهاب إلى البيت. لكنّ وجود المثنى على مقربة مني، شغلني حدّ اشتعال الرغبة في جسدي، واستسلامي الكامل لساعديه، الغريب أنّ المثنى لم يفعل شيئاً إزاء رغبتي، و لم يشعله التصاقي به، اكتفى باحتضان يدي وتقبيلي! في تلك اللحظة كبر المثنى في عينيّ، وشعرت أنّه أراد أن يثبت لي، أنّه لا يريد الإساءة إليّ باستغلال الفرصة السّانحة، وأنّه يحبني، ويريدني زوجة، وأكّد لي همسه: "لن تكوني لغيري، وأنا لست على عجلة من أمري". ثقة المثنى بنفسه إلى هذا الحدّ أحبطتني، وأحسستُ للحظات أنّي يمكن أن أحبّه، وأن أرتبط به طيلة العمر، و لِمَ لا؟

لم أجد صعوبة في إقناع نفسي بأنّه الرجل المناسب لي، وأنّ تلك السّخافات الّتي تمسكت بها، لا تشكّل عائقاً، فلمَ أرفض العودة إلى الحجاب؟ ولِمَ أستاءُ من السّكن في "خربة الورد"؟ في المحصلة المكان بناسه، فإن كنت أحبّه سأتجاوز كلّ هذه العقبات السّخيفة، هل هي عقبات حقيقية، أم أنا من اخترعها؟

طلع الصّبح وأنا مستكينة مغمضة العينين بين يديه! أصرّ أن أشرب شاياً قبل أن نمضي معاً.

دفعتني تلك الفكرة المجنونة الّتي استحوذت على حواسي إلى الإصرار على زيارة القلعة، كان المثنى في حالة ذهول من طلبي ذاك، أخبرته أنّي سأذهب لوحدي، هناك هاتف ينده في أعماقي "تعالي". كنت على يقين أنّه ينتظرني، ولم يكذب حدسي، حين أغمضت عينيّ وأنا أهبط الدّرجات الزلقة في العتمة، سرت كالمنومة إلى زاوية محددة،

ومـــددت يدي لأحضنها براحتيّ، كما فعلت أمس ليلاً!. لم تكن يد المثنى تلك الّتي أمسكت يدي تضغطها في العتمة..!

مـــا أنـــا على يقين منه أنّ كلّ شيءٍ تلاشى في تلك اللحظة الّتي احتـــضنتُ فـــيها ملامح شمس النّورانية، حين انهمرت فجأة من فتحة ضـــيّقة في الـــسّقف؛ هتفتْ أعماقي "شمس!" ورأيته يبتسم لي بعذوبة حارقة، تلك الابتسامة الّتي تتميز بغموضها وألمها!

افترشـــت الأرض الـــرطبة، أســـندتُ ظهري إلى جدارٍ متآكل، أحسست بالأرض الرخوة تسحبني بعيداً، خلت أنّه اقترب منّي، تدلّت ذراعـــه من السّقف، التفت حول جسدي، أرحت رأسي على صدره، وانهمـــرت قطرات الشّهد من عينيه العسليتين. حدّق بـــي، أغمضتُ عـــينيّ، وغـــصت في ضلوعه، تمتمت: "كم سأنتظرك؟". همس: "لن تنتظـــري بعـــد الآن!". كنت على استعداد للبقاء في الفضاء الرّحب، الذي تمخضت عنه العتمة في الحبس الضيق. لهج لساني باسمه، ارتعشتُ بعـــنف وأنـــا أرى جسده، حقلٌ فسيح من عباد الشّمس، أتمرّغ بين أحـــضانه، وأتدحرج بين السّيقان الخشنة، الوبر الناعم التصق بجسدي، جلـــدي يحمرُّ ويتورّم، حكةٌ شديدة تستنفر أظافري، حتّى أحسست بلزوجة الدّم تحتها.

رأيـــت أصابع المثنى تبتعد ذاهلة عن يدي، وهو يحدّق في العتمة مذعوراً.

هل كان عليّ أن أشرح له أنّه يعيش واقعاً لا علاقة له بالكابوس المسيطر على ملامحه؟. لكزني برفق، وهو يهمس باضطراب:

- مع من تتحدّثين؟

لم أكن أهتم في تلك اللحظة بشرح تفاصيل ما أعيشه، لكن كان عليّ أنْ أخبره، أنّني وجدت ما أبحث عنه أخيراً!

تلقّى كلماتي مصعوقاً حين باعدتُ يديّ بلامبالاة، وأنا أقول له:

- أنـــا أحـــبُّ شمس، كان عليك أن تفهم - منذ البداية - أنّك هُيئت لتكون جسر عبوري إلى اليقين. لقد أيقنت أخيراً أنّني لن أحبّ سوى شمس. سألني، وهو يضغط كلماته، فتخرج بطيئة من بين شفتيه: "ومـــا كان بيننا، ماذا تسمينه؟". هززت كتفيّ بحيرة، ولويت شفتي، وغـــصّت في حلقي الكلمات. مدّ يده ثانية، تلمّس أصابعي، ونظر إليّ متأملاً. لمحت في وجهه أثراً غريباً، هل شكلي يوحي بالرعب؟

كنت أحتفظ بمرآة صغيرة في حقيبتي، لكنّي لم أشأ وقتها أن أنظر فيها، اكتفيت بلمس الحقيبة بحنان، وكأنّ فيها روحي!

حـــين ســـرنا تجـــاه الباب الرئيسي للقلعة، استعاد توازنه، وعاد يسألني:

- ألن تخبريني عن السّبب الحقيقي لإنهاء علاقتنا؟

قلت ببرود:

- أظنني شرحت لكَ الأمر، كان بإمكاني ألا أفعل، لكن لم أشأ تركك للحيرة تنهش عقلك بحثاً عن أوهامٍ أكونُ بطلتها. أنا لم أحبك أبداً، كنت أبحث فيك عن شمس، لكنّي لم أجده.

نظر إليّ بهدوء محاولاً السّيطرة على انفعاله:

- ســـنؤجل الـــنقاش إلى فرصة أخرى، تكونين حينها في وضع أفضل، غداً صباحاً نتناول قهوتنا في مقهى النخيل.

وأدار ظهـــره مغـــادراً قبل أن يسمع ردي. فجأة وجدت نفسي وحيدة مع شمس في سيّارة أجرة، والسّائق يسألني:

- إلى أين سيدتي؟

رددت بتلقائية:

- سيف الدولة، موقف زينو.

كانـــت الشّوارع خالية كما في الأمس، الهواء الشّديد يعصف بالقمامة، وأكياس النايلون الفارغة قد انتشرت على عرض الشّارع، ولا يوجد سوى القطط تجوب المكان، وتموء بشراسة. أفزعني المنظر، تـــبدو المديـــنة بلا سكّان، مشيت قريباً من جدران البيوت، كنت أتحاشى السّير وسط الشّارع، فكلّ ما حولي مريب. ولم أصدق أنّي نجوت من قبضة الخوف إلاّ حين غادرت حلب، ووصلت مشارف أريحا.

بقـــيت هـــناك حتّى أوائل حزيران، مع أنّي عرفت، أنّ الأحوال استقرّت، وكلّ شيء عادي، لكنّي لم أجد ما يدفعني للسّفر ثانية، حتّى المـــثنى لم أكن أذكره إلاّ نادراً، يخطر على بالي أحياناً فأتساءل: "كيف سأهرب من ذلك الفخ الذي أطبق على روحي؟". وأترك السّؤال معلّقاً في الفضاء.

في آخـــر يـــوم مـــن الامتحان، قالت حنان بلا مقدمات: "ألم تلاحظـــي أنّ المثنى اختفى؟ لم يحضر الامتحان! أم أنّه لم يعد يعني لك شـــيئاً؟". لمحت في كلامها لوماً، فقلت بلا مبالاة: "منذ البداية لم يكن يعني لي شيئاً". قالت باستغراب: "تبحثين عن حبّ جديد؟". سبق قولي تفكـــيري: "لـــن أحـــبّ أحداً سوى شمس". انتبهتُ إلى عبارتي الّتي خـــرجت بتلقائـــية، بعـــد فوات الأوان، جلست على حافة السّرير، وقلبـــي يضرب بعنف، وحنان تقول: "أعيدي ما قلت".

لم أستطع لفظ اسمه ثانية، لملمت مشاعري بسرعة، وخبّأتها تحت قـــناع وجهـــي المحايد، وتساءلت بمرارة: "من الذي نطق، قلبـــي أم شـــفتيّ؟" قالـــت حنان بإلحاح: "لقد قلتِ إنّك تكرهينه؟ ألم تصرّحي بـــذلك حـــين تزوج؟". قلت، وأنا أستعيد ملامحي ونبضي، وحرارة قلبـــــي وارتعاشي: "أنت مثله، تصدّقين كلّ ما يقال، ولا تبحثين عن

الحقـــيقة. أنا لم أحبّ سوى شمس، ولن أحبّ غيره، أحتاج لسنوات طويلة قبل أن يلتئم جرحي، أنا أكابر، أنا هشة، وحمقاء، أنا حمقاء".

انهرت في لحظة واحدة، وتمالكت على السّرير، وأنا أبكي بحرقة. كانت المرّة الأولى الّتي أبكي فيها بعد فراقنا، المرّة الأولى الّتي أواجه فيها نفـــسي بـــصدق وشجاعة، وتمنيت أن تخرجني هذه المواجهة من جمود عواطفي، وتفتح قلبـــي لحبّ جديد.

خـــرجت إلى الشوارع، مشيت ساعات طويلة بلا هدف، كنت أفكّر بتغيير أسلوب حياتي كلّه، لن أعود إلى أهلي، سأبحث عن سكن لا يعـــرفه أحـــد، سأبتعد عن كلّ ما يمت إلى ماضيّ بصلة، لكن هل أستطيع نسيان شمس؟

استطعت تأمين سكن عند امرأة عجوز في "بستان القصر" في ملحق بـــسيط، لغرفتي بابٌ مستقل يطلّ على فسحة الدّرج. كما استطعت عن طـــريق صـــديقة لي أن أدرّس في مدرسة "صلاح الدين الصباغ" في حي الكلاسة القريب من مكان سكني، صحيح أنّ التدريس مؤقت، لكنّه أمّن لي مـــصروفي للأشـــهر القادمة قبل حلول الصيف. مرّ الشتاء بطيئاً كئيباً، وجـــاء الربيع، ليبذر فيّ روحاً جديدة، هل تنبت بذور عبّاد الشمس بعد انقضاء سنة على فراقنا؟ شغلتني الأحلام في يقظتي ومنامي، حتّى عودتي في الخامس من نيسان إلى البيت.

حـــين دخلـــتُ الممر الطّويل للبناية الّتي أقيم فيها، هدأت الريح العنـــيفة، وسكن قلبـــي قليلاً. دخل المفتاح في القفل، ارتمت أوراقي علـــى الطّاولة، وجلستُ على حافة السّرير متحررةً من حذائي الضيّق. أغمضتُ عينيّ وأنا أرتعش، حدّقت في تفاصيل الغرفة البسيطة الأثاث، السّرير الواسع بإسفنجه الطّري، الطّاولة الّتي تجتاحها فوضى الأوراق، المكتبة، وكرسي وحيد ينتظر ساعات أرقي.

حملتُ الجمجمة الموضوعة في المكتبة بين راحتيّ بوجل. راح ينظر بفتحتي عينيه الغائرتين إلى الكتب المرصوفة بعناية، حدّق ملياً في العناوين، ابتسم بغموض، ابتسامة نزف ملحها فوق شفتي، فتفجّر الألم.

استلقيت على السّرير، وأنا أحدّق في البياض المحيط بي، السّقف والجدّران العارية، والنّافذة المغلقة على الحلم...

لا أعرف كم كان الوقت حين نهضت مذعورة - وقلبي تتسارع دقاته، فتلطم أذنيّ بعنف - إثر أصوات غريبة لم أدرك كنهها. استويت قليلاً في سريري، وأنا أنصت علّي أسمع الصّوت ثانية، فأدرك سبب الرعب الذي شلّ مفاصلي.

الصّمت كان يخيّم على المكان، والعتمة تمنع الرؤية.

أدركت أنّ المساء قد رحل، وأنّي أطلت النّوم. كان عليّ أن أجد وسيلةً تهدّئ أعصابي، مع ذلك لجأت إلى القهوة أعبُّها، وأنفث المزيد من الدّخان، فيشتعل صدري.

هل سمعت الصّوت ثانية؟

كنت على يقين أنّ الصّوت انبعث من غرفتي، و لم يكن لضجيج ابن الجيران الصّغير الذي يلعب على دراجته في الطابق الأرضي أيّ علاقة بما أيقظني مذعورة من نومي.

حاولت التّركيز لمعرفة ما يكون ذاك.. خمّنت أن يكون قرعاً متواصلاً على الباب، لكنّي لم أجد أحداً حين فتحته!

تصوّرت أنّ جارنا يضرب زوجته كالعادة، وقد صرخا معاً، وهمدا فجأة، لكنّي سمعت صوتها تناديه ليشرب الشّاي على الشّرفة!

تسربت إلى أنفي رائحة غريبة، لأوّل وهلة ظننت أنّي تركت أنبوبة الغاز مفتوحة، لكنّ الرّائحة العطنة عادت بي إلى درجات

حـــبس الدّم وخطواتي الحذرة، وأنا أتلمّس الجدران، وقلبـــي المرتعش، وأنـــا أصـــرخ بفزع "شمس". لم يكن حلماً، لا أدري ما الذي يجعلني أعتقد أنّ هذه الجمجمة له، وأنّه يقاسمني فراشي ليلاً، وأنّه...

صـــمتٌ مـــريب واجهـــتني به نظراته الغائرة في عمق الجمجمة الـــرّمادية. حـــدّقت فيها بقلق، كنت أنتظر أن يحدّثني عن ذلك الزمن الذي عاشه بعيداً عني.

سمعت همسه يلسع أذني: "تحبينني؟".

قلـــت بصوت خرج من حلقي مشروخاً خشناً: "الآن لا يمكنك أن تغـــادر غرفتي، الآن لا يمكنك أن تقول إنّك تكرهني، ستبقى أسيراً هنا، لن أطلق سراحك أبداً!".

ارتـــديت قميص نوم شفاف، واستلقيت ووجهي صوبه، قلت: "لمـــاذا يـــا شمس؟ لماذا؟ قل لي أرجوك، هل وجدتني خائنة حقّاً؟ هل اعتقدت أنّي أحبُّ شخصاً آخر؟

أضـــاءت الفجوة المعتمة مكان عينيه بنورٍ لسعَ قلبـــي، وسمعتُ همـــسه يخرجُ من أعماقي: "منذ متى كنت تهتمين بما أفكّر به؟ ترتكبين الحماقـــات، ثمّ تعتذرين عنها بتصرفات أكثر حمقاً. لا أعتقد أنّه يعنيك كيف ولماذا تركتك، وإلاّ كنت تجنبت حدوثه". سبقتني دموعي، كنتُ أحتاجُ ذراعيه، لأشعر بالدّفء والاحتواء، أحتاجُ أنفاسه، لأشعرَ أنّي لا زلتُ على قيد الحياة، أحتاجُ إلى شيءٍ مادي ينسفُ الصّقيع الذي جمّد جـــسدي. ضممتهُ بقوة، وأحكمتُ لفّ الغطاء حولي، تنفستُ بعمقٍ داخله، علّي أبعث شيئاً من الدّفء في أوصالي، بلا جدوى! لا أعرف كـــيف غفـــوت على الرغم من الصّقيع، كلُّ ما أذكره أنّ صوته كان يـــسحبني بعيداً، يهمس لي، يحتضنني، يغيبني، فيتلاشى شعوري بالعالم من حولي.

غفوت تلك الليلة والقلق يعصف بـــي، كنت أستيقظ كلّ ساعة علـــى ضـــربات قلبـــــي تطرق أذنيّ، وأنا أسمع صوت انفجارات، وضجيجاً لا يمكن أن تخطئه أذناي. قبل أن يطلع الفجر بدقائق، كنت أرتدي ملابسي، وأنا في حالة من التّوتر لا تطاق.

و لم يفـــزعني طـــرق الباب - كأنّي أكرر الحلم الذي منعني من الـــنّوم - ذهبت لأفتحه، وأنا أتوقع أنّ الحلم لم ينته بعد. وأنّي أراهم يدفعـــون الـــباب بعنف، يفتشون الغرفة، يقلبون كلّ شيء بشراسة، يحطّمـــون التّماثيل الصّغيرة في مكتبتي، يرمون "النّفري ومحمود درويش والـــسّياب ومـــاركس أرضاً، ويدوسونهم بأحذيتهم الثقيلة، يكشف أحـــدهم غطـــاء ســـريري، ويصرخ بذهول، وهو يضرب الجمجمة بالحـــائط، فتتناثر شظاياها في كلّ مكان. وأصرخ: "شمس". ويغوص قلبـــي في ضلوعي.

ما حدث كان تماماً كما في الحلم، إلاّ أنّي لم أصرخ باسم شمس، خبّأته في القلب، ومضيت معهم معصوبة العينين!

* * *

(1)

انتبهتُ من شرودي على صوت أم فاتح، تقول:

- الوقت تأخر، ما بدّك تنامي؟ أنا بسهر جنبه.

نهضت متثاقلة، رأسي يشدّني إلى الأسفل، فأشعر بدوار يكاد يرميني أرضاً، دخلت غرفتي وأنا أترنّح، فتحت النّافذة علّ نسمة عابرة تعيد الصّفاء إلى نفسي، مسحت وجهي بمنديل مبلل بالماء، أردت أن أمسح آثار الدّمع، ومعها الآثار المرّة الّتي تركتها ملفات والدي في نفسي. لكن هيهات!

لا أدري أيّة قوة خفية أطارت النّوم من عينيّ، وتركتني مسمّرة قرب النّافذة الشّرقية لغرفتي، الّتي تطلّ على الشّارع الخلفي الضيق، حيث كانت تصطفُّ الحافلات المسافرة إلى القرى الجبلية المحيطة بالمدينة، قرب بضعة دكاكين لباعة المفرّق، بُنيت بشكلٍ عشوائي على حافة بستان مهمل، يتفرّع عن زقاق "القنطرة"[1]، مات صاحبه الغريب، وأصبح وقفاً للبلدية.

مددتُ رأسي من النّافذة، العتمة تغمر الشّارع الواسع، أضواء شاحبة متناثرة هنا وهناك، تضيء وجوه العابرين القلائل في هذه السّاعة المتأخرة. لمحت شيئاً غريباً يتحرّك في بداية الشّارع عند المنعطف، لم أتبين ماهيته، لم أشكّ في كونه حيواناً ضخماً يتقدّم ببطء، لكنّي

(1) كنا نسميه كذلك نسبة إلى القنطرة التي تصل بين طرفيه، تعتليها غرفة تسكنها جارتنا المسيحية الطيبة ماري غوري.

ضـــحكت من نفسي، حيوان! في هذا العصر؟ لم يعد المرء يلمح حماراً في الـــشّارع، حتّى الكلاب انقرضت، لم يبقَ سوى القطط والجرذان تسرح آخـــر اللـــيل على راحتها. اقترب الشّبح أكثر، وأصبح قبالتي تحت ضوء الـــشّارع! كتمت صرخة كادت تنطلق من حنجرتي. رأيت شبح إنسان، يـــزحف بـــصعوبة معتمداً على دراجتين صغيرتين مربوطتين حول كفيه، خلعهمـــا بهـــدوء، واتكأ على عمود النّور حيث كانت في الماضي تربض شـــجرة عنّاب ضخمة، ينام الأطفال المشردون في جوفها ليلاً، وتلهو البنات تحتها نهاراً بنصب أرجوحة على أغصانها المتينة! أشعل سيجارة، وراح ينفثها من منخريه، ويحدّق في الشّارع، وكأنّه ينتظر شخصاً ما!

حاولـــتُ أن أتذكّـــر أيـــن رأيتُ هذا الشّبح من قبل؟ من عتمة الذاكـــرة، رأيـــتُ فتاة مراهقة، تراقب صبياً وسيماً، يتكئ على جذع شـــجرة الجميز الضّخمة، ويدخن سيجارته بمتعة، لا تعرف بالضبط ما الـــذي شدّها لذلك الصبـــي المتّسخ الثّياب، سألت نفسها مراراً عن الأمر، ووجدت إجابة أضحكتها كثيراً فيما بعد "نور خفي ينبعث من وجهـــه" كانت تقسم بينها وبين نفسها، أنّها رأت ذلك النّور يخطف قلـــبها، ويتركها تحلّق في سماوات شاسعة صافية الزرقة، كانت تراه في الحلم يطير إلى جانبها، يقطف لها النّجوم، ويزيّن شعرها، وآمنت يوماً بمقدرتـــه الخارقـــة تلـــك، صدّقت الحلم المتكرر، وشعرت أنّه يخصّها بنظـــراته، ويتحين الفرص ليقترب منها. منعها خوفها من اتّخاذ خطوة جـــريئة بفـــتح الـــنّافذة، ورمي ورقة، سهرت ليالي طويلة وهي تعيد صـــياغتها، مـــزّقتها عشرات المرّات، وفي كلّ مرّة كانت تعتقد أنّها وصـــلت للعـــبارة المناسبة الّتي يفهم منها أنّها تحبّه من دون أن تصرّح بذلك. كاد الرّعب يشلُّ يدها الممدودة من النّافذة، حين شعرت بحركة والـــدها قـــرب بـــاب غرفتها، ارتعشت يدها، وسقطت الورقة، رأته

يركض بسرعة ليلتقطها، أغلقت النّافذة بارتباك، واندست في فراشها. شعرت في تلك اللحظة بنظرات نارية تخترق الغطاء، وتكشف خوفها، وتعرف بما لا يدع مجالاً للشكّ ما حدث بالتّفصيل، لم تمدأ دقات قلبها العنيفة حتّى سمعت باب غرفتها يُغلق، وخطوات والدها تبتعد في الممر!

بكت طويلاً بعد تلك الليلة، كانت تستعذب مشاعر العاشقة المعذبة، وسيطر عليها شعور بأنّها ضحية الظلم الذي يمارسه والدها عليها، لكنّها لم تحاول التّمرد على مشاعر القهر تلك، و لم تّتخذ خطوة إيجابية تجاه الصّبي، الذي بات يحاصرها بنظراته أينما ذهبت، ويلحق بها لحمايتها من المعاكسات، وينظف لها المقعد في الحافلة قبل أن تجلس عليه، ويحلف ألا يأخذ أجرة الطّريق منها. في البداية كانت تستمتع بكونها مظلومة، تستمتع بدموعها حين تشاهد عبد الحليم يكتب الرسالة تلو الرسالة، ويمزقها، وهو يجلس في الشّرفة، ثمّ يغني "حبيبي الغالي" كانت تغني معه بحرقة تصل حدَّ الاختناق. فيما بعد عندما أصبحت طالبة جامعية، صارت تضحك من نفسها، ولكنّها لا تعرف كيف تتخلّص من حصار ذلك الصّبي الذي أصبح شاباً، والذي اكتشفت أنّه أمي لا يعرف القراءة، حين رأته يستعين بأحد الركاب ليسجّل له أسماء ركاب الحافلة على ورقة يقدّمها لنقاط التّفتيش المنتشرة حول المدن!

صدمها ذلك الأمر، وتذكّرت أمر الورقة الّتي أسقطتها خوفاً، وتذكّرت كيف ركض والتقطها "ماذا فعل بها؟" اكتشفت في ذلك الحين كم كانت حمقاء، وكم هي مضحكة تلك العلاقة الّتي قامت في الخيال، من دون أن يجرؤ أحدهما على التّصريح بكلمة للآخر! بحثت في ذلك الوقت عن السّبب الذي جعلها تتعلّق بذلك الصّبي البائس، فلم تجد في قلبها سوى مشاعر الشّفقة الّتي تخيلتها حبّاً، وأقنعت نفسها أنّ الولد كان وسيماً، له عينان خضراوان مثل عيني محمود عبد العزيز

الـــسّاهمتين، وهو يجلس تحت نافذة حبيبته في "شجرة اللبلاب"[1]، يهز الغـــصن مراراً وهو لا يعرف أنّها ماتت! كثيراً ما تخيلته تحت النّافذة، يزرع شجرة لبلاب، تكبر في ليلة واحدة، وتعرّش على نافذتها، يهزها، فتفتح النّافذة، وتتأمل وجهه المضيء في ليل بلا قمر، وتتنهد!

لكـــنّ الأحلام بقيت أسيرة الفراش والعتمة والخيال، فيما بعد كانت ممتـــنة لخـــوفها وجبنها، فقد عرفت أنّ فيهما خلاصاً من مواقف مرعبة، كانت ستحدث فيما لو امتلكت الجرأة والتّصميم على فعل ما رغبت به.

الغريب أنّي الآن أرى تلك الفتاة منفصلة عني، لا أشعر أنّي أنتمي إليها، هل يعقل أنّي كنت كذلك يوماً ما؟ على الرغم من بعد المسافة الـــزمنية الّتي تفصلني عن تلك المرحلة من العمر، إلاّ أنّي أذكر بوضوح تلـــك التّفاصيل الصّغيرة لأحاسيس تلك المراهقة، كأنّي أراها أمامي، خارج الجسد والرّوح، خارج النّفس، وقد أحضرتها الذّاكرة من مكان مـــا، وألصقتها بـــي. أو كأنّي أخرجتها من دفتي رواية قرأتها في زمن ما. كثيراً ما أشعر أنّ بعض الأحداث الّتي عشتها لا تصلح لأن تكون جـــزءاً من حياتي، إذ أراها مختلفة عن تكويني النّفسي، وحين أحاكمها بالمـــنطق، أجد أنّها تثبت معاناتي من انفصام حاد في شخصيتي، يربكني حـــدّ التّفكير باللجوء إلى طبيب نفسي، ثمّ - وبعد مدّة قصيرة جداً قد لا تـــتجاوز الـــسّاعة - أنسى كلّ ما فكّرت به، وأتابع حياتي بشكل طبيعي، وكأنّ شيئاً لم يعكر تفكيري ومزاجي، ويبلبل نفسي.!

لم أنتـــبه في غمرة انشغالي بأفكاري إلى عينيه تحدّقان بذهول فيّ! هل كان يراني بوضوح؟ لم تكن الغرفة مضاءة، وأنا لا أقف في مرمى نظراته، لكـــن مـــن الواضـــح أنّه عرفني!. نهض - إن صح تسمية حركته تلك

(1) مسلـــسل عـــرض في السبعينات، بطولة محمود عبد العزيز، وسهام منصور، وهو مأخوذ عن رواية للكاتب محمد عبد الحليم عبد الله تحمل الاسم نفسه.

نهوضـــاً – مـــن مكانه، بعد أن ربط الدّراجتين إلى كفيه، وقطع الشّارع صـــوب بيتـــنا. اتكأ بكفيه على الحائط، وقال بصوت مسموع: "يا إله السّماء، وحدك قادر على إحياء الموتى، وأنا مؤمن أنّها عادت إلى الحياة".

فهمت في تلك اللحظة أنّه يعتقد أنّي ميتة، وأنّه يرى شبحي يفتح الـــنّافذة، وقـــد حاول السّيطرة على رعبه بمواجهته، فتقدّم نحو النّافذة ليثبت لنفسه أنّ ما يراه مجرد كابوس، أو حلم يقظة لا أكثر!

تجمّدتُ في مكاني، وشعرت بلسعة برد كوت عظامي، وأرعشت جسدي على الرغم من الجوّ الحار لهذه الأمسية الصّيفية.

بـــذلت جهداً مضاعفاً لأبتعد عن النّافذة بهدوء، وأمدّد جسدي على السّرير. خدرٌ خفيف تسلّل إلى ساقيّ، ورأسي غدا أكثر ثقلاً من طاقتي على احتماله. لم أجد كأس ماء قرب سريري تعينني على ابتلاع الغـــصة الّتي وقفت في حلقي إثر المشهد الذي لم يبرح عينيّ، حاولت الهـــرب منه بإغماض جفنيّ فالتصق بهما! تقلّبت في سريري وأنا أئن، حينها سمعت طرقاً خفيفاً على الباب، أطلّت أم فاتح، وهي تقول:

– بدّك شي؟

قلت بحشرجة:

– كأس ماء.

أحـــضرته أم فاتح بسرعة، وساعدتني على الجلوس، وهي تحوقل وتبسمل. قلت – ربّما – لأقطع الطّريق على كوابيسي:

– هل تعرفين الرجل الكسيح؟ رأيته من النّافذة، فشعرت بالرعب.

ابتسمت أم فاتح، من دون أن تنهض لتراه، وقالت:

– الله يشفيه.

وأشارت إلى رأسها بما معناه أنّه مجنون! قلت مصطنعة الجهل:

– ولد معاقاً؟

قالت بحسرة:

– لا والله، كـــان شب مثل الفلة، بس يا حسرتي عليه، قلبت فيه السّيارة، وقطعت له رجليه، وطقت أمّه من القهر، يا حرام، ما طوّلت بعد الحادث، ماتت من الحسرة. وهو مثل ما شفتيه، طول الليل بيدور في الـــشّوارع، يا لطيف، فيه ناس عم تقول إنّه مخاوي جنية، وأنّه كل يـــوم بـــيطلع بالليل ليشوفها، وناس بيقولوا إنّه درويش بيتحننوا عليه، وهو ما بياخد كتير، حق باكيت الدّخان، ورغيف خبز.

الدّنـــيا لا تعطي لأمثاله الكثير، هذا ما ختمت به أم فاتح حديثها عـــنه، وهـــو مـــا بتُّ مقتنعة به تماماً، على الرغم من أحلامي الماضية بمجتمع تتلاشى فيه الفوارق الطبقية، ويحبُّ النّاس بعضهم بعضاً بغض النّظـــر عـــن أصلهم وفصلهم وما يملكون! لكنّ أحلام المراهقة الّتي لا تخـــضع لمـــنطق الحـــياة، نُسفت من جذورها، حين تخليت عن قراءة الروايات الرومانسية، واختلطت بالنّاس، وتنوعت الكتب الّتي أقرؤها. هل أقول: "حين تركني شمس"؟

أخذ جسدي يرتعش بشدّة، مددت يدي إلى حقيبتي، وأخرجت صفيحة الحبوب المهدئة، لم أتردد في تناول كمية أكبر من المعتاد، كنت قد وصلت إلى حالة مزرية من الهياج والصّحو، وصرت أستعطف النّوم ليريحني مما أنا فيه بلا جدوى.

ما أذكره أنّ لهذه الحبوب مفعول السّحر على أعصابـــي حين كنت في السّويد، ما إن أبتلعها حتى يسترخي جسدي، وأغط في نوم عميق.

مـــا حـــدث معي بعد جرعة مركزة، أنّ جفوني الثقيلة ورأسي المتصدع، شكّلا عبئاً على ذهني، فلم أستطع أن أغفو مباشرة.

لا أدري كم كانت السّاعة حين شعرت بجسدي يرتعش، وقلبـــي يخفـــق بـــشدّة، حاولت أن أضبط حركته اللاإرادية بجلوسي في الفراش،

وتنفسي بعمق. اعتقدت للحظات أنّ الإرهاق هو السّبب، لكنّ قلبي لم يهدأ، وصدمني الصّحو برائحة كابوس، خرجت منه مبتلة بالعرق والارتعاش. ركّزت ذهني طويلاً كي ألتقط تلك المشاهد الّتي مرّت في الحلم، سيطرت على مخيلتي صورة واحدة، شمس يخرج من العتمة الشّديدة للزقاق، يزحف نحوي على دراجتين، يتكئ على عمود النّور، ويشعل سيجارة! حين يرفع وجهه صوب نافذتي، أرى جمجمة رمادية اللون، ينهال عليها الضوء من عمود النّور، وتضيء السّماء آلاف الشّهب المتساقطة، وأسمع صوتاً مرعباً لانفجار قريب، تتناثر الجمجمة أجزاءً صغيرة، وتحطُّ أمامي على النّافذة، حين أحاول لمسها، تتحوّل في لحظة إلى رماد تذروه ريح عنيفة، تصفق النّافذة في وجهي، فأقع مغشياً عليّ!

لا زلت أرى جسدي هناك، مرمياً قرب النّافذة، ينتفض من الحمى، ومنديلٌ مبلل بالماء يقطر فوق جبيني. لم أتبين اليد الّتي تحمله، لكنّ إحساسي قال، إنّها أمّي.

هل استعدت كوابيسي بعودتي للمكان؟ أذكر البداية من طفولتي البعيدة. كان الليل هادئاً، وحارتنا تبدو كقرية صغيرة، لا يجرح هدوءها ليلاً صراخٌ أو شجار، تتدفأ الروح بنور قمرها ونجومها، ويبدو ذلك الانسجام بين السّماء والشوارع الفسيحة، والفضاء الشاسع والفوانيس الّتي تضيء برقة جوانب الزقاق، والشارع الرئيسي.

ليلتها كان التلفزيون يبث فيلم "لحن الوفاء" لعبد الحليم وشادية، سمعنا صوت الرصاص، ودفعنا الفضول إلى الشارع على الرغم من تحذيرات فريدة خانم، كانت المرّة الأولى الّتي أرى فيها الشارع في مثل هذه السّاعة من الليل.

رأيت رجالاً يركضون صوب البحر، ونساءً يهرعن إلى بيوتهن، يسحبن أولادهن، ويغلقن الأبواب. سمعت كلمات لا زالت في ذهني

"إنّهـــا مشاجرة سكارى!". لكنّنا لم ننم تلك الليلة، في الواحدة اهتز البـــيت بعـــنف، وتـــداعت الجدران أمام عيني، ولمحت الأواني الخزفية القديمة، أواني جدتي أم مصطفى، تتهاوى من رفوف الصالة، وتتحطّم! ركضنا فزعين إلى حضن أمّي الّتي كانت واقفة وسط الصّالة ذاهلة عمّا حولها، وأبـــي يحاول تهدئتها، وقد التصق به أحمد وأيمن. لم أعرف ما حـــدث بالضبط، كلّ ما فهمته ليلتها، أنّ طائرة إسرائيلية قد اخترقت جدار الصّوت، ولكنّي بقيت أذكر تلك الليلة سنوات طويلة، لاحقتني في أحلامـــي، وتـــشكّلت كوابيس مرعبة، ولم تبرح الذاكرة أبداً ليلة الخامس من حزيران، ارتبطت بفقدي لعبة "الجبس" الغالية الثمن، الّتي أحـــضرها جدي علي باشا لفريدة خانم من بيروت، وتنازلت لي عنها، وأوصـــتني أن أكـــون حذرة في معاملتها كي لا تتحطم! ليلتها توفيت جارتـــنا أم بـــشير الـــريحاوية من الرعب، كانت عند أختها في حارة الـــشحادين، وفي المساء أصرّت على العودة إلى بيتها، مع أنّها كانت تخشى البقاء وحيدة بعد وفاة زوجها، لم تستطع أن تصل إلى الشارع، وقعت عند باب البيت، في الوقت الذي تجمع فيه بعض الجيران خارج بيوتهم لمعرفة ما يجري!

لم ينتظـــر أبـــي حتّى الفجر، أحضر لنا سيارة أقلّتنا تحت جنح الظـــلام إلى أريحـــا، وقبل شروق الشمس، كنّا في السّرايا، ورفض أن نعود إلى اللاذقية لقضاء بقية الصيف بعد انتهاء الحرب. ما أذكره جيداً أنّ أبـــــي حيـــنها كان يغيب في حلب أياماً متواصلة، وعند عودته، يعتزل في مكتبه حتّى الفجر!

كعـــادتي، دخلت الحمّام آملة غسل آثار الكابوس عن جسدي، واستعادة هدوئي النسبـــي، تناولت بعدها حبة "ديكوستان" وجرعت الكثير من الماء، لأطفئ لهباً أكل أحشائي، وكاد يندفع من حنجرتي.

خرجت إلى الشّرفة، فرأيت قهوتي جاهزة!

رشفت قليلاً منها، وتنفست نسيم الصّباح بعمق، بدا لي أنّ الطقس يميل إلى البرودة والجفاف، وهذا ليس من طبيعة المكان في هذا الوقت من السّنة. ناديت أم فاتح، ووجدتني أسألها من دون تفكير مسبق:

- كيف حاله؟

ابتسمت بعذوبة، وقالت:

- الحمد لله، بخير. الظاهر أنّك ما نمتِ منيح. سمعت صوتك في الليل، فكّرت بدك شي، رحت على غرفتك لقيتك نايمة كب، خفت عليك، نَفَسك كان سريع، حاكيتك، ما رديتِ، قمت تركتك، ورحت. أبوك طول الليل عم يحكي لي عنك، شايفته اليوم أحسن الحمد لله.

لم أتابع ثرثرة أم فاتح، فقد شغلني أمر محدد في حديثها "كان أبي طيلة الليل يتحدّث عني!" هل خرّفت أم فاتح أيضاً؟ قلت باستغراب:

- هل تحسَّنت حالته إلى درجة تُمَكِّنه من الحديث؟

توقفت عن الكلام، وتدلّى فكُّها قليلاً، وهي تحدّق فيّ، ثمّ احمرّ وجهها فجأة، وقالت بارتباك:

- أنا قلت إنّه حكى؟ قصدي قول... ما بعرف كيف أشرح لك، هو في الحقيقة ما نطق، بس كان عم يحكي لي بالإشارة، أنا بفهم عليه، بيقول نسمة، وبعدين بيحرّك يديه.

قلت بلا تفكير:

- ولماذا لا ينام طيلة الليل يا أم فاتح؟ أليس المفروض أن يرتاح؟

صمتت أم فاتح، وتشاغلت عن الردّ بسؤالي إن كنت أرغب بأن تطبخ لي شيئاً محدداً، لم أجب، بل أعدت سؤالي بحدّة، قالت:

- والله مـــا بعـــرف، بدّك الصدق؟ تخمين قال لي عقلي أنه ما بـــيحب يبقـــى وحده في الغرفة بعد وفاة المرحومة، ويمكن خوف من الموت، ما عم قول إنه بيخاف لا سمح الله، كلّنا بدّنا نموت، كيف بدّي أشرح لك؟

أومأت لأم فاتح بيدي لتتوقف:

- لا داعي للشرح، فهمت.

صـــدمتني كلمات أم فاتح، فهي على بساطتها عميقة المعنى، هل يخـــاف أبـــي حقّاً من البقاء وحده؟ ربّما يخشى مواجهة الموت وهو بمفـــرده في غرفة يسكنها أشباح الماضي المؤلم، بتفاصيله المرعبة، لكن أليـــست أم فاتح جزءاً من ذلك الماضي؟ كيف يحتمل أبـــي وجودها معـــه في غرفته ليلاً؟ ألم تكن أول حبّة في سبحة الضحايا؟ لكنّي لمست بوضـــوح أنّ أم فاتح لا تعتبر نفسها ضحية، بل بالعكس فهي تؤمن أنّ الـــزواج قـــبل أيّ شيء آخر قسمة ونصيب، وهي أخذت نصيبها من الدّنيا ولا اعتراض لها على ما جرى، ما دام مُسطَّراً في لوح القدر، أما ما كان من أبـــي تجاهها فهي تعتبره حدثاً قدرياً، فهي ترى أنّه تعرّض لقـــوة أكبر منه، وجّهت حياته بعيداً عنها! أحياناً أحسد أم فاتح على استـــسلامها الكامل للقدر والمشيئة العليا الّتي تختصرها بقولها "المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين".

هـــذه المقولة تضحكني على الرغم من محاولاتي في بعض الأحيان معـــرفة ما كتب على جبيني، بقراءة تلك الخطوط وتفسيرها كما تفعل العرّافات!

لا حاجـــة الآن لقراءة الخطوط على جبيني، فقد عرفت منذ زمن بعـــيد أنّ المقدمات تدل على النتائج، وأنّ كلّ شيء عشته وسأعيشه مـــرتبط بخيط خفي بلحظة التحوّل المرّة لقصتي مع شمس. أمّا خطوط

حـــياة الآخرين في قصتي، فقد حبكتها يد خبيرة، لا علاقة لها بالقدر، ولا بمـــا كـــتب علـــى الجبين، في ملفات عديدة، سطّر أبـــي مصائر الكثيرين، وكشف ما خفي من العلاقات السّرية بين تلك الشّخصيات الّتي مرَّت في حياتي، ولم أشعر يوماً أنّها تعرف بعضها.

ملـــف زهرة أغراني ليلة البارحة أن أبدأ الحكاية من حيث بدأها أبـــــي، لكنَّ ملف المثنى أزاح ما عداه إلى الهامش، وفكّرت أن أترك الملفـــات تـــتكلّم بعـــشوائية عن نفسها، بعد أن أنهي قراءتها، لكنّي تراجعت، إذ لا رابط منطقي بينها، هي حكايات متفرقة، لم تكتب في زمـــن واحـــد، وبدا لي وكأنّ والدي نقل بعضها من مذكرات قديمة كتبت على ورق، ثمّ أضاف إليها فيما بعد ما حدث، لم يكن اختياره للشخـــصيات اعتباطـــياً، بـــل اختار أقربها إلى نفسه، وأشدّها ارتباطاً بعائلـــته، بـــدأ بدايـــة غامضة، تحدّث فيها عن زمن الإقطاع والظلم الاجتماعي الواقع على الفلاح، ثم انتقل فجأة إلى الحديث عن الوحدة وآثارها السّلبية، ثمّ تحدّث عن الحرب، وعن أناس من بلدتنا القديمة لم أعرف معظمهم إلاّ أنّي حاولت الربط بين تلك الشّخصيات وما تبقى في ذاكرتي من رائحة المكان وتفاصيل الأزقة، ووجوه النّاس.

قـــررت في الـــنّهاية أن أرتّب تلك الملفات في ملف واحد، وأن أعـــبث بمـــا تـــركه أبـــي من مذكرات تخصه فأعيد صياغتها بشكلٍ أستوعب معه المقدمات والنتائج!

* * *

سفر الملوك

(1)

تطـــلُّ ســـرايا علي أسعد باشا على الشّارع الرئيس الوحيد في البلدة، بابها المصنوع من الخشب المكسو بالتوتياء، تزيّنه مسامير كبيرة، صُـــفّت بيد فنان، صَنع منها أشكالاً جميلة حول حلقة نحاسية، تحمل يداً، تمسك كرة، تبدو في لمعانها الشّديد كثمرة تفاح حقيقية!

يومـــياً وفي موعد معين، يطرق عبد الحي الصيّاد الباب الكبير في ســـاعة محـــددة، فتفـــتح لـــه خادمة سوداء، يستعيذ بالله حين يراها، ويبـــسمل، ويحوقل، قبل أن يمدَّ رجله، ليدخل إلى الدّهليز، ساحباً ابنه ماهـــر، الـــذي تخطّـــى الثّالثة عشرة من عمره، وأهمى مرحلة الدّراسة الابتدائـــية. يتركه هناك موصياً إياه بالتزام الأدب والهدوء، ويتابع سيره إلى الحديقـــة الّـــتي تتوسط الدّار الكبيرة، يقطع المسافة في لحظات إلى الغرفة الواقعة في الوسط. يتنحنح، ويطرق الباب طرقات خفيفة، يخلع حذاءه في العتبة، ويختفي في الدّاخل. يبقى ماهر واقفاً، يراقب خطوات والـــده وقامـــته الضّخمة، وهو ينحني قليلاً، ويغلق باب الغرفة وراءه، فيـــسود السّكون. حينها يجلس على مقعد خشبـــي مهمل بلا مسند، وكأنّه وضع في الدّهليز خصيصاً له!

يجلس وحيداً في العتمة، الّتي يعتاد عليها تدريجياً، يؤرجح ساقيه، وهـــو يتطلّع إلى موقع قدميه، ويسند كفيه على المقعد، فيشعر باهتزاز، تـــئن له مفاصل المقعد المتعبة، فيذكّره الصّوت بأراجيح العيد الخشبية، الّـــتي تصدر صوتاً مشابهاً، يغمض عينيه على الحلم الجميل، ويشعر أنّه

يطـــير في فـــسحة كبيرة، وترتفع الأرجوحة تدريجياً لتعلو فوق رؤوس الأشجار، والنّاس في الأسفل يصبحون نقطاً سوداء بلا ملامح، ويلتحم بالزرقة، يتنفس بعمق، ويزهو بملابس جديدة، وهو يقبض على الفرنك بكلّ قوته، يفتح كفّه قليلاً ليرى لمعانه الشّديد، ثمّ يغلقها خوفاً وحذراً. حـــين ينـــبّهه صوتٌ ما صادر عن فسحة السّرايا الكبيرة، يفتح عينيه، ويـــتطلّع حـــوله بقلـــق، يتسلّى بعدّ المسامير المدقوقة في المقعد، ينتزع أحـــدها، ويحفر أشكالاً في جسد الخشب، ويشعر بالرضا. لكنّ الملل ســـرعان ما ينتزعه من مكانه، فيتسلّل بخفة إلى نهاية الدّهليز، ويتلصص علـــى الطّيور، وأشجار الليمون المثقلة بحبّات فاتنة، وأشجار أخرى لم يكن يعرف عن فاكهتها شيئاً! لكنّ ألوانها الجميلة، تجعله يتخيّل الطّعم اللذيـــذ، حتّى يشعر أنّ ريقه يسيل. في هذا اليوم الاستثنائي من شهر أيـــار لعـــام 1948 رأى ماهر أثناء تلصصه فتاة شابة جميلة، تقف في الـــشّرفة العلوية تحاول قطف بعض الثّمار من شجرة لا يعرف اسمها، وقعـــت الـــثّمار منها إلى الحديقة، تلفتت حولها، وفجأة رأته في وقفته الذّاهلة تلك، نادته:

– أنت، يا ولد، تعال.

سمّره التّردد والخوف مكانه، لم تبرح كلمات والده أذنيه، ردد في نفسه "خليك مؤدب، ما تطالع ضجة، ما تتحرّك لحتّى أرجع لعندك". بقي في مكانه لا يتحرّك ولا يرد، قالت بغضب:

– أنت، أنت أطرش؟ تعال، ناولني "الأنكي دنيا".

ما هذا الاسم الغريب؟ ارتعش قلبه، وهز رأسه دلالة عدم الفهم. ضحكت بصوت عال، وأشارت إلى الثّمرات الصّفراء الّتي وقعت على الأرض. تقـــدّم متـــرددا، انشغل بسحر المكان، وكثرة الطّيور، كانت حديقـــة الـــدّار الفـــسيحة المبلطة بشكل فني تتجاوز المائتي متر مربع،

تتوسطها بحرة كبيرة وقفت على حافتها العصافير تشرب من مائها، سمع صوتها تحثه على الحركة، حين اقترب ليحمل الحبّات، رأى الخادمة السّوداء تسرع هابطة الدّرج الحلزوني؛ وتتقدّم نحوه، وهي تبرطم بكلمات غريبة. انتزعت منه الثّمار، وأشارت إلى الدّهليز. تراجع خائفاً، شعر أنّه ارتكب ذنباً كبيراً بمخالفته أوامر والده. جلس على مقعده حزيناً، محاولاً فهم ما حدث، لكنّه لم يستطع أن يعرف أكثر من شعوره بالذنب، وخاف حين رأى والده قادماً أن يخبره بما جرى.

انحرفا تجاه الشّمال، ونزلا في زقاق واسع، انحرفا بعد مسافة قصيرة شرقاً، حيث زقاق "قسّوم" كعادته مشى جهة الجدار العالي الخالي من الأبواب، وتأمل الحشائش الربيعية الّتي تنبت في شقوق الحجارة الملساء الرطبة، وهي تترك على يده ألواناً غريبة، يمتزج فيها الأخضر العشبي بالأسود الرمادي، بالبني التّرابي، يتأمل يده وتلك اللوحة المرسومة عليها من دون أن يضطر لاستخدام قلمه. لا يلبث أن ينتبه إلى صوت أبيه يحثه على الإسراع، فيمسح كفّه بثوبه الطويل، ويسرع الخطا.

هذه المرّة لم يتوقف قرب الباب الحديدي الصّغير المختفي خلف بروز في الجدار، ولا انشغل ذهنه - كالعادة - بما يختفي وراءه، فقد شدّته رائحة "البصل المقلي" الّتي ملأت الزقاق، عرف أنّ الرّائحة من بيتهم، فركض حتّى تجاوز أباه، ودلف من باب الدّار متعثراً بقنبازه. لم ير أحداً في الفسحة الصّغيرة المؤدية إلى غرفتين، إحداهما للنوم، والثّانية للمعيشة، كانت أمّه تسكب "المجدرة[1]" في طبق نحاسي كبير. نادته ليحمل البصل الأخضر والملاعق، وإبريق اللبن الرائب. كاد يقع وهو يتجاوز العتبة، ويضع الخبز والملاعق في طبق القش الكبير الذي مدّته خديجة وسط الغرفة. نظرت إلى وجهه موبخة:

(1) أكلة شعبية، تصنع من البرغل والعدس، ويقلى بصل بزيت الزيتون ويوضع فوقها.

- قاعد على الأكل ووجهك وسخ؟ وين كنت عم تلعب؟

ضحك والده، وأمره بغسل يديه القذرتين ووجهه قبل الجلوس إلى الطّعام.

في هـذه اللـيلة جفـاه النوم تناهبته أفكارٌ شتى، رغب في تلك الفاكهة الغريبة، اشتاق إلى تأمل الطّيور الملونة في الأقفاص، والعصافير علـى حافة البركة تشرب بمناقيرها الفضية، وهي تنفض ريشها، وتطير في سمـاء زرقـاء. لم تجذبه الأراجيح الخشبية الملونة، ولا صوت غناء الأطفال في العيد، بل دلف ذلك المكان الغريب حيث "الضبع والضبعة" سمـع صوتهما وهما ينفّذان حركات مضحكة كما يأمرهما صاحبهما، وسـط زحام الأطفال في المكان المعتم الضيق، تسلّل إلى باب خفي لم يـره أحد غيره، فوجد نفسه في حديقة كبيرة لسرايا واسعة تبدو خالية مـن السّكان، خيّم الصّمت على المكان، كانت العصافير وحدها تنقر حبّات التّوت الأصفر الشّهي، وتنفض ريشها، وتطير. وسط المكان علا بـرج رمـادي لم يعرف كيف بني في تلك البقعة، دار حوله، فوجد جدرانـه ملساء رمادية، لا باب لها، تعلوها طحالب خضراء زلقة، نقر بكفّه الجدران مراراً، علّه يجد منفذاً، بلا جدوى. راح يتجوّل في المكان يستكـشف القاعات الواسعة المفتوحة، ويهز الأشجار العالية لتسقط ثمارها. جمع في حرجه كمية كبيرة من الفاكهة، وغمره الفرح، فكّر أنّ أمّـه أيضاً سوف تفرح حين تأكل من هذه الفاكهة، لكنّه فجأة، رمى كـلَّ مـا جمعه، حين لمح تلك الشّجرة الغريبة ذات الثّمار الصّفراء، ركـض إليها، تسلّق الأغصان بسرعة، تأرجح قليلاً، وقرّب إليه غصناً مليـئاً بالحبّات، وقبل أن يتذوق طعم حبّة كبيرة، مسحها بكمه ليزيل الـزغب الأبـيض، سمع صوتاً مألوفاً يناديه برجاء: "أنت، أيها الولد الطـيب، أنقـذني". نظر حوله مذعوراً، لم يرَ أحداً، مدّ يده ليقطف

حبّات أخرى، وقلبه يرتجف، استعطفه الصّوت ثانية "ألن تنقذني؟ أيها الولد الطّيب، سأملأ حجرك بالفاكهة والذهب، تعال، سأموت هنا". تطلّع حوله، كان الصوت آتياً من البرج، لمح في قمته نافذة صغيرة، مدّت منها فتاة جميلة يداً عاجية، أومأت له"أنا هنا، تعال". لم ينطق، شعر أنّ كلَّ شيءٍ تجمَّد فيه. إنّها ست الحسن، ابنة علي باشا! ما الذي أتى بها إلى هنا؟ مَنْ سجنها في هذا البرج؟ قفز من الشّجرة، ودار حول البرج، وكما في الحكاية الّتي كانت تحكيها له جدته، مدّت ست الحسن ضفيرتها الطّويلة ليتسلّق عليها إلى نافذة البرج. حين وصل، وكلّه يرتعش، وجد النّافذة محاطة بالحديد! خلع حديد النّافذة، ورماه، ودخل الغرفة. ضحكت ست الحسن، وقالت: "الآن أصبحت سجيناً معي، لم أعد وحدي". حينها سمع ضحكة علي باشا المجلجلة، ورآه على شكل مارد شرير، يغلق النّافذة بطبقات من الحديد، حتّى أظلم المكان! شعر بشيء حاد يخترق رقبته، ويشل يديه، يداه كانتا مشدودتين إلى قيد من الحديد، حاول التملّص منه، ولم يفلح، بكى بشدّة، ونادى أباه. حينها سمع صوت والده يوقظه، وهو يبسمل، ويتعوّذ بالله من الشّيطان الرّجيم. مسّد له يديه، ومسح على رأسه، وسقاه كأس ماء. وسأله:

- أشو[1] شفت في المنام؟

لم يجب، كان كلُّ شيءٍ مشوّشاً أمام عينيه، لكنّه سأل والده:

- ليش عم تاخدني معك على السّرايا؟ علي باشا ما بيطيقني.

فوجئ برد والده، فقد توقع أن يصفعه، أو يصمت محتقراً سؤاله. قال بهدوء:

---

(1) أشو: أيّ شيء، تستخدم في العامية بمعنى، ماذا.

- بـــدّي يشوفك قدّامه دايماً، وما يفكّر بعد ما أكبر، أو أمرض، أو موت، يستعين "بمستشار" غريب، لازم يعرف أنّه عندي ولد صبور وفهمان!

كاد يطير فرحاً بالعبارتين، فهي المرّة الأولى الّتي يسمع فيها كلاماً طيـــباً من والده، الذي اعتاد توبيخه وتعنيفه إثر كلّ تصرف يقوم به، حتّى إنّه لم يعد يعرف متى يكون مخطئاً، ومتى يكون على صواب!

فهم الآن لماذا أصرّ والده على تعليمه منذ كان صغيراً عند الشّيخ، ولماذا نقله بعد ذلك إلى المدرسة. فهو لا يريده أن يرتبط بالأرض، ولا يـــريده مرابعاً عند الباشا، بل "مستشاراً" كما يحلو له أن يسمي نفسه، لكنّه لم يفهم لماذا يصر والده على تسمية نفسه هكذا، فهو يعمل عند الباشـــا، يراعي مصالحه كلّها، الأرض والرعيان والمواشي، وكلّ شيء، فما الذي يجعله مستشاراً؟. نسي السّؤال بسرعة حين ناداه رفاقه ليلعب معهـــم في الزقاق. وقف بالباب، وتردد في اللعب، شعر أنّه كبر كثيراً، لم تعـــد ألعاب الصّبيان تستهويه، هذه السّنة سيسافر إلى حلب ليدرس في الكلتاوية، وسيكون أمراً معيباً أن يلعب شيخ المستقبل في الزقاق مع الـــصّبيان، والـــده أيـــضاً يريده أن يصبح مستشاراً لعلي باشا، وهذا المنـــصب يفرض عليه أن يمتنع عن اللعب، ويلزم الدّار، ليقرأ في الكتب القديمة والسّير، علّه يجد فيها مفاتيح الفهم والقوة الّتي تلزمه، كي يصبح مثل والده، ويرضى عنه علي باشا.!

لم ينتبه مباشرة إلى زهرة الّتي وقفت أمامه على استحياء، وقالت:

- وين كنت مختفي؟ سألت عنك كثير، ما بدّك تلعب معنا؟

بقي جامداً في مكانه، نظر إليها، وكأنّه يراها من بعيد، لم يتحرّك الـــدّم في قلـــبه، ولم يـــشعر برغبة حتّى في الرد عليها. هل يخبرها أنّه سيصبح مستشاراً؟ لا، زهرة صغيرة، لن تفهم ذلك الآن، شعر بالتّفوق

علـــيها، إنّه يعرف أسراراً لا تعرفها، لم تعد معارفها تثير اهتمامه، فهي لا تعـــرف حلب، و لم تدخل المدرسة، و لم تتعلّم القراءة والكتابة مثله. وهو سيرتدي الجلباب الطويل، ويضع العمامة، وسيكون من المعيب أن يكلّم البنات. صوتٌ في داخله، قال له: "لكنّها زهرة". ردَّ بحدّة: وإن. قالت زهرة:

- مع مين عم تحكي؟

انتبه إلى نفسه، عدّل وقفته، وقال:

- كنت عم فكّر بالمستقبل.

احمرّ وجه زهرة، وقد ظنّت أنّه يقصدها. وفرّت بسرعة قبل أن يفتح فمه ليشرح لها شيئاً مما يفكّر به. دخل إلى البيت، نبش الكتب القديمة من الصّندوق الخشبـــي، حيث يحتفظ بها والده، سيرة بني هلال، سيرة عنترة، الأميرة ذات الهمة، وجزء من كتاب ألف ليلة وليلة. بحث بين تلك الكتب عـــن شيء مختلف، فلم يجد. على الرغم من اقتناعه التّام بأنّه أصبح متفوقاً بـــين يوم وليلة على أصحابه وعلى زهرة، إلاّ أنّ شيئاً من الارتباك لازمه، فهـــو لم يجد شيئاً مختلفاً يستطيع أن يحدّث فيه رفاقه في الزقاق، لا يتصل بمعـــارفهم عن الحكايات الشّعبية، والجنية الّتي تسكن خلف السّور العالي للجدار الجنوبـــي في الزقاق الفقير الذي يسكنه.

كـــان والصّبية في الزقاق، يلعبون كلّ يوم حتّى مغيب الشّمس، وكـــثيراً ما تساءلوا عن سر ذلك الباب الحديدي المغلق، فتآمروا على قـــرعه، والـــركض بأسرع ما يمكن إلى نهاية الزقاق، حيث يختبئون، ويستردّون أنفاسهم، ثم يمدون رؤوسهم على مهل، فيواجههم الصّمت المريب! لا أحد يفتح الباب، لا صوت وراء السّور العالي!

حتّـــى جاء ديبو - أكبر الأولاد سناً - في أحد الأيام بخبرٍ مخيف، وهـــو أنّ خلـــف الـــسّور العالي الممتد حتّى نهاية الزقاق من النّاحية

الشّرقية، تسكن جنيةٌ مرعبة، تخطف الأولاد الذين يسيرون بمفردهم ليلاً. سأله ماهر والغصّة تبعثر الكلمات في حلقه: "والكبار؟". قال ديبو بثقة: "والكبار". ومن يومها صار يخشى اللعب في الزقاق بعد مغيب الشّمس، ولم يعد يجرؤ على قرع الباب والهرب، على الرغم من تأكيد ديبو، بأنّ الجنية تنام طيلة النّهار، ولا تصحو إلاّ مع حلول الليل، فهي لا ترى في الضّوء!

بعد صلاة العشاء، ارتدى عبد الحي ملابسه استعداداً للخروج. تشبث به قائلاً:

- ألن تأخذني معك؟

ربتّ كتفه، وقال:

- صرت رجّال البيت، خليك مع أمّك، يمكن تحتاج شي في غيابي.

لم يلح على والده، بل شعر بالراحة؟ لأنّه لم يوافق على اصطحابه، رنّ في أذنه صوت علي باشا وهو يقول لوالده في آخر زيارة "ما تنسى يا حيّو، مثل ما فهّمتك، ما بدّي بني آدم يعرف، انتبه ما حدا يشوفك" شغلته هذه العبارة كثيراً، وأثارت فضوله، أراد أن يعرف ما هو الشّيء السّري الذي يجمع بين والده وبين علي باشا؟ وإلى أين يذهب والده في الليل، ولا يعود حتّى الفجر أحيانا؟

خرج حيّو بعد أن أطفأ القنديل، وأمر ابنه بالنّوم في فراشه. لم يستطع ماهر أن يمتثل للأمر، تسلّل خلف والده، ومدّ رأسه يتلصص من باب الدار. تغلّب فضوله على الخوف، انسلّ من فتحة الباب المواربة، وجلس على العتبة الخارجية، يراقب المشهد الغريب. الباب الحديدي مفتوح، صعق وهو يرى بعض الرجال يدخلون وعلى ظهورهم أكياس، خيّل إليه أنّها أكياس قمح، لكنّ رائحة نفّاذة، ملأت

الـــزقاق إثر تحطّم زجاجة كانت بيد أحد الحمّالين، الذي تعثر بحماره، وراح يشتم ويلعن، ورأى والده يصرخ به، ويشتمه أيضاً، وسمع كلمة "أمـــوال نـــاس" تأكد في تلك اللحظة أنّه لا وجود للجنية الّتي يخافها الـــصّبية، وأنّ تلك الأصوات الغريبة الّتي تسمع في الليل، هي أصوات الحمّـــالين، الـــذين يُدخلـــون بضائع غريبة إلى البيت الغريب! شغلته الـــرّائحة، الّتي تشبه رائحة الجلّاب قرب المعصرة، لكنّ شيئاً أهم سحبه بعيداً عنها، لمن هذه الدّار الّتي تبدو بلا بداية ولا نهاية؟ أغلق باب الدّار بهدوء، ودخل مسرعاً، أخرج أحد دفاتره، وراح يخطُّ بالقلم ويتساءل: "إذا كـــان الزقاق يبدأ من بيت حمدو، وينتهي بدار سعدو في الطّرف الـــشّمالي، فالطـــرف الجنوبـــي ليس فيه سوى السّور العالي والباب الغامض، فإذا اتّجهنا ناحية الغرب سنضطر إلى الانحراف جنوباً، أيضاً الجّـــدار تحـــت السّياط ليس فيه أبواب! وينتهي عند الشّارع الرئيس حيث ينحرف شرقاً مع والده، ويقف تحت الزيزفونة الضّخمة، بانتظار أن تفـــتح الخادمة السّوداء باب السّرايا! لقد حلّ اللغز، الباب هو باب السّرايا الخلفي! راح يضحك، ويقفز فرحاً، منحه ذلك الاكتشاف ثقة بنفـــسه، واعتقاداً بأهمية ذلك في التّأثير على صبية الزقاق! سرقه النّوم أخيراً وابتسامة راضية ترتسم على ملامحه.

حـــين عـــاد عبد الحي الصيّاد فجراً من مهمته السّرية، وجد ابنه نائمـــاً مـــن دون غطاء، وقد تكوّر على نفسه محتضناً دفتره! هزّ رأسه مستغرباً، وهو يلفُّ جسد ولده بالغطاء، ويتأمل ملامحه بإعجاب، تمتم بحسرة: "لو يحدث الذي في بالي، لفتحت لك طاقة القدر يا بني". اتّجه إلى طاقة في الجّدار، فتح القفل بحذر، أخرج بعض الأوراق والنّقود من عـــبّه، ووضـــعها في صندوق حديدي، وأغلق الطّاقة بهدوء وحرص، وأعـــاد تـــرتيب الفرش والوسائد أمامها. بعد أن توضأ وصلّى الفجر،

اندسّ في فراشه، وراح يفكّر بحياته الماضية، ويخطط للقادم من أيامه، لم يكن يعنيه الآن ما مرّ به من مصاعب ليصل إلى هدفه، ولم يكن يطمح لتحقيق مكاسب جديدة لنفسه، بل ملك نفسه خاطرٌ راوده كثيراً حتّى أصبح هدفاً بحدّ ذاته. أراد وبقوة أن يرتبط ابنه ماهر بابنة علي باشا على الرغم من معرفته أنّها تكبره بعشر سنوات، وأنّها مخطوبة لابن عم لها يدرس في فرنسا، تنتظر عودته منذ سنوات خمس، وكلّما طالت مدة انتظارها، وكبرت سنة، يكبر حلمه، ويقترب من هدفه، لهذا سعى لتدريس ماهر، وألحقه بالكلتاوية، كي يصبح شيخاً، وبقي لديه همٌ واحد، أن تمضي الأيام بسرعة، وينهي ماهر دراسته، كي يضعه بمظهره اللائق أمام عيني الباشا. ومع إيمانه العميق بأنّ كلّ شيء في علم الغيب، لكنّه لم يتخلّ عن حلمه ومخططاته، ولم يلتمس المشورة أو المساعدة من أحد، أقفل قلبه وذهنه على أفكاره، والتزم الصّمت حيال ما يفكّر به، فقد كان يرى بأم عينه أنّ علي باشا سيقتنع برأيه، والمسألة تحتاج للوقت فقط. أغلق عينيه وهو يتصوّر المستقبل الزاهي لابنه الوحيد بين قبيلة البنات. وحين صحا في الصّباح، كان ماهر ينتظره بلباسه الجديد وحقيبته، ومظاهر السّعادة مرتسمة على ملامحه.

ركبا حافلة "أبو النّوري"، وانطلقت بهما تنهب الطّريق إلى حلب، والأحلام تتسلّل من النّوافذ، لتجد لها مكاناً في الزرقة الشّاسعة للفضاء.

جلس ماهر قرب النّافذة، وعلى الرغم من فرحه بالسّفر والحياة الجديدة الّتي تنتظره، وقفت غصة في حلقه، فقد رأى بعينيه أنّ البلدة تبتعد، وتختفي تدريجياً، ويغيب الجبل والأزقة والرفاق، حاول استحضارهم واحداً واحداً، وتحدّث إليهم في داخله، لكنّ الوجوه كانت مشوّشة، لم يستطع أن يراها جيداً، وحدها زهرة، قفزت من

آخر الزقاق، ووقفت أمامه خجلة، وقالت بتلعثم: "بدّك تغيب كثير؟". حينها فقط وعى حزنه وقلقه، وانتابته كآبة جعلته يرى الحياة الجديدة تعيسة، ستسرق منه زهرة، وحضن أمّه الدّافئ، وطفولته.

فتح عينيه ليراقب الطريق مجدداً، علّه يتخلّص من إحساسه بالضيق والحزن لفراق أحبته، حاول أن يقنع نفسه أنّه سرعان ما سيجد هناك أصدقاء له، يحبُّهم ويحبّونه، ويجد بينهم من يعوّضه عن إلفة الزقاق، وأهله.

وصلت الحافلة حلب قبيل الظّهر، شعر بحرارة الجوّ، وجفاف الهواء، وانخرط في الزّحام الذي لم يعتد عليه في أزقة بلدته وحاراتها.

لم يكن يملك أدنى فكرة عن المدينة الكبيرة، فسار وراء والده مذهولاً، وقد تعلّقت عيناه بجلبابه، وفتح أذنيه جيداً ليلتقط الأصوات، ويميّز كلماته عن الأحياء الّتي يمرّان بها. كلّما اجتازا شارعاً كان والده يردد: "احفظه منيح، بدّك تتعلّم تروح وتجي لحالك". تجاوزا شارع "ورا الجامع"، ووصلا القلعة، دارا حولها، ودخلا من باب الحديد، واتّجها إلى قبو النّجارين، وقبل أن يصلاه، انحرفا يساراً في أحد الأزقة، وصعدا مرتفعاً ترابياً، حتّى وصلا "الكلتاوية"، ودخلا إلى صحن المسجد. كان الشّيخ عمر واقفاً هناك، مادّاً يده، والمشايخ الصّغار يمرّون أمامه، ويقبّلون يده بالدّور! تذكّر الشّيخ يحيى، وكيف كان يفرّ من الصّف الطّويل كي لا يقبّل يده، وكم مرّة لسعته عصا الشّيخ الطّويلة. تقدّم مع المشايخ - حين لكزه والده - قبّل يد الشّيخ عمر، واتّجه مع رفاقه الجدد إلى غرفة الدّرس القبلية.

في تلك اللحظة، شعر أنّه انفصل عن عالمه تماماً، و لم تعد تربطه بتلك الحياة الّتي عاشها قبل الآن أية صلة، حتّى إنّه فشل في استحضار أيّة صورة من ذلك الماضي، وهو يراقب رفاقه بحذر، ويتطلّع إلى الشّيخ

عمـــر بلحيـــته الحمراء ووجهه النّضر المتدفق بالصّحة والنّور، وجلبابه الأبـــيض النّاصـــع وعمته البيضاء. صورة واحدة لم تفارق مخيلته طيلة الدّرس، انحناءه أمام الشّيخ، ويده المكتنـــزة البيضاء المزيّنة بخاتم ضخم في بنـــصرها، تمتدُّ باسترخاء، وهو يقبّلها! هذه المرّة لم يشعر بالنّفور أو الكـــراهية للـــيد الممدودة، ولا لوجه الشّيخ النّوراني، الذي بدأ حديثاً طـــويلاً عـــن حياة المدرسة ونظامها الصّارم، وأهمية الالتزام بالقوانين، والانقطاع التّام للعلم!

بعـــد انقـــضاء أسابيع على التحاقه بالمدّرسة، استطاع أن يحظى بأصدقاء جدد، وجدهم مختلفين عن رفاق الزقاق في بلدته، وأصبحت حـــياته الماضية مجرد صور باهتة لا تعني له شيئاً، وكان إحساسه بأهميته الاجتماعية يكبر كلّما مضى زمن على إقامته في المدرسة، وكلّما حصل على درجة عالية في تحصيله.

حتّى جاء البلدة بعد سنتين في إجازة. تباطأت خطواته حين اجتاز بـــستان حنان، واتّجه جنوباً صوب الجامع الكبير، وعبر الأزقة الضيقة على مهل، وانحرف غرباً في زقاق "شرف الدين". استهواه أن ينظر إلى الـــشرفة الـــضيقة لعلـــية بيت زهرة، ويرقب أصص الحبق، والشب الظريف، والجلنار، وزهور حلق المحبوب والملكة، وزهر الجميل. زهرة كانت تتعمد أن تقف وراء الأصص ترقب الزقاق لتراه قادماً من بعيد فتتـــشاغل بسقاية زهورها، وتتلصص عليه وهو يمضي. لكنّه لم يلمح أحـــداً في انـــتظاره! دارى خيبـــته، وعاد أدراجه شرقاً صوب زقاق "سعدو".

لم يجـــد والده في البيت، وكانت أمّه في حالة قلق واضحة، قالت لـــه بلهفـــة: "أبـــوك طلع أمس لعند علي باشا، وما رجع، ما بعرف السّبب، غلي قلبـــي عليه، روح اسأل عنه الله يرضى عليك"

تـــردد في الذّهاب، لم يكن يجرؤ أن يتخطّى عتبة السّرايا الكبيرة لـــوحده، لكنّه سرعان ما استعاد ثقته بنفسه، فقد اختلف الوضع اليوم عـــن آخر مرّة زار فيها السّرايا وهو في الثّالثة عشرة من عمره، طالت قامـــته، واشـــتدّ عوده، وقريباً سيصبح عالماً تمتزُّ المساجد لصوته، وهو يقـــف فـــيها خطيـــباً يوم الجمعة، وسيقف المشايخ الصّغار بأدب في حـــضرته، يقبّلون يده، وينصتون إليه، وهو يأمرهم بالتزام تعاليم الدّين الحنيف، ويعلّمهم القرآن الكريم وسنة الرسول "ص".

تذكّـــر الطّفـــل النّحـــيل المتّسخ الثّياب، ويد والده تجرّه وراءه، وابتـــسم ساخراً من تلك الأيام، وهو ينحرف شرقاً صوب الزيزفونة. طرق الباب الكبير بثقة، فتحت له الخادمة السّوداء الّتي كان يخافها في طفولـــته، افترّت شفتاها عن ابتسامة بيضاء، وهي تقول بلهجة غريبة: "مـــرحبا شيخي، تفضل". طلبت منه أن ينتظر قليلاً ريثما تخبر الباشا، وركـــضت كالسّهم. نظر شزراً إلى المقعد الخشبـــي، وغصّ بذكرياته المُرّة، راودته رغبة في الجلوس عليه، وأرجحة ساقيه، ابتسم لنفسه وهو يسمع الخادمة تناديه:

- تفضل شيخي.

حين دخل الغرفة، وألقى السّلام، وقف والده مصعوقاً، لكنّ بقية الجالـــسين، رحّبوا به قبل أن يعرفوه، اضّطر والده لشرح الأمر بتقديمه إلى الضّيوف الذين يملؤون الغرفة: "ابني ماهر"، وغصّ ببقية الكلمات، لكنّ علي باشا أنقذ الموقف بقوله: "أهلاً ماهر أفندي، كنّا ننتظر الشّيخ لـــيعقد عقـــاد ابنتنا على ابن عمها مراد باشا، جئت في وقتك، أهلا، أهـــلاً". زال الحـــرج عن والده، واقترب منه، وسأله ما الذي أتى به. شـــرح له أنّه جاء في إجازة، وأرسلته أمّه ليطمئن عليه، لأنّه لم يعد إلى البـــيت مـــنذ البارحة. ضحك والده، وكسا وجهه مسحة ألم، وهو

يقـــول: "قدّر الله وما شاء فعل". فهم أنّ العرس الذي سيقام في تلك اللـــيلة، لم يكن على هوى والده! لكنّه لم يعرف السّبب. اعتذر والده من علي باشا، وخرج معه إلى الحديقة، طلب منه أن يغادر، ويخبر أمّه بأنّه سيعود ليلاً. سار في الزقاق متعثراً بخطواته لانشغال ذهنه، أراد أن يفهم معنى ما يحدث، لاحظ أنّ الباشا ليس على ما يرام، وأنه لم ينهض من كرسيه، لكنّه عادة لا ينهض لاستقبال أحد، إلاّ إذا كان أرفع مقاماً منه. مع هذا شعر بوجود شيء غامض.

فاجـــأه منظرٌ غريب حين انحرف شرقاً، الباب الحديدي مفتوح! ورجـــال يتـــسلّقون السّور العالي، ويضعون فوانيس ملوّنة، يربطونها ببعـــضها بواســـطة أســـلاك رفيعة، وقف مدهوشاً وهو يتابع الحركة السّريعة في الزّقاق، تجمّع الأولاد والبنات حول الرّجال، ومدّت النّسوة رؤوسهن من الأبواب، وتوقف بعض المارة لمشاهدة الزّينة. لا شكّ أنّ المنظر يشبه ذاك الذي في حكايات الجدّات، حيث تتسع المخيلة لتتحوّل الأحلام إلى قصص حدثت في الزمن الماضي. وجد نفسه يسير كما في الحلم، ويقف أمام الباب الحديدي، دفعه فضوله ليمدَّ رأسه من الباب، رأى بـــستاناً واسعاً، تقبع السّرايا خلفه، وتصوّر في لحظات المدخل إلى البـــيت والغرف، والحديقة الدّاخلية، والغرف العليا. كأنّ ذلك مرسوم أمامـــه على ورق! كتم أنفاسه، وزفرها بحرقة، حين تأكد له أنّه رأى المكان من قبل، لكن لا يذكر على وجه التّحديد متى حدث ذلك؟

دخل البيت والضّجيج يسكن أذنيه، ارتمى على فراشه، وتخيّل أنّ تلك الزينة لأجله، وأنّ زهرة تخطر في ثوب الزّفاف كأميرة أسطورية، عـــبرا البوابة الغامضة، تناول يدها في هدأة الليل، وسمع ضربات قلبها قـــريبة، تألقـــت عيناها بنور غريب، أضاءت ما حولها، تناول الثّمار اللذيـــذة من شجرة الأنكي دنيا، وملأ كفّها. صعدا الدّرج الحلزوني،

ودلفـــا الغرفة الأخيرة. التفت إليها، وخرست الكلمات - الّتي أعدّها ســـلفاً - على شفتيه، اكتشف أنه وحده وسط العتمة، صرخ باسمها، رجـــع الصّدى عميقاً خشناً، مشروخاً، لم يكن صوته ذاك العائد من أعمـــاق بئر قديمة، بل امتزج بصوت أسعد باشا، رافقته قهقهة عالية، ذكّـــرته بـــصوت حديد صدئ يرتطم بجدار طيني. ثمّ وسط السّكون المريب، سمع صوتاً دافئاً يناديه، ويقول بعذوبة: "لا تطل المكوث حيث أنت، الدّنيا لن تتوقف أمام حبّ عابر". عندما اغتسل بالصّحو المفاجئ مـــن حلمـــه الغريب، كان على يقين أنّ الصّوت الدّافئ ذاك، صوت "فـــريدة خانم" فقد لاحظ لكنتها التّركية المحببة، ونبراتها الخفيضة. أراد أن يـــضحك، وينسى الحلم، لكنّه فشل في الخلاص من آثاره المربكة، وراح يفكّر - بالرغم عنه - في التّفسير المناسب لما قالته فريدة، ما لبث أن هـــزّ رأســـه بعـــنف طارداً كلّ التّفسيرات المزعجة، قائلاً بصوت مسموع "إنّها أضغاث أحلام". سمع صوت والدته تقول بفرح:

- عقـــبالك يـــا ماهر، لو شفت يا ابني سياق[1] العروس، شي بياخد العقل.

أوجعته الكلمات، فانتفض وهو ينظر إليها باستغراب:

- وأين رأيتِ جهاز العروس؟

قالت باندفاع:

- أبـــوك بعـــتني أنا ونسوان الحارة لنساعد فريدة خانم بترتيب الجهـــاز، تفرّجنا على السّياق اللي جابه مراد باشا، يا سيدي ذوقه غير شكل، جاب لها من فرنسا أشياء غريبة ما عرفناها، ولاّ قل لي لك ابني، وين فرنسا هاي؟

قال بضيق:

(1) ما يساق إلى العروس من هدايا يحضرها العريس أو أهله.

- بعيدة جداً، تقع في أوربا.

قالت مستفسرة:

- يعـــني بعيدة متل مكة؟ قلت لحالي ليش مراد باشا جاب معه أرمغان[1] لنسوان أعمامه غير شكل.

لم يـــرد، لم يـــصحح معلوماتها، اكتفى بإشارة من رأسه. غادر البـــيت، مـــشى طويلاً صوب الجنوب، حتى لفظته الأزقة إلى الدّروب الـــضيّقة للجبل، لم يشعر بالوحشة، فقط عاش إلحاح السّؤال المرّ "لماذا أرسل أبوه أمَّه لتخدم فريدة خانم؟".

تلقفـــت جسده صخرةٌ عالية على قمة الجبل، فتمدد، وحدّق في العتمة اللانهائية حوله. تحوّل السّؤال إلى إخطبوط بأذرع قوية، أحاطت بعـــنقه "إلام يهـــدف والـــده من وراء ذلك؟ أيحتاج مزيداً من الذّل والخضوع والتّبعية؟" لم يستطع أن يجد مبرراً لتصرف والده، فقد أيقن أنّـــه لا يحـــتاج علـــي باشا مادياً، فقد رزقه الله السّتر والبيت والولد والصّحة، ماذا يريد أكثر من ذلك؟ وما الفائدة الّتي سيجنيها من ذهاب زوجته إلى الخانم ابنة الباشا؟ ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يقـــول: "ربّما يريدها أن تبقى هي الأخرى تحت عيني الخانم من أجل الإرث". صـــعقه خاطر مفاجئ "الباشا ليس له وريث غير فريدة، فهل خطط والده للاستيلاء على ذلك الإرث عن طريق التّقرّب منه وخداعه مثلاً؟ أو عن طريق..." أبعد الخاطر الرهيب عن ذهنه بسرعة من لسعه عقرب. الاحتمال الأوّل لا يمكن أن يصدقه، والثّاني بعيد المنال. والآن بعـــد عودة مراد باشا أصبح من سابع المستحيلات. ثمّ إنّ فريدة تكبره بسنوات عشر، فهل يعقل أن يفكّر والده بهذا الأمر؟

---

(1) لفـــظ تركـــي يستخدمه العامة بدلاً من كلمة هدية، لكن الهدية هنا تحديداً من شخص عائد من السفر، الحج غالباً.

غلبه النّعاس، فنهض متهيباً الأصوات النّائحة الّتي أربكه تحديد مصدرها. ذهنه المشوّش، داخله الكئيب، حفيف الرّيح، أصواتُ حيوانات بعيدة، البومة تنعق في الأعلى، ورجع صدى لعواء في الوادي.

دحرج خطواته في درب العين الضيّق، وهرول محاولاً نسيان كلّ شيء بالتّركيز على صوت قدميه وضربات قلبه.

تردد في دخول الزّقاق، حين هاجمته أصواتُ الزّغاريد مصحوبة بصوت امرأة تغني! كانت المرّة الأولى الّتي يستمع فيها لصوت نسائي يغني بهذه العذوبة والارتفاع والحيوية، في العادة تختلط أصوات النّسوة في الأعراس، فلا يكاد المرء يميّز أحدها، لكنّ الصّوت الذي سمعه لمطربة شابة، كاد يمتلك اليقين بأنّه صوت سعاد محمد تغني دور "أنا هويت وانتهيت" اقترب من باب السّرايا، وتأمل الصّبية والبنات، يدخلون، ويخرجون بحريّة. تنهد بحسرة، هذا المهرجان الغريب لا يمتُّ بصلة لعالم الزقاق والحارة، والحي، والبلد بأسره! شيء غريب، كأنّ جند سليمان انتزعوه من القرون الماضية، ووضعوه وسط هذا الحي الفقير التّعس.

أراحه خلو البيت، اتّجه إلى غرفته، وتمدد في الفراش، ورفع الغطاء فوق رأسه.

لم يمض على زواج فريدة سوى بضعة أيام حتّى سمع والده يقول لوالدته همساً:

- مسكينة فريدة مالها حظ.

خبطت أمُّه على صدرها وهي تشهق، وتقول:

- لا، لا تقولها، معقول؟ والله ما بصدق.

لم يعرف السّبب في استنكار أمّه، ودفعه الفضول لسؤالها بعد خروج والده ليلاً عن الأمر، فقالت هامسة:

- بتـــصدق؟ مـــراد باشا ترك فريدة، وسافر، قال عنده أعمال بدو يتابعها في فرنسا، ولّما ألح الباشا عليه ياخدها معه، اعتذر، وقال، ما بيقدر، ورح يرجع بعد شهر. أبوك عم يقول إن مراد كذّاب، وما رح يرجع.

تساءل باهتمام:

- لماذا يقول أبـــي إنّ الرجل كذّاب؟ ماذا رأى منه؟

ردّت أمّه بحيرة:

- بـــدّك الصدق؟ والله ما بعرف، بس أنا واثقة من كلام أبوك، هو بيعرف النّاس من نظرة.

ابتسم في سرّه، وغبط أمّه على ذلك اليقين بقدرة أبيه على معرفة معادن النّاس ودواخلهم. طلب منها أن تعجّل في تحضير أغراضه، أراد أن يغـــادر بأقـــصى ســـرعة، لم يعد يطيق البقاء في البلدة كلّها، قال مستعجلاً:

- سلّمي على أبـــي، وقولي له، إنّي مضطر للسّفر.

لم ينتظـــر ليـــشرح لها السّبب، لم ينتظر لتنهي دعواتها له، رافقه صوتها وهو ينحرف في الزّقاق شمالاً قاصداً ساحة البازار.

حين وصل إلى حلب، لم يجد أحداً من رفاقه في الكلتاوية، كانوا جمـــيعاً في إجازة، وضع أغراضه، وخرج يتسكع في الشّوارع، ويفكّر بالـــسّبب الحقيقـــي الذي جعله يقطع إجازته، ويعود إلى حلب. أهو ضعفه في مواجهة والده بحقيقة مشاعره تجاه زهرة؟ أم موقفه من خدمة أمّـــه لفـــريدة خانم ليلة عرسها؟ أم أفكاره السّيئة تلك التي باتت تنخر عقله منبهة إياه إلى مصادر الثّروة الّتي بدأت تظهر على والده؟

الحقـــيقة الأكثر سطوعاً في ذهنه، أنّه لم يرَ في فعل السّطو - إن حدث - على أموال علي باشا أيّ خطأ، فهو يعتقد أنّ الثّراء الفاحش لعلـــي باشا مقابل الفقر والبؤس الذي يعيشه أهل الزقاق كافيان لقيام

ثـــورة، يستعيد فيها هؤلاء حقهم المنهوب بكلّ صفاقة. تأكد له ذلك الإحـــساس، وتحوّل إلى فكرة ملأت روحه، ووجد نفسه متسامحاً مع أبيه، إلى درجة التماس العذر له فيما يفعله.

عـــندما امتلك هذا اليقين، شعر بذهنه صافياً، تنشّق هواء الحديقة العامـــة بعمـــق، ونهض مغادراً. تجاوز "ورا الجامع"ولفّ حول القلعة، وعـــاد إلى 3باب الحديد، وهو يهمس لنفسه بتلك الأفكار الّتي انبثقت كضوء الصّبح بعد عتم طال أمده. لم يكن يشك أنّ ثورة قريبة ستقوم، وأنّ أمـــوال علي باشا ستؤول قريباً لهؤلاء التّعساء الذين يطعمونه من عـــرقهم وكدحهم طيلة عمرهم في أراضيه، هم يزدادون بؤساً، وهو يزداد تخمة!

ســـيطر عليه هذا الشّعور طيلة فترة شهور الصّيف الحارّة، رافقه تسكع يومي بين الحديقة العامة، والقلعة، وباب الحديد، وحي بحسيتا، ومقهى الشّهبندر!

تلـــك المتناقضات زلزلت يقينه بشكل المستقبل الذي يسعى إليه، حتّـــى بات يشك برغبته في متابعة دراسته في الكلتاوية، ورغبته في أن يـــصبح إماماً، أو حتّى مدرِّساً للدين. وصار يبحث عن منفذ ومتنفس يمرق منه ليتخلّص من وضعه الحالي، فأتاه الحل سريعاً من الخارج.

لم يكـــن يـــتوقع أن يجد أباه أمامه على تلك الصّورة من اللهفة والحـــنان عـــندما دخل صحن المسجد في ذلك العصر القائظ. فوجئ أكثر حين انتحى به جانباً، وطلب منه أن يستعد ليسافر معه إلى البلد. سأله بقلق إن كانت أمّه بخير، فكان الجواب حاسماً، لا شيء مما يفكّر به، لكنّ الباشا يريد مقابلته. تساءل بفزع عمّ يريده الباشا منه؟ لم يجد الجواب عند أبيه، بل لم يرغب عبد الحي أن يفصح عن السّبب الحقيقي لرغبة الباشا المفاجئة تلك، واكتفى بالقول: "سيقول لك بنفسه".

اختلط الفرح بالاستغراب حين أخبره الباشا أنّه ينوي إرساله إلى العاصمة ليعمل في مكتب محام صديق له، وهناك بإمكانه أن يتابع دراسته في كلية الحقوق. سأل أباه باستغراب:

- والكلتاوية؟

قال والده بحماس:

- الحقوق أفضل، تخيّل أنت، بكرة بتصير قاضي قدّ الدنيا، وكلّ النّاس بتركض حولك. الواحد لازم يتطلّع لفوق دائماً.

لم يقل لأبيه إنّ نظريته هذه، هي نفسها حجته لدخول الكلتاوية، فقد كان يأمل أن يراه شيخاً، عالماً، يركض النّاس حوله، يطلبون منه البركة والفتوى فيما لا يعلمون.

استوقفته عبارة "الركض"، لماذا يرجو والده أن يركض النّاس حوله مهما كانت وظيفته؟ فسّر الأمر على أنّه ثأر شخصي بين والده وبين الركض، تخيله وهو يركض طيلة عمره وراء الباشا كما الثّور، وعلقت المرارة في حلقه، هو أيضاً، تمنّى - عندما انحنى ليقبّل يد الشّيخ عمر وقت التحاقه بالكلتاوية - أن تنقضي سنوات دراسته بلمح البصر، ويقف - كما الشيخ عمر - بعمامته البيضاء ووجهه الطّافح بالصّحة والنّور، ويمدّ يده ليقبّلها المشايخ الصّغار وهو ينظر إليهم من علٍ. ما الذي تغيّر الآن؟ الحلم يمكن أن يكبر، والقاضي رتبة رفيعة يسعى إليها كبراء البلد، فلم لا يكون قاضياً؟ دغدغه الحلم بما يكفي لنسيان كلّ التساؤلات الّتي أقلقته، واندفع بقوة غامضة للمضي في الطّريق الذي اختاره له علي باشا.

في تلك الليلة شعر أنّه أقلّ تهيباً في حضرة الباشا، فقد رآه أقرب إلى البشر منه إلى الغيلان الخرافية الّتي حشت أمُّه رأسه بصورها. تلاشت الرّهبة الّتي كان يشعر بها حين تطأ قدماه عتبة السّرايا، ونظر في وجه علي باشا لأوّل مرّة وهو يكلّمه. ربّما لأنّه تخلّص من عقدة المقعد

الخشبي في الدّهليز، هذه المرّة لم يلقِ إليه بالاً، ولم ينظر ناحيته وهو يعبر الدّهليز إلى الجنّة! لا يدري أيّ شيطان أدار دفة أحلامه، فراح يفكّر بإمكانية حصوله على سرايا كبيرة، وأرض واسعة و...

ابتعدت زهرة من أفق الحلم، وغرقت تدريجياً في زاوية معتمة من ذاكرته أثناء انشغاله بحياته الجديدة. العمل والدّراسة لم يتركا له فرصة للتّفكير بأيّ شيء آخر لمدّة طويلة. انخرط بمشاكل النّاس بمختلف أطيافهم، صار عمله في مكتب جمال باشا عبئاً ثقيلاً، لا يصدّق متى ينتهي منه كلّ مساء، ليعود إلى غرفته المتواضعة، الّتي استأجرها له جمال باشا عند أرملة فقيرة، يعمل منذ سنوات على إثبات أحقيتها في البيت الذي تركه لها المرحوم من دون "طابو". وقد خرج أقاربه - بعد وفاته - من القبور، وطالبوها بإرث المرحوم!

كانت زهرة تبرز له في أحلامه بين الحين والآخر، تعاتبه لرحيله من دون كلمة، وتهمس له بصوتٍ خفيض: "بحبك".

يسمع صوتها بأذنيه، فيفتح عينيه سريعاً، وضربات قلبه تعلو، ويبحث عنها في أرجاء الغرفة. وحين تهدأ ضربات قلبه، يعرف أنّه مجرد حلم! تلك الأحلام منحته اليقين أنّ مصيره لا يمكن أن يرتبط بفتاة غير زهرة، وأنّ ما عداها سراب، وقرر أن يطلب يدها في أوّل إجازة يذهب فيها إلى البلدة. إلاّ أنّ الأحداث السّياسية في تلك الفترة جذبته لخوض غمارها، فوجد نفسه ينساق إليها ناسياً السّفر، وناسياً زهرة، حتّى أبرق له والده كي يحضر إلى بلدته لأمر هام.

طوال الطّريق غرق في حلم اللقاء بزهرة، وخطط لمقابلتها قبل الوصول إلى بيته، صمم على قرع بابها، واستئذان أمّها بخطبتها.

أسكرته خمرة اللقاء المرتقب، ولم يشعر بطول الطّريق، اختصره بعيني زهرة العميقتين تضحكان وسط حقل من زهور اللوز، وتتفتح

علـــى جانبـــي فمها زهور شقائق النعمان، يركض خلفها مسافات لا تنتهي، ولا يشعر بالتّعب.

انتبه من غفوته على صوت "قطّاش" ينادي الرّكاب لينـــزلوا من الحافلـــة، كـــان الوقت يقترب من المغرب، والشّمس تميل إلى الغياب. نـــزل من الحافلة وهو يشعر بعظامه توشك أن تنكسر، شعر بيدٍ تربت كـــتفه - وهو يتناول حقيبته من المعاون - وصوت والده الدّافئ يقول "الحمـــد لله علـــى الـــسّلامة" فاجأه حضوره، وللحظات لم يستطع اســـتيعاب الموقـــف، فقد نسف كلّ مخططاته وأحلام الطّريق الطّويل بحـــضوره لاستقباله! أرعشه خاطرٌ غريب "هل حدث أمرٌ سيئ حتّى أرسل في طلبه، وانتظره هنا؟ هل مات أحد؟ هل..." لم يترك له فرصة للاسترســـال في تساؤلاته الّتي نطق بها بلا وعي. قال ضاحكاً: "ما في شـــيء من هذا، بس اشتقنا لك، والباقي منحكي عنه في البيت ونحنا على السّفرة، يالله". وسحبه من يده كما كان يفعل وهو صغير، حين كان يصطحبه إلى سرايا أسعد باشا!

تحـــرّق للانـــتهاء من طقوس الاستقبال والطّعام ليعرف ما الذي جعـــل والـــده يحضره من العاصمة بهذه الطريقة. حين أنهوا طعامهم، حملـــت أمّه البقايا، وغادرت الغرفة، تناول والده علبة الدّخان، وراح يلف سيجارة بهدوء أثار أعصابه، فقال من دون انتظار:

- ماذا هناك؟ أشعر أنّ الأمر سيئ إلى حدٍّ ما.

نظر إليه نظرة طويلة، تأمله فيها بعمق، وقال:

- لسّاك على عهدك؟

ردّ باستغراب:

- أيُّ عهد؟

حاول ضبط أعصابه وهو يقول:

- بها السّرعة نسيت؟ ما علينا، رح أشرح لك. بتتذكر لما كنت آخدك معي للسرايا؟

قال وهو يشعر بجفاف حلقه:

- لك طول العمر يا أبـــي، أنت لا زلت في صحتك وشبابك.

حدّق به بغضب، وقال:

- مـــا رديت علي، أنا ما سألتك عن صحتي وشبابـــي، جاوبني بتتذكّر ولا لأ؟

ردَّ بارتباك:

- نعم، أذكر، لا زلت على عهدي.

تنفّس بارتياح، وقال:

- اتفقتُ مع علي باشا أن تتزوج ابنته.

صرخ بتلقائية:

- ماذا؟ فريدة؟ لكنّها متزوجة.

قال والده بهدوء:

- طلّقهـــا مراد باشا بعد سفره مباشرة، بعت لها ورقة الطّلاق، الباشا عرف أنه متزوج من واحدة فرنسية عنده أولاد منها.

قال مستجمعاً شجاعته:

- لكنّها أكبر مني بسنوات عشر.

قال والده:

- الظّاهـــر رح تـــضل كلّ عمرك غشيم، ما بتفهم بالنّسوان، لك يا حمار ما تعلّمت في كلية الحقوق إنّه المهم أشو بدك تربح من ورا الجازة؟

قال متلعثماً بالكلمات:

- لكـــن، لكن، فريدة خانم، لا أتصوّر، لا أعتقد، بس... خليني أفكّر.

– مـــا بدّها تفكير، رح تروح معي على السّرايا، ما بتحكي ولا كلمة، بس بتوافق على كلامي.

تعثـــر بظلـــه وهو ينحرف في الزقاق تّجاه الشّرق، كلّما اقتربا من الـــباب الكـــبير، علت ضربات قلبه، وازداد ارتباكه. اختلطت الصّور في مخيلـــته، وتـــشظّت الأحلام، وتبعثرت المخططات، لم يعد يستطيع لملمة مـــشاعره، وترتيب أفكاره كي يبدو بمظهر مناسب أمام علي باشا وابنته. شعر بالذّنب نحو زهرة، وتساءل بقلق: "هل استسلامي لمشيئة أبـــي خيانة لزهـــرة؟". ارتجف قلبه من لفظ الخيانة، فأبعده بسرعة، وقال مراضياً نفسه "الـــزواج قسمة ونصيب، وهذا لا يعني أنّ حبـــي لها سينتهي". حين دلفا مـــن الـــباب الكـــبير، الذي فتحته لهما الخادمة مفسحة الطّريق أمامهما، خطـــف بصره منظر المقعد الخشبـــي، لا زال في مكانه لم يتزحزح، لكنّه بـــدا لـــه صغيراً وبائساً، لا يتسع لأكثر من شخص. حاول التّغلب على مشاعر القهر الّتي غزته فجأة، تنحنح وهو يمدُّ ساقه إلى عتبة الغرفة العالية، كانت المرّة الأولى الّتي يصعد فيها الدّرج الحلزوني، ويلمس الحديد المذهب بأصابعه، ويتأمل سكون الليل، والأضواء الشّاحبة المتناثرة في الحديقة. راقته حـــبات اللـــيمون المضيئة كقناديل، وكأنّها تشف عن داخلها. لم يترك له أبـــوه الفرصـــة ليقف طويلاً متأملاً السّحر المحيط به، همس بخشونة: "شدّ ظهرك، بدي ياك رجّال قدّام الباشا، فهمت؟".

فهم كلَّ شيء في لحظات، حين رأى أباه يدخل الغرفة قبله من دون أن يخلع حذاءه وينحني، والباشا يردُّ التّحيّة بهز رأسه فقط، وهو ممدد على سرير نحاسي، زيّن بأعمدة، حُفرت عليها وجوه حيوانات وأوراق دوالي. وقـــد صفّت خادمة تعتني به الوسائد وراء ظهره. أشار إليها بالخروج حين جلـــسا، وبدأ والده الكلام، راقب عيني الباشا في تلك اللحظات، لم يكن الانكـــسار الواضـــح في نظـــراته مجرد انعكاس لأمنياته، ولم يكن هزاله

وشـــحوبه مجرد تخيلات سرح فيها ذهنه، بل حقيقة لم تصدمه أبداً، فمن الطبيعـــي ألاّ يحـــتمل الباشا ما فعله ابن أخيه، وربّما لم يحتمل أيضاً هذه الـــصّفقة الخاسرة الّتي تتم أمام عينيه، ولا يستطيع أن يمنعها. لم يكن ماهر أفندي وهو يحدّث نفسه بذلك، يعلم الكيفية الّتي ضاعت فيها أموال الباشا وأراضـــيه مـــنه، فقد فهم أنّ ابن أخيه مراد سحب من الباشا أموالاً طائلة أثـــناء إقامـــته في فرنـــسا بحجة الدّراسة، وأنّه استدان مبالغ طائلة بضمان أراضي عمه قبل سفره الأخير، مدّعياً أنّها له، لأنّ أسعد باشا لم يوزع رزقـــه على ولديه، وقد وضع علي باشا يده على الرزق حين توفي شقيقه، وابنه ما زال صغيراً!

سمع صوت والده يقول:

- يـــا باشا، ماهر رح يكون الولد المطيع الخدوم لجنابك، ورح يحط فريدة خانم في عينيه.

لاحـــظ أنّ الباشا أغمض عينيه بسرعة، وكأنّه يحاول منعهما من فهـــم ما يعتمل في داخله، لكنّه خمّن أنّ الباشا مجبرٌ على قبول الصّفقة، لأنّـــه في وضـــع مادي وصحي حرجين، ولا يمكنه أن يرفض العرض السّخي لعبد الحي بستر ابنته، وترك السّرايا له طيلة حياته، لأنّه لن يجد في الظّرف الحالي عرضاً أفضل.

لم يكن يتوقع أن تدخل فريدة خانم إلى الغرفة وراء خادمتها، الّتي وضـــعت صينية الشّاي أمامهم، وخرجت. جلست مواجهته، ونظرت إلى عـــبد الحي، وقالت بجفاء: "أهلاً وسهلاً". لا يدري ما الذي جعله يغفر لها ذلك الجّفاف، ويلتمس لها العذر!

ربّمـــا نظـــرته الخاطفة إلى وجهها، الذي أضاء بنور خفي، على الرغم من شحوبها. وجد قلبه يخفق فجأة، ونسي من حوله وهو يتأمل أصـــابعها العاجـــية، عندما رفعت كأس الشّاي، ورشفت منه ببطء،

وأعادته إلى الطّاولة بلا صوت! سمع خفقات قلبه بوضوح، طرقت أذنيه بقـــوة، شوشـــت تفكيره، ومنعته من سماع ما يدور حوله. لم يفهم ما حـــصل، لو لم يكن يحبّ زهرة منذ زمن بعيد، لقال إنّه الحبُّ الأوّل، الحبُّ من أوّل نظرة. لكن...؟ لا، شتان ما بين هذه وتلك!

دخـــل والده في الموضوع الذي جاء من أجله مباشرة، وطلب يد فـــريدة، لاحـــظ حيـــنها أنّـــه لم يعد يخاطب الباشا بـــ "حضرتكم وسيادتكم" يبدو أنّه نسي ألفاظ التّبجيل تلك، وكان واضحاً أنّه اندمج في دوره الجّديد، بعد أن أصبح صاحب أرض، ومال، وسرايا! من كان يصدّق؟ كيف يتحوّل الحلم إلى حقيقة بهذه البساطة؟

أراد في تلك اللحظة أن يتشبث بالتّفاصيل الّتي حرفت حياته عن مـــسارها، أراد أن يرسم الموقف والمكان والأشخاص في ذاكرته، فلا ينـــسى منها شيئاً، وأن يحتفظ بالرّائحة، رائحة كلّ شيء حوله، القرفة المتسربة من فنجان الشّاي، وزهر الليمون، وعطر فريدة الخفيف.

لم يعد يهمه أن يحاسب نفسه على خيانته لزهرة، لم يعد ذلك ما يـــشغله، بل ذهب أبعد من ذلك، شعر للحظات أنّه خَجلٌ من علاقته بهـــا، تخيّل جسدها الملفوف بالملاءة، مشيتها المرتبكة، كفيها المخضبين بالحـــناء، واحمرّ وجهه للذكرى، ذكرى لقاءاته الخاطفة بها، وعده لها بالزواج، قسَمه بأغلظ الأيمان أنّه لا يمكن لفتاة غيرها أن تحتلّ قلبه. رفع وجهـــه لينظر إلى فريدة، رآها على كرسيها أميرة حقيقية، لم تخرج من الحكايـــات، ولم تخدعـــه عيناه برسم المكان، وإضفاء اللون والرّائحة، والتّوغل في الزمان، إنّها أميرة متوجة، وهو...؟

أيمكـــن أن يكـــون أحد العبيد؟ صعقه السّؤال. رأى نفسه بحجمه الطبيعـــي، لـــيس أميراً خارجاً من الحكاية، وليس أميراً حقيقياً، فما الذي جعله يقبل هذه الصّفقة المهينة؟ سمع صوتها بعد صمت خاله استمرّ دهراً:

- هل تفكّر ماهر باشا أن ترشح نفسك حقّاً للمجلس النيابـــي؟

مجلـــس نيابـــي؟ ماهر باشا؟ ارتبك وهو ينظر حوله، لم يكن في الغـــرفة غيره، وقد أطلقت عليه فريدة لقب باشا، هل تسخر منه؟ أم تـــراها لم تـــتعوّد الحديث سوى مع البشوات؟ مال للاعتقاد أنّ فريدة أرادت بسؤالها أن ترفع من شأنه، وأراحه هذا الاعتقاد، فقال:

- الحقـــيقة، لم أفكّـــر في الأمر بشكل جدي، تعلمين أنّي لم أنهِ دراستي بعد.

احمرّ وجه فريدة، واختنق صوتها وهي تقول:

- أخبرني الباشا، أنّك بصدد التّرشح للمجلس النيابـــي، قال إنّه كلّم أصدقاءه في العاصمة من أجل ذلك.

إذن الباشا ووالده حضّرا كلّ شيء، اتفقا على دراسته ومستقبله، كـــي يصبح لائقاً بالخانم! وقاما بإقناعها أنّه شخص مناسب لها بعد أن تخلّى مراد باشا عنها. كادت الكلمات الغاضبة تلك الّتي جرحت حلقه أن تخرج على شكل صراخ، لجمه صوت والده الذي تولى الردَّ عنه:

- طبعاً سيترشح للمجلس النيابـــي، لكن بعد أن يكمل دراسته. الحقوق أولاً يا خانم.

لماذا يناديها بالخانم؟ ألن تصبح كنته؟ ركبه عناد مفاجئ، وأضمر في نفـــسه أنّـــه لـــن يترشح للمجلس ما دام الأمر لأجل خاطر الخانم ووالـــدها الباشا، ومن أجل أن يليق بمركزهما الاجتماعي. وأسرّ لنفسه "حسناً، لأصبح سيّداً لهذه السّرايا أوّلاً، وبعدها لكلّ حادث حديث". لم يفكّـــر ماهـــر أنّ أوّل شـــرط لزواجه سيكون السّرية التّامة، احتج بصوت عالٍ لأوّل مرّة:

- وكـــيف سيكون ذلك، زواج بالسّر؟ إن أولى شروط الزواج العلنية.

حدّق والده بوجهه باستغراب، وقال:

- أشو قلت يا ولد؟ عيد كلامك لشوف.

تدخلت أمّه معاتبة والده:

- صـــار رجّال ملو هدومه[1] ولسه بتقول له ولد؟ وبعدين أشو فـــيها؟ الـــولد بدو يفرح، من حقه، ونحنا كمان بدنا نفرح، أشو ابني أرمل لحتى يتجوز على السكت[2]؟

لم يكـــن أحد في تلك اللحظة يستطيع أن يوقف سيل الكلمات الغاضـــبة الّتي انطلقت من فم عبد الحي، الذي نهض شاتما الولد وأمّه، وغادر الدّار صافقاً الباب خلفه بعنف.

لكنّه عاد تلك الليلة بوجه مختلف، لاطف ابنه على العشاء، وقال بابتسامة:

- خلـــص، رح نعمل مثل ما بدّك، بس من دون عرس، المخلوقة ما بتقدر تفرح، وتعمل عرس وأبوها مريض.

فهـــم ماهـــر أنّ والده زار السّرايا، وتشاور مع الباشا وفريدة في الأمـــر، وربّما وافقا مرغمين على شرطه، لأنّ الزواج لا يمكن أن يبقى ســـرّاً، مادام سيدخل إلى السّرايا، ويخرج منها يومياً، لكنّهم تركوا في حلقه غصة، لم تكن الأخيرة. فقد تلاشى الحلم بعرس كبير، تصدح فيه الحناجـــر بالغـــناء، وتجتمع فيه نسوة الحي، يرقصن ويزغردن، ويزففن عروسه، ويرششنها بماء الورد، ويحطنها بأكاليل الزهور.

* * *

(1) ملء ثيابه.

(2) سكت: بصمت.

(2)

لم يجد مخرجاً من الضيق الذي أطبق على روحه سوى الهرب من البـــيت، حين خطا إلى الدّهليز، أقلقته العتمة، ورسمت دوائر بنفسجية وحمراء أمامه، وقف للحظات، أغمض عينيه ريثما يستعيد قدرته على الرؤية. حين فتحهما، فاجأه منظر طفل قذر، ضئيل الحجم، يجلس على المقعد الخشبـــي، يؤرجح ساقيه، ويحفر الخشب العتيق بمسمار صغير. حينها صرخ بقوة، جعلت الطفل يجفل، وينهض مذعوراً، ويقف أمامه وهو يرتجف.

- من أنت؟

لم يستطع الطفل أن يرد، سوى بتمتمة غامضة. جاء السّائس علـــى صوت الصّرخة، ليقول له، إنّ العربة جاهزة، فرأى المشهد. ســـحب الطفل من يده، وأخرجه إلى الشّارع، وعاد مسرعاً، وهو يقول:

- عفـــوك يا باشا، والله ما قصدت إزعاجك، بس أمّه مريضة، جبته معي اليوم بس.

قال وهو يكظم غيظه:

- أخرج هذا المقعد، وارمه بعيداً.

انحـــنى الـــسّائس، وهز رأسه برضا وهو يحمل المقعد، ويخرج إلى الشّارع. وخطا ماهر بسرعة خارج السّرايا، وصفق الباب خلفه، وأومأ إلى السّائس كي يذهب لعدم حاجته للخيل والعربة.

اتّخذ له زاوية بعيدة عن المصلين في المسجد، وجلس فيها ساهماً. في البدء ظنّ أنّه سيحصل على السّكينة المنشودة، ويبتعد بروحه محلّقاً في أجواء من النّسيان والتّوحد مع الكون الفسيح. لكنّ كوابيسه الأرضية لاحقته إلى زاويته، وغرق في تأمل ما حدث له خلال الأسبوع الأول من زواجه بفريدة خانم. نفض رأسه من أفكاره السّوداء تلك، ونهض ليتوضأ ويصلي، ثمّ عاد إلى زاويته، فهاجمه الكابوس نفسه، ومنعه من متابعة صفحات القرآن بين يديه. وضعه جانباً، وأغمض عينيه طالباً إغفاءة أبدية تريحه من كلّ شيء.

شعر بيد تربت كتفه، فتح عينيه ببطء، فوجد أمامه "ديبو" يبتسم بمودّة، ويدعوه لمرافقته. خارج المسجد قال ديبو بفرح من وجد صديقاً بعد غياب:

- اشتقنا إليك، أين غبت تلك الفترة الطّويلة يا رجل؟

ردّ من باب الواجب، ومن دون اهتمام حقيقي:

- في هذه الدّنيا، وأنت ما أخبارك؟

وكأنّ ديبو كان ينتظر هذا السّؤال منذ زمن طويل، فقد تأبط ذراع ماهر، وراح يروي بلا توقف قصّة حياته، منذ دخل الكلتاوية وحتّى هذه السّاعة، لم يكن ماهر يهتم لتلك السّيرة الّتي رواها ديبو بحماس شديد، مبرزاً إنجازاته المهمة في تلك الفترة. حتّى انتبه فجأة إلى يد ديبو، وهي تفتح باب الدّار، وتسحبه إلى الدّاخل. لم يكن مهيّأً لمثل تلك الزيارة، ولا يستطيع المجاملة، حاول التملّص من يد صديق الطّفولة، لكنّه لم يفلح، فقد شدّه إلى الدّاخل، وصعدا الدّرج إلى "العلية" وديبو لم يتوقف عن التّدفق بالحديث قاطعاً مجراه بالتّرحيب "زارتنا البركة والله، من زمان يا رجل، يا أهلاً وسهلاً" وماهر يغتصب ابتسامة، يبرر بها وجوده في المكان الخطأ في التّوقيت الخطأ أيضاً.

لم ينتظر ديبو موافقته على الغداء، فقد تناول طبق القش من سيدة توارت وراء الباب، سمع صوتها الخافت وهي تنادي ديبو.

أخيراً، ومع رشفة الشّاي الأولى، قال ديبو، وهو يغمز بعينه:

- ألف مبروك، سمعت أنّك تزوجت ابنة الباشا، ولو أنّي أخذت على خاطري لأنّك لم تفكّر بدعوتي إلى العرس.

انتبه أخيراً أنّ عليه أن يخرج من صمته، قال مرتبكاً:

- حقّك علي. الله يبارك فيك.

قال ديبو ضاحكاً:

- ولا يهمـــك أنـــا أعـــذرك، أعرف أنّ رأسك مشغول بألف موضـــوع، مع هذا لا بدّ أن أتحدّث معك في أمر هام، ارم وراء ظهرك كلّ الهموم، أعرف أنّك تعاني من مشكلة، لكنّي لن أضغط عليك من أجـــل الحـــديث عنها، ولو أنّ ذلك سيساعدني في مهمتي، لأنّ ذهنك سيصفو لحديثي.

حاول أن يبدو مهتماً، قال:

- ما الأمر؟ خير إن شاء الله.

قال ديبو، وقد اتّخذ هيئة من يبوح بأمر خطير:

- خير، طبعاً خير، بقى يا سيدي، نحن لا زلنا نعتبرك منا وعلينا، وقلنا في نفسنا لازم نكسبك إلى طرفنا، شخص مثلك، أكيد رح يكون له وزنه في تشكيل حزبنا.

قال ماهر باستنكار:

- حزبكم؟ من أنتم؟

قطّب ديبو حاجبيه دلالة على خطورة ما يقول:

- الأخوان المسلمون.

قال ماهر:

- أين، ومتى، وكيف؟

ختم ديبو حديثه:

- أريـــد موافقـــتك أولاً، وستذهب معي إلى حلب غداً، وهناك ستفهم كلّ شيء، سآخذك إلى اجتماع مهم، وستلتقي رئيس التّنظيم. ما رأيك؟

لم يفكّر، كانت الأمور متساوية في نظره، والفراغ يتحكّم بحياته، بعد تصميمه على عدم السّفر إلى العاصمة لتقديم الامتحانات النّهائية في كلـــية الحقوق، لقد اتّخذ قراره منذ السّاعة الّتي سألته فريدة فيها عن ترشـــيحه للمجلـــس النيابـــي. وقرر ألا يخبرها بأيّ شيء يخصّه منذ اللحظـــة الّـــتي اقترب فيها منها بفرح من وجد كنـــزاً، فصدّته ببرود بعـــبارة: "أنـــا متعبة يا باشا فلنؤجل هذا الأمر إلى ليلة أخرى". الليلة الأولى قصمت ظهره، وأشعرته بالذل على الرغم من امتلاكه السّرايا، وحالة الباشا الصّحية السّيئة. موقف فريدة كان كافياً لإزكاء نار النّقمة في أحشائه، تقلّب على فراشه في غرفة منفصلة، فأحسّ بأشواك كلماتها تغوص في حلقه عميقاً، نهض قرب الفجر، ودخل غرفتها، تأملها وهي نائمة، كاد قلبه يرق، وينسى ما قالته، لولا أنّها فتحت عينيها في تلك اللحظة، وقالت بصوت خافت:

- أتريد شيئاً يا باشا؟

لامس الصّوت أذنيه كسيخ من نار، لطمته الكلمات بعنف، أراد أن يكظـــم غيظه، ويقول لها إنّه يريدها، يريد فريدة، يريد أن يتحدّث إليها، لكنّه نطق بحياد:

- أريد حقّي.

فـــتحت فـــريدة عينيها بدهشة، واستوت في السّرير وهي تحدّق بوجهه باستغراب، تحوّل إلى رعب خلال لحظات، لم تقل فريدة كلمة

واحـــدة حين انتهى من أخذ حقّه بالطّريقة الّتي تريحه. أدارت وجهها صوب الجدار، وبكت بصمت.

لم يعرف في تلك اللحظة، و لم يهتم بمعرفة ما الذي جعلها تبكي، فقـــد خمّن سلفاً أنّ طريقته الفجة وعصبيته، هما السّبب، وربّما كراهية تخفيها فريدة في أعماقها تجاهه.

تعمّـــق إحساسه ذاك في الصّباح التّالي، فقد بدت فريدة منتفخة العينين، وشكلها يوحي بأنّها لم تنم طيلة الليل وهي تبكي.

جلست إلى المائدة، وتناولت فطورها بصمت، لاحظ بعد دقائق أنّها توقفت عن شرب الشّاي، وبقيت اللقمة عالقة في فمها وهي تنظر إليه باستغراب. لم يفهم مباشرة أنّ فريدة استنكرت طريقته في الأكل، وأنّهـــا غـــضّت بصرها أدباً، و لم تنطق بكلمة! ولكنّها في اليوم التّالي، تكلّمت ببطء أثار عصبيته، وقالت:

- أرجوك يا باشا، أنت لست وحدك على المائدة.

لم يغظه تنبيهها بقدر ما أغاظه لفظ "باشا" الذي يتصدّر حديثها إليه. ردّ بغضب:

- أعـــتقد أنّـــك في بـــيتي الآن، ولـــست ملزماً بقواعد طعام الباشـــاوات، بل أنت ملزمة بطاعتي، وتنفيذ رغباتي. مع هذا لم أجبرك على تناول الطّعام في طبق القش، بالطّريقة الّتي تريحني، وعليك أيضاً ألاّ تفرضي عليّ طريقتك، هل تفهمين؟

نكّست فريدة رأسها، و لم ترفعه، حتّى غادر الغرفة، نهضت حينها إلى غرفتها، وبكت بحرقة، حتّى غفت.

صار يتعمّد البقاء خارج البيت إلى ساعة متأخرة من الليل، يجدها نائمـــة حين عودته. اعتقد أنّ تلك الطّريقة تريحه من الصّدام معها، و لم يعرف أنّه بذلك يعمّق الهوة بينهما، ويسير بعلاقتهما في طريق مسدود.

تمـــنت فـــريدة حين دخل إليها تلك الليلة أن تحبّه، وتنسى مراد باشا، تنسى حلم الطّفولة والصّبا، تنسى عشقها ذاك الذي ملك عليها قلـــبها وعقلـــها في سنوات شبابها الأولى، تنسى ألم الانتظار الطّويل. تنـــسى كلّ الماضي. عاهدت نفسها أن تكون زوجة جيدة تسعد ماهر أفـــندي، وتصوّرت أنّه سيغفر لها كلّ شيء، لأنّه يحبّها، وأنّه سيسعى كـــي يـــصبح نـــداً لها، لم تتصوّر في لحظة أنّ ماهر سيحمل في نفسه كراهية تجاهها، مع هذا حاولت أن تصلح الأمر بطاعته، والتّقرب منه، وعـــدم إبـــداء أيّ ملاحظة على تأخره، أو تصرفاته، كانت تخشى أن يهجـــرها، وأحسّت بثقل الثّلاثين على روحها، كانت تنظر في المرآة، فلا ترى ذلك الجمال الذي كان يأسر الباشاوات في حفلات حضرتها في العاصمة، ولا ترى العينين اللتين تغزّل مراد بحوَرهما. كم بقي لها من الـــسّنوات؟ كانـــت تتـــساءل بحـــرقة، وهي تمشط شعرها، وتحصي المساحات الرّمادية فيه.

أمّـــا هو فقد وجد في دعوة ديبو منفذاً يخرجه من دوّامة التّفكير بفـــريدة، ويفـــتح أمامه طريقاً مختلفاً عما خطّه له الباشا بالاتّفاق مع والـــده. أحسّ أنّه بذلك يرد الصّفعة الّتي تلقّاها بصفقة الزواج الخاسرة تلك، فهو سيشكّل نفسه كما يريد بعيداً عن سيطرتهم، وفي مقدمتهم الأمـــيرة فريدة، الّتي لم يشعر مرّة واحدة بدفء جسدها حين يقترب منها، دائماً كان يلج في الجليد، فيرتعش من البرد، ويتسرّب الصّقيع إلى أطرافه، فيهجر فراشها لينام في غرفة منفصلة، خاصة وهو يراها تذبل، وتذوي، ويشحب لونها يوماً بعد يوم.

لم يخطـــر له أنّ فريدة حامل منذ الليلة الأولى، لم يلحظ التّغيرات الّـــتي طرأت على جسدها إلاّ بعد مرور أربعة أشهر من غيابه الدّائم في حلـــب، وسهراته في بيت ديبو آغا المرشح للبرلمان، والذي طلب منه

الـــدعم ليحـــصل على أكبر قدر من الأصوات. عمل مع ديبو بحماس وكأنّـــه هو الذي سيصل إلى المجلس، ويحصل على اللقب، حماسه ذاك عبّـــر عـــن رغبته الدفينة في الوصول إلى البرلمان، لكنّ عناده أبعده عن تحقيق الفكرة، وقد ساعدته مواقف فريدة وتصرّفاتها في المضي بعيداً في عناده، قالت له ذات مساء على مائدة العشاء:

– سمعـــت أنّـــك أصـــبحت من رجال ديبو، وتقود له الحملة الانتخابية.

رمى الملعقة بغيظ، وتناول رغيف الخبز، وراح يغمس أصابعه في الطّعـــام، من دون أن يكلّف نفسه الردّ على كلماتها، مما جعلها تشعر بالغثـــيان، وتنهض بسرعة إلى المغسلة، تحرّكت في داخله شفقة، قمعها بسرعة، ونادى الخادمة:

– يا وجه الشؤم.

جـــاءت على عجل، وحين استفسر منها عن حال سيدتها، قالت له، إنّها حامل!

لم يصدّق الخبر، طلب منها إعادة ما قالته، سأل نفسه محتاراً "أنا وفـــريدة! معقول؟" للحظات رغب أن تكون الخادمة كاذبة، لا يريد شيئاً يربطه بفريدة ويقرّبه منها، يريد أن... تنهد بحسرة، لقد تزوجت زهـــرة، وأصبحت بعيدة المنال! وهاهي فريدة تربطه إلى عجلتها بحبل مـــتين. أيمكن أن يكره فريدة بعد الآن؟ لم يفكّر إن كانت فريدة راغبة في الأمـــومة، لم يفكّر بها إلاّ كتمثال جميل غالي الثّمن، ربحه في صفقة، شعر في البداية أنّها كانت رابحة، ثمّ وعى بعمق أنّه الخاسر الوحيد فيها.

وضع فريدة الجديد غيّر طريقة حياتهما، انـــزوت بعيداً عنه، ولم تعـــد تـــسأله شيئاً، لكنّها كانت تستمع إلى أخباره من السّائس أحمد علـــوان، والغصة تقف في حلقها. تعودت مع الأيام على قبول الواقع

كمـــا هو، وحاولت أن تتأقلم مع الظرف الجديد الذي وجدت نفسها فـــيه مرغمة. و لم يردم تلك الهوة - الّتي كبرت بينهما - طفلٌ جاء إلى الوجود مبتسماً، صحيح الجسم، جميلاً كأمّه. بل اختلفا ساعة ولادته، هـــو أراد أن يطلـــق عليه اسم عبد الحي، وهي أرادت أن تحي ذكرى والدها الذي فارق الحياة تلك السّنة. فاختار عمها عبد الحي اسماً للوليد يحـــسم الخلاف بينهما. لا شكّ أنّ فريدة اعترفت بحكمة عمها وبعد نظـــره، لكنّها احتفظت بالغصة في نفسها، فقد توقعت أن يساندها في إطـــلاق اســـم والدها على ابنها، وهو الذي لازمه كظله طيلة حياته، وفهمـــت فريدة في تلك اللحظة أنّ الزمن لا يمكنه الرجوع إلى الوراء، وأنّ عليها أن تعيش ما بقي لها من الحياة، كما شاءت لها الأقدار.

أصيبت فريدة بالهلع حين فاجأ زوار الفجر زوجها، وانتزعوه من فراشـــه، وذهـــبوا بـــه إلى جهة مجهولة، في البداية فكّرت بالاستعانة بمعارفهـــا، لكنَّ عمها عبد الحي منعها من التّهور، قائلاً بأنّ الزمن قد تغيّـــر. العبارة كانت واضحة، لم يعد للباشاوات - أصدقاء والدها - دورٌ في العهـــد الجديـــد الـــذي آلى على نفسه التخلّص منهم بقوانين التأميم. كانت فريدة تعيش خارج الزمن، لا ترى، ولا تسمع ما يدور خلـــف الـــسّور العالي. و لم تفهم لماذا أخذوا زوجها وهو ليس منهم، وحـــين عرفت تهمته، استنكرت، واستغربت، ودارت حول نفسها في ذهول! منذ البداية لم تكن علاقته بديبو آغا تريحها. ورأت فيها هلاكه. مـــع أنّهـــا لم تكن من هؤلاء النّسوة اللواتي يمتلكن حدساً يمكّنهن من استكـــشاف الغيب، بل امرأة جميلة مدلّلة، حصلت على تعليم خاص، وأتقـــنت الفرنسية إلى جانب التّركية الّتي تعلّمتها من جدتها. لم تسعَ يوماً إلى الخوض في التّجارب السّياسية، و لم يكن لديها الرغبة في معرفة أسباب الأزمات الّتي تعرّضت لها البلاد، كانت تكتفي بقراءة الروايات

باللغـــة الفرنـــسية، وتعـــشق بلزاك، والحياة الباريسية الّتي يصوّرها في رواياتـــه، وانتظـــرت طويلاً أن تعيش تلك الحياة مع ابن عمها مراد، لكـــنّها بقـــيت أسيرة الأسوار العالية، لا تغادر السّرايا أبداً بعد مرض والـــدها وزواجها. وإلى اللحظة الّتي اعتقل ماهر فيها، اعتقدت أنّها لن تغامر بالخروج من البيت إلاّ إلى قبرها. "لكنّ الزمن تغيّر" عبارة عمها تلك، أقلقتها فترة من الزمن، اتّخذت بعدها قراراً بمتابعة حياتها بطريقة مخـــتلفة، ولأوّل مرّة لم تنتظر فريدة مساعدة من أحد، أطلقت سراح خادمتها، وأخذت ولدها، وغادرت السّرايا برفقة السّائس أحمد علوان، الـــذي أوصـــلها إلى حلب، وعاد إلى بيته من دون أن يخبر أحداً كما أوصته.

طلـــع الصّباح على السّرايا الخاوية، وخطوات عبد الحي الصّياد القلقـــة، تزرع الزقاق جيئة وذهاباً. لم يصدّق عينيه حين رأى السّائس آخـــر النّهار، يجرّ الفرس البيضاء بتكاسل، ويبدو منهك القوى، ركض نحوه بلهفة، لكنّ أحمد علوان لم يزد على هز كتفيه نافياً أنّه يعرف شيئاً عـــن الخـــانم وابنها، وأكّد أنّه لم يرها منذ صباح البارحة حين أحضر لهـــا - كعادته - لوازم البيت. في تلك اللحظة، شعر عبد الحي بدوار، عـــصف برأســـه، وتضخّمت الوساوس والأفكار السّيئة حتّى ضيّقت أنفاسه، فصرخ بالسّائس ليفتح الباب بالقوة. حين قابله الخواء والتّرتيب في الغـــرف، والطّيور النّائمة في أقفاصها، فهم بشكل غامض أنّ كنته فـــريدة، غادرت السّرايا غير آسفة على شيء، وأنّها لن تعود! مع هذا تعلّـــل بأملٍ باهت، دغدغ أحاسيسه للحظات، ثمّ سادت العتمة. أظلم الـــزقاق، وقلـــب عبد الحي يتشبث بضوء يتسلّل بطيئاً من يقينه بأنّ حفيده الصّغير سيرتمي في حضنه ولو بعد حين. وأنّ فريدة ليست قاسية إلى درجة تحرمه فيها من سبب وجوده الوحيد في الحياة.

لم يكـــن عبد الحي مخطئاً في تصوره ذاك، فقد تمتعت فريدة بطيبة وبـــساطة لا تتوفران عادة في بنات طبقتها، و لم تشعر يوماً بأنّها أعلى مقاماً من زوجها على الرغم من المنغصات الّتي سيطرت على حياتهما؛ وعلى الرغم من انتقادها لبعض تصرّفاته، إلاّ أنّها كانت تراه رجلاً يملأ العـــين، وقـــد درجـــت - لخجلها - على مناداته بلقب باشا تفخيماً وإعلاء لمكانته، لكنّها فشلت في كسر حاجز الخجل ذاك، فكانت حين تضطر إلى مناداته باسمه، تقترب من مكان وجوده، كي تحدّثه بما تريد مباشـــرة، خشية أن ترفع صوتها أكثر مما يجب، وتناديه باسمه مجرداً، مما يـــوقعها في الحـــرج! و لم تعـــرف فريدة أنّ ذلك يغيظه، ويعمّق الهوّة بينهما، بل اعتقدت أنّها تعبّر عن مدى تقديرها واحترامها له. الاحترام كـــلّ ما تبقى لديها من أحاسيس تجاهه بعد صحبته لديبو آغا. لم تعد فريدة تسعى لإثارة اهتمامه، و لم يعد يعنيها إن أحبَّها أو كرهها، رأت بوضوح أنّهما يقفان على ضفتي نهر في ليلة عاصفة، لا يستطيع أحدهما العـــبور إلى الآخـــر مخاطراً بنفسه. وهذا ما شجّعها على اتّخاذ تلك الخطـــوة الجريئة بالسّفر إلى مسقط رأسها، حيث جدتها أم مصطفى لا زالـــت تسكن حي "القنطرة" في بيتها المعتق بروائح ماض عريق؛ يطلّ مـــن جدرانه هؤلاء الذين رحلوا، وبقوا في الذّاكرة. زوجها الذي فُقد في حـــرب البلقان، وابنها الذي استهوته بيروت، فعشق ترابها وحاراتها لأجل عيني نجلا، وترك أمّه وأخته تصارعان الفراغ والفقد. لم ترَ فريدة خالهـــا مصطفى سوى مرّة واحدة في زيارة خاطفة إلى بيروت، قام بها علـــي باشا لأحد زبائنه من أجل صفقة سلاح، يومها تشبثت به بكل طفولتها، و لم يستطع أن يرفض طلبها. تذكُر ذلك اليوم جيداً، فقد بقي حاضراً في ذاكرتها حتّى هذه اللحظة، المرّة الأخيرة الّتي ودّعت فـــيها أمّهـــا المريضة، وكانت فرحة بالسّفر إلى بيروت لرؤية خالها

الوحيد. وحين عادت، كانت أمّها قد فارقت الحياة هي ومولودها الذّكر!

يـــومها لم يستطع علي باشا أن يبقى في اللاذقية، وقرر أن يأخذ ابنته، ويبتعد عن البيت المشؤوم الذي لا زالت روح هاجر تحوّم حوله كلّ مساء، تنادي أمّها وأخاها وابنتها. كان يخشى أن يفقد ابنته هناك أيضاً!

حين وصلت فريدة إلى "كراج زكريا" كانت الشّمس قد بدأت تميل إلى الغرب، تنشقت رائحة اليود بعمق، ملأت رئتيها بهواء البحر، وعينـــيها بخصوصية المكان وحميميته، واتّجهت صوب الغرب إلى حي الـــشّيخ ضاهر. حين انحرفت شمالاً، فاجأها المنظر ذاته الذي ألفته حين كانـــت طفلـــة، الشّارع الرطب المرشوش بالماء، الأطفال يلعبون بعيداً تحـــت الجميـــزة، ونسوة الحي يجلسن على كراسي القش الواطئة عند الأبـــواب، وأمامهن التّراجيل، يسحبن الأنفاس ببطء، وهن يتسامرن، ويـــضحكن، والدّخان يتصاعد من أفواههن متقطعاً بطيئاً، تنفذ رائحته إلى رئتـــيها، فتشعر بالدّفء. احمرّ وجهها وهي تلقي السّلام على أوّل امرأة على يمينها، لم تعد تذكر اسمها، تعرف أنّ اسمها كان صعباً عليها في طفولتها، وكانت تنطقه مغلوطاً، أم محمّد العجوز، ضحكت بصوتها الخشن، وهي تسعل، وتقف بقامتها القصيرة أمامها قائلة:

– هلا، لا تقولي، عرفت أنّك فريدة. يا ميت السّلامة بابنة الغالية.

قبّلتها أم محمد وهي تنادي:

– رمزة، يا أم علي، ماري، يا نوال، يا فاطمة، تعالوا سلّموا على فريدة.

نهضن بسرعة، سلّمن عليها، فأحست أنّها لم تفارق الحي لحظة، حملـــت رمزة حمزة، وقبّلته، وصافحتها ماري، وترحّمت على والدتها،

ودمعت عينا نوال، وهي تحضنها، وغصّت أم محمّد عجوز الحي الطّيبة بكلمات التّرحيب، وافتعلت طرفة، روتها بسرعة، وضحكت، لتخرج النّسوة من جوّ الاستقبال، الذي كاد ينقلب إلى نواح على من رحلوا.

تخلّصت من الجمع واعدة إياهن بالانضمام إليهن بعد أن ترتاح من السّفر.

عبرت القنطرة، ووقفت بقلب يرتجف أمام الباب المفتوح.

لم يتغيّر شيء في البيت العتيق، أشجاره، شرفته الصّغيرة الّتي تعتلي الشّارع ببضع درجات حولها درابزين من الحجر، نُحت بشكل فني جميل. لم تتغيّر جدتها، عودها الجاف الطّويل، انحناءة خفيفة في ظهرها، وعينيها العميقتين كبئر، تغلقهما على الحزن، وهي تلف سيجارتها على مهل، تاركة التبغ المفروم يتساقط في حرجها، وعيناها معلقتان بالنّافذة، تنظران عبرها إلى أشجار الحديقة الخلفية.

لم تصدق العجوز أم مصطفى أنّها ترى حفيدتها أمامها، تخيّلت للحظات أنّها هاجر، تحوم حول النّافذة - كعادتها - مستغيثة بها، تمتمت بذهول: "يا قلبي". ارتمت فريدة قريباً من كرسيها، وبكت بحرقة. مسحت الجدة بيدها شعر فريدة، وهي تهمس:

- تركتُ لها الباب مفتوحاً، ما كانت تحب الأبواب المسكّرة.

كلمات جدتها أعادت إليها صورة أمّها وهي تختنق، وتتوسل "افتحوا الأبواب" عندما تهاجمها نوبة الربو، وتكتم أنفاسها. نشجت فريدة بصوت مسموع، ونسيت حمزة الواقف قرب الباب خائفاً من المشهد المرعب لتلك العجوز الّتي تحتضن أمّه الباكية. حتّى انتبهت الجدة فجأة إليه، قالت بصوت مرتجف يرافقه السّعال:

- مصطفى!

نهضت فريدة، حملت ابنها وهي تبتسم:

- حمزة يا جدتي، أليس جميلاً؟

نظرت أم مصطفى باستغراب إلى الطفل، وسألت باستنكار:

- متى تزوجتِ؟ ومين سعيد الحظ؟ لازم باشا من أصحاب أبوك الملعون.

لم تكن أم مصطفى تحبُّ علي باشا، وقد حمّلته ذنب موت ابنتها بسبب أنانيته، فقد سافر إلى بيروت، وهو يعرف وضعها الصّحي الحرج، وحين فاجأها المخاض ليلة الجمعة، لم تجد أم مصطفى قابلة تساعد ابنتها، و لم تجد طبيباً، وكان ملاك الموت ينتظر وراء الباب!

لم تشأ فريدة أن تدافع عن والدها، لأنّها لا تريد أن يزداد غضب جدتها منه، حاولت أن تغيّر الحديث، لكنّ جدتها ألحت كي تحكي لها تفاصيل كلّ شيء، منذ تركتها ورحلت مع والدها إلى الشّمال. و لم يكن أمام فريدة خيار، روت لجدتها كلّ ما حدث، حتّى اللحظة الّتي قررت فيها أن تهرب من بيتها، وتلجأ إليها.

أغمضت أم مصطفى عينيها ببطء، وهي تتمتم بكلمات مبهمة، ثمّ نهضت بتثاقل، توضأت، وصلّت العشاء، واتّجهت إلى غرفتها. تمددت في سريرها، ونادت فريدة، وهمست لها بضع كلمات، ونامت بهدوء. كانت المرّة الأولى الّتي تنام فيها بهذا العمق، منذ غادرت مرسين وهي في ميعة الصّبا. بعد سحب زوجها إلى حرب السّفر بر، عاشت "رقية المُهر" حياتها بعد ذلك بانتظار رجل مفقود، امتلكت اليقين بعودته، ورفضت بعنف كلّ الخُطّاب الذين تقدّموا إليها، ليس خوفاً على ولديها فقط، بل كانت تأمل أن يطلّ عليها عبد المعطي أنوس يوماً، معفراً بتراب السّفر، يحمل حقيبته وهداياه وشوقه إليها.

كانت تؤرخ لرحيل زوجها، برحيل طير الصّليب، إن لم تجد من تحدّثه، تهمس لنفسها بالقصّة: (من يوم صلّب الصّليب، وشفت السّما

ساكتة، قلت لحالي في شيء بدو يصير، يومها رجع عبد المعطي ووجهه أصـــفر مـــثل الورس[1]،كنت قاعدة في فسحة البيت الخلفية عم أسلق الباذنجان للمكدوس، ناولني أوقية الجوز اللي وصيته عليه، وقال لي: "يا رقـــية، أنـــا رايح، يمكن ما أرجع شوفك مرّة ثانية، ديري بالك على حالك، وادعي لي". وبعد ما مشي، صارت الدّنيا "قفرة نفرة" ما عاد أقـــدر أبلع الماء، صار مثل الشّوك في حلقي، الدّكاترة قالوا لي، موجة بـــرد بـــسبب التّيارات الهوائية اللي حملت طير الصّليب، بس أنا كنت بعرف الطّير اللي راح وما رجع، كل يوم بشوف عبد المعطي في منامي فارد جناحه وعم يعلّي في السّما، بكلّ قوتي بطير وراءه، بس ما بقدر أوصـــل. بناديه وبقول له، خليك شوي، ما بيلتفت، أوقات بشكّ أنّه هو، وبقول لحالي: "يا بنت حاج تتعبـــي، ما في فائدة". برجع بسمع صوته عم يقول لي: "يا رقية، أنا جوعان، أنا عطشان، رح موت، بدي شوفك، تعالي". ليش عم يناديني؟ بتصورك، شو السّبب؟).

لكنّ الأيام أبدلتها انتظاراً بانتظار، فراحت ترقب عودة مصطفى مـــن بـــيروت، وتراكمت الأيام بلا جدوى! رحلت ابنتها، وسافرت حفـــيدتها، وهـــي ما تزال ترفض تصديق وحدتها، وترفض العودة إلى أقاربها في مرسين، على الرغم من زيارتهم لها. وقد حاولت زوجة خالها شـــفيقة الوزّان أن تقنعها بالزواج ثانية كي لا تقتلها الوحدة، ويذهب الانـــتظار بعقلها، فاكتفت بتنهيدة حارّة، وأرسلت بصرها عبر النّافذة، فنهضت شفيقة مغادرة البيت، ولم تعد بعد ذلك لزيارتها.

خافـــت فـــريدة تلـــك الليلة من النّوم، وصارت تدور في البيت وجسدها يرتعش، وكلّ ساعة تطلّ على جدتها، فتجدها راقدة بهدوء، وأنفاســـها منـــتظمة. قرأت المعوذتين، وغطّت حمزة، وصنعت شاياً،

---

(1) الكركم.

وقهوة، وطلع الصّبح عليها، وهي جالسة على كرسي جدتها في زاوية الصّالة الكبيرة، عيناها محمرّتان، تتطلّعان عبر النّافذة إلى أشجار الرّمان المثقلة بحبات خضراء صغيرة. حين سمعت نحنحة جدتها، وهي تعبر الصّالة إلى المطبخ، اطمأن قلبها، وغفت في مكانها.

خشيت فريدة من فقدان جدتها بعد أن أخبرتها أنّها ستفرغ لها بالبيت بيعاً وشراءً، خافت من قرار جدتها لأنّه يوازي الرّحيل، وكأنّها تقول إنّ أيامها في الدّنيا باتت معدودة، وأنّها ستضمن لها عيشة كريمة بعدها. لم تكتف جدتها بالكلام، بل صحبتها في اليوم التّالي لتثبيت ذلك في "الشّهر العقاري"، نقلت ملكية البيت إلى اسمها. وقالت "اطمأنّ قلبي عليك يا روحي". بقيت فريدة قلقة، و لم تجرؤ مع ذلك أن تسأل جدتها "لماذا؟ وأين خالها؟ أليس هو صاحب الحق في البيت؟". فيما بعد،همست لها أمّ محمّد، عجوز الحي، وهي تجلس على الكرسي ذاته الخاص بجدتها قرب النّافذة: "إن شاء الله يا بنتي ما بتشوفي الأيام السّود اللي شافتها ستك[1]، ها الكرسي شؤم والله، قضّت رقيّة ثلاث أرباع عمرها، وهي قاعدة عليه، عم تستنى الغايبين. يا حسرة قلبي عليها، انتظارها لرجعة مصطفى، أكل عمرها وجسمها، ماتت قبل أوانها". ردّت فريدة بشرود: "ما حدا بيموت ناقص عمر يا خالتي أمّ محمّد، هذا العمر الذي كتبه لها سبحانه". قالت أمّ محمّد باحتجاج خفي: "صح، بس موت عن موت بيفرق، ماتت مقهورة، الله يرحمه مصطفى لو مات موتة طبيعية، ما ترك اللوعة بقلب أمّه، النّار بقيت بجسمها طول عمرها، بس الحمد لله برّدت قلبها آخر أيامها بحدا يورثها، أحسن ما كانت الأوقاف تأخذ البيت بعد موتها، وخصوصي بعد ما عرفت حقيقة موت ابنها". فتحت فريدة عينيها دهشة، وهي

(1) جدتك.

تسمع الحقيقة المرّة من فم أمّ محمّد، لقد مات خالها مصطفى في البحر، على الرغم من توسلاتها إليه ألاّ ينزل في تلك الليلة، ونوة "أبو الحصون"[1] في أشدّ حالاتها هياجاً. من كان يجرؤ على فعل ذلك؟ إنّها ليست بطولة، ولا حجة لديه، لا الجوع دفعه، ولا الحاجة ألقت به إلى أحضان البحر، إنّه العشق، أدركت رقيّة المُهر ذلك، أدركته بحاسة الأمومة، لكنّها عجزت عن منعه!

ربّما لم تعرف فريدة القوة الحقيقية الكامنة في جسد جدتها النّحيف، إلاّ عندما رأتها تتحرّك لتأمين مستقبلها بالسّعي لها لدى معارفها كي تحظى بساعات تدريس في مدرسة "فاطمة الزهراء" الثّانوية.

انتظمت حياة فريدة مع بدء العام الدّراسي، وكادت تنسى كلّ شيء يربطها بالماضي، لولا ذلك الجنين الذي يعيق حركتها أحياناً، ويذكّرها بآخر ليلة نام فيها ماهر في فراشها. حاولت أن تبعد تلك الأفكار الّتي تطاردها يومياً في طريقها الصّاعد شرقاً، إلى انحرافها جنوباً في شارع "القوتلي"، وحتى لحظة دخولها الصّف. واندماجها مع الطالبات في حصة اللغة الفرنسية. حاولت أن تتخلّص من وحدتها بإقامة علاقات مع المدرّسات، وفشلت. تدرك جيداً أنّها سبب فشل تلك العلاقات، فلم تكن بحاجة إلى اجتياز أسلاك شائكة صوب زميلاتها في المهنة، فقد كن مجموعة مدرِّسات منفتحات على الحياة، يمتلكن ثقافة عالية، وينتمين إلى طبقتها، وكانت تسعد بأحاديث هند هارون، ودعد إبراهيم، وفريدة مرقص الّتي مازحتها مرّة بقولها: "لا نحتاج لفريدة ثالثة ليطلع على وجهنا كنز، يكفي اثنتان". وكانت

(1) من أيام الحسوم: يعتقد العوام يقيناً، أنّ من ينزل إلى البحر في هذا اليوم، وتخطفه النوة، يموت كافراً، لأنّه على علم مسبق بخطورة الأمر.

هـــند في أوقات الفراغ تسمعهن على استحياء بعضاً من أشعارها، لم تكـــن وقـــتها قد خلعت الحجاب، وامتلكت الثّقة الكاملة بشاعريتها، خاصة وأنّ شهرة عزيزة[1] الطّاغية، قد غطّت على وجود هند المتعثر. على الرغم من حب فريدة للشّعر وهوسها بالروايات، لم تعد تميل إلى تلك الأحاديث، بل تقوقعت حول نفسها، وانكفأت إلى داخلها، تجترُّ أوهامـــاً وآلامـــاً، ضخَّمها الحمل، فغدت نفسيتها تسير من سيئ إلى أسوأ، حتّى جاء الخامس عشر من كانون الثاني، وشعرت بمغص حاد، منعها من السّير، فعادت أدراجها إلى البيت. حين رأتها جدتها على تلك الحالة، عرفت بخبرتها، أنّها ستلد، فأسرعت لارتداء ملابسها، وغادرت البـــيت مـــسرعة، لم تكد تصل "السّرايا القديمة" حتى فوجئت بعاصفة محمّلة بمطر غزير، التجأت إلى مدخل السّرايا بعض الوقت، وهي تدعو الله أن لا يطـــول الأمر، لتلحق زهيدة مورللي قبل خروجها. فقد كان مـــن عـــادة زهيدة أن تسافر كلَّ خميس إلى أهلها في جبلة، وإن كان لديها حالة ولادة.

لم يـــتوقف المطر، بل اشتد أكثر من قبل، واضطرت العجوز إلى المغامـــرة بعـــبور الـــشارع وهي تقول في نفسها "كلّها كام خطوة". وجدت زهيدة تحضّر حقيبتها، فقالت بحزم "أجّلي سفرك شوي، فريدة عم تتوجع، لازم تشوفيها". رافقتها زهيدة على مضض، وحين عاينت فريدة، عرفت أنّها لن تلد قبل منتصف الليل، ولم تفكّر طويلاً، أعطتها

(1) عزيـــزة هـــارون، شـــاعرة ســـورية مـــن مدينة اللاذقية/1923-1986. اشتهرت في الخمـــسينات وحتـــى وفاتهـــا، كانت مقيمة في دمشق، ولها برنامج في الإذاعة السورية، تـــزوجت من قدري بيك المفتي، وكان نائباً في البرلمان السوري، جاء ذكره في الجزءين الأول والثاني من جبل السمّاق. لم تطبع شعرها في حياتها، صدر لها ديوان بعد وفاتها.
هـــند هـــارون: شاعرة سورية من مدينة اللاذقية/1928-1995. عملت في التعليم، وأصـــبحت فـــيما بعد مديرة ثانوية الكرامة للبنات، لها: سارقة المعبد، ديوان عمار، وهو في رثاء ابنها الوحيد الذي مات شاباً وديوان شمس الحب.

إبـــرة لتسريع الطّلق، غير آبهة بما يمكن أن يحدث لها من تمزق في الرحم أو نـــــزف. مددتها على السّرير، وخلال ساعة كان صراخ فريدة يملأ الحي، وبكاء طفلة غضة، يخرج متقطعاً خافتاً خجولاً.

ابتـــسمت أم مـــصطفى، ونقدت زهيدة أجرتها، وتكفّلت بباقي العمل، لأنّ زهيدة كانت مستعجلة تريد اللحاق بالحافلة!

* * *

(3)

لم تكن الصّدمة كبيرة بالشكل الذي توقعه عبد الحي، فقد اكتفى ابنه بتأمل السّرايا الكئيبة، وخرج صافقاً الباب خلفه.

حين استرخى جسده على مقعد الحافلة، داهمته صورة حمزة وهو يخطو صوبه، ويناديه بحروف متعثرة "بابا". ارتجف قلبه، وأحسّ بنار الغيظ تأكل أطرافه، وتزيد نقمته على فريدة اضطراماً. حاول أن يتخيل قامة أطول لحمزة، ويضيف إلى ملامحه تغيراً بفعل السّنتين اللتين قضاهما في السّجن، لكنّه لم يحصل على صورة ترضيه، فاكتفى برؤيته وهو يمشي متعثراً، ويقع أرضاً. انتبه بخجل إلى أنّه لم يصل حلب بعد. كان لحضور حمزة وقعه الخاص، فقد ساعده على احتمال قسوة السّجن، وتناقضاته، ووحدته، طيلة الفترة الّتي قضاها هناك حالماً بالحريّة الّتي ستمنحه لذة احتضان طفله والتّجوّل معه في الجبال؛ كثيراً ما رآه يمسك بيده، يتسلّقان معاً الوعرة، ويقفان على القمة، يتأملان السّهل والوادي، ويتحدّثان عن المستقبل!. يخطط لابنه حياة مختلفة، مليئة بالنّجاحات، ويراه رأي العين، شاباً قوياً مستقيماً، يراه مهندساً يملأ العين والرّوح، يعوضه عن فشل لا زال يرافقه منذ ترك الكلتاوية قبل انتهاء مدّة دراسته فيها، وحتّى لحظة خروجه من السّجن. شعر بقوة أنّ قراراته كلّها كانت خاطئة، وأراد أن يتمسك بأمل وحيد، أن يرى ابنه ناجحاً بإرادته هو، ليهدأ ذلك الجرح الذي لا يفتأ يؤلمه، كلّما فكّر بما آل إليه حاله.

لم يعرف إلى أين يتّجه حين نـــزل في كرّاج "باب الفرج"، أدار ظهـــره للـــسّاعة[1]، ويمم وجهه إلى "بحسيتا"[2]، تردد قليلاً في ولوج الحي، وهو ينظر إلى المكتبة الوطنية، هز رأسه ضاحكاً للفكرة السّاخرة الّـــتي خطرت له عن تجاور الثقافات! شكّلت السّاعة مع الحي والمكتبة شبه مثلث في ذهنه، فوجد نفسه يختار الضلع الذي يذهب بالعقل عن طـــريق الجـــسد. قبل أن يدلف الزقاق، شعر بيد تربت كتفه، التفت مستغرباً، وكاد يصرخ بانفعال، لكنّ صالح لم يترك له الفرصة، احتضنه بشوق، وهو يقول:

- أراك عدت إلى النبع.

أراد أن ينفي التّهمة عنه، فسبقه صالح قائلاً:

- أتخجل من الحقيقة؟ يا لك من غر، تعال.

تـــأبط ذراعه، وكأنّه يخشى أن يهرب أو يغيّر رأيه. دخلا البيت الثّالث على اليمين، سحبه صالح عبر السّاحة الدّاخلية، إلى غرفة ترتفع عتبتها عدّة درجات. الغريب أنّه لم يرَ فتاة أثناء عبوره باحة الدّار، و لم يلمح نافذة مفتوحة، وتصوّر أنّ البيت خالٍ من البشر، وتأكّد حدسه، حين دخل الغرفة القبلية وراء صالح، فوجدها مرتبة، وخالية!

تمدد صالح على الأريكة، ودعاه لفعل الشيء ذاته:

- أرح جسدك، نحن وحدنا، لن تأتي لحلوحة قبل الثّامنة.

وضحك بصوت مرتفع.

لم يهتم كثيراً بالطّرفة الّتي ألقاها صالح وهو يغمز بعينه، و لم يفكّر بمعـــناها، انشغل ذهنه في تلك اللحظة في حل العقد المستعصية، وفك تشابك مشاعره تجاه فريدة. فعلى الرغم من نقمته المتصاعدة عليها، إلاّ

---

(1) ساعة باب الفرج.

(2) بحسيتا: حي مرخص للعاهرات في حلب. أزيل في بداية الثمانينات.

أنّــه فكّــر بحياد بتأثير انفصاله عنها على ولده. نظراته العالقة في نقطة محــددة من السّقف، جعلته يشعر تدريجياً برغبة في النّوم، لم تلح عليه طويلاً، بل سحبته برفق، وغطّت عينيه بغلالة رقيقة من الخدر، قبل أن يحسم الصّراع لصالح أحد.

أحــسّ أنّ جسده يسبح وسط لجة هلامية الشّكل، تبتلعه أفواه، وتلفظــه أخرى، تتحرّك أعضاؤه من دون إرادته فلا يستطيع السّيطرة علــى ارتجــاف ســاقيه، ولا هــو قادرٌ على فتح عينيه للخروج من الكابــوس، مع إدراكه الكامل أنّه غارق في النّوم!. سمع في تلك الأثناء حديــثاً هامساً، عرف صوت صالح ذي البحة الشّجية، و لم يتمكّن من الــتقاط تفاصــيل الصّوت الآخر، لكنّ الكلمات تسلّلت إلى حواسه بــبطء، فنبّهــتها إلى شــيء يحاك في العتمة، أهي مؤامرة جديدة ضدّ وجوده؟ ليس جديداً ذلك الإحساس الرّهيب بالانكسار والخيبة، كثيراً مــا فاجأه أثناء دراسته للحقوق، وفي بداية زواجه، وفي فترة السّجن، حتّى كاد يلازمه كظله!

كــسر حــدّة الهمس بينهما صوتُها الدافئ، اندفعت إلى الغرفة كعاصــفة، وهي تضحك. خرج لحظتها نهائياً من الحلم، وأبقى عينيه مغمضتين، استنفرت حواسه كلّها، شمّ رائحة عطرها الثقيل، ولفحته حــرارة جسد جلس قربه. أحبّ تلك اللعبة الّتي تفتّق عنها ذهنه، تخيّل شــكلها، ولمس بيديه أثير جسدها، ورآها بعين مخيلته تضطجع بجانبه. قالت:

- ألم تشبعوا من الحديث في السّياسة؟ لعنها الله.

قال صالح وهو يضحك من خلال سعاله المتقطع:

- المــشكلة أنّها تجري في دمنا، والدّم لا نستطيع تبديله، لو كانت على الجلد لسلخناه وارتحنا. الآن عندنا مشكلة علينا أن نحلها قبل أنْ...

أحسّ بيدي صالح تشيران نحوه بما يعني "قبل أن يستيقظ". لم يكن صعباً أن يفهم طبيعة المشكلة الّتي أشار إليها صالح. يكفي أن يفتح عينيه، ليعرف مَنْ حوله أنّه فهم كلّ شيء. لكنّه اكتفى بالمحافظة على استرخاء جسده، وتنبّه حواسه إلى ما يجري.

نهضت لحلوحة من جانبه، ورآها من خلف الجفن المغمض، تقدّم للضيف شيئاً بدلالها المعروف. استرجعت ذاكرته ما يعرفه عنها، منذ كانت في البلد حبيسة الخان، إلى اللحظة الّتي رآها فيها عند مدير المخابرات "بدر". اللقاء الأوّل اكتسب لون الدّهشة، وتضرّج بحمرة الارتباك، كان في العاشرة من عمره حين أرسله والده ليستدعي حويسي من الخان، من أجل أمر هام يتعلّق بعلي باشا، لن ينسى شكل حويسي المضحك، وهو يتدحرج بقامته الضّخمة على الدّرج، ويحاول ربط "دكّة" سرواله، ويعدّل وضع عقاله فوق حطّته، لمحها تتكئ على "الدّرابزين"، تتدلّى ضفيرتاها العسليتان خارج السّور الحديدي، وتغوص غمازتاها في وجه مدوّر كرغيف خبز خرج من التّنور للتو! وقعت ضحكتها في سمعه ملوّنة كقوس قزح، في تلك الأثناء كان يحلو له الربط بين الأصوات والألوان، فيرسم في مخيلته لوناً لكلّ صوت يسمعه، وأجمل ما لديه من ألوان، لون قوس قزح، ولون شمسٍ برتقالية تغطسُ وسط غيمٍ ربيعي ماطر. ضحكتها بقيت في مخيلته زمناً طويلاً، كثيراً ما اشتهى أن تضحك زهرة تلك الضحكة له، فتحمل إيقاع الخصب، وتجدد الحياة، لكنّ زهرة كانت تغرغر بالضّحكة، وتكتمها بأصابعها، خشية أن يضبطها أحد وهي تحدّثه سرّاً. أمّا فريدة فقد اكتفت بابتسامة شاحبة تشبه لون ليمونة ذابلة في شجرة مهملة. لم يهتم كثيراً بمعرفة السّبب الذي جعل حياته تتصحّر بتلك الصّورة، ولم يعنه يوماً البحث عن علاقة تروي عطشه إلى

الحبّ، أو حتّى علاقة عابرة يمارس من خلالها جنوناً كالذي يحدّثه عنه صالح.

لقـــاؤه الثاني بلحلوحة اتّشح بلون رمادي علق بحلقه زمناً طويلاً وهو في السّجن. كانت في مكتب بدر حين أدخلوه إليه للتّحقيق. ربّما كـــان وجودها صدفة حسنة، فقد اكتفى بعدّة أسئلة، وصفعتين أطارتا صوابه، وأمر بإلقائه في حبس "الأجانب".

أراحـــه الاســـم البرّاق للسجن، وابتسم في سرّه معتقداً أنّ بدراً أرســـله في نـــزهة، مكتفياً بتوبيخه، وذهب بعيداً في تصوراته، فنسب ذلـــك التّسامح إلى وجود لحلوحة عند بدر. الشّيء الوحيد الذي شغل ذهنه في تلك الأثناء طبيعة العلاقة بين بدر ولحلوحة. لم يطل تفكيره في ذلـــك الأمر، فقد وأده وصوله إلى الطّريق الجنوبـــي المؤدي إلى باب الحديد، تطلّع بفزع إلى المقبرة الواقعة تحت الرّابية العالية، وحدّق بباب السّجن، فرك عينيه مراراً، رافضاً التّصديق أنّ السّجن تحت المقبرة! دفعه العسكري داخل ساحة صغيرة بشكل شبه منحرف محفورة في الصّخر الكلسي، تسلّقت نظراته جدران الصّخر المحيطة بها، قدّر المسافة بعشرة أمـــتار، وشـــهق بألم، رأى نفسه يتدلّى في جب عميق، تقتنصه العتمة ورجعُ صدى أصوات سكنت هنا منذ أجيال. عرف أنّ وراء الجدران أســـلاك شائكة، وأنّ هذا السّجن لا يختلف عن بئر في صحراء واسعة، لن يهتدي أحد إلى طريق للخروج من متاهتها.

وجـــد نفسه ملقىً في مغارة صغيرة، وقد أُغلق بابها بإحكام على جـــسده المـــتعب. غرق في النّوم فور استقبال الأرض الرطبة لجسده. وحـــين أفـــاق، تملّكه الرعب وهو يسمع أصواتاً تخيّل أنّها صادرة عن القـــبور فوقه. قضى ليلته الأولى وهو يرى أشباحاً تقترب منه بوجوهها البيـــضاء الشّفافة، وتخترق جسده وتعبر الجدار والسّقف. صار يصرخ

حتّى شلّ لسانه الرعب، وبقي على تلك الحالة زمناً لا يعلمه. قدّر أنّه يـــوم كامـــل! وحين لمح الحارس يفتح الباب، هجم عليه يريد خنقه، تـــراجع الحارس، وأغلق الباب ثانية، وعاقبه بتركه في المغارة بلا طعام، ومنعَه من الخروج إلى السّاحة!

أخطـــأ بظنه أنّ حبسه لن يطول، وأنّ معتقليه سيكتشفون خلال أيـــام، أنّـــه نظيف اليد من التّهم الّتي وجّهت إليه. لكنّ الأيام توالت، وطالت، وجعلت إحساسه بنهايته يتضخّم، حتّى استسلم أخيراً لمصيره، ناســـفاً تلك الفكرة المضحكة، الّتي دغدغت مشاعره زمناً، فكرة مرور القافلـــة بالجب وإنقاذه!. أدرك بيأس أنّ أحداً لن يفطن إليه، وانقطع بـــشكلٍ كامل عن العالم الخارجي، بعد أن منعوا عنه الزيارة. تدريجياً صـــار يكـــره الخروج إلى الفسحة ساعة التّنفس، صار يكره الجدران الكلـــسية العالية، كره ذلك البياض الذي يضطر حدقته إلى الانكماش، لتتعوّد على الفرق بين الظّلام والنّور. كره نفسه، وأهمل جسده أيضاً. وصـــار في الفترة الأخيرة يتمنّى الموت، كي تفرّ روحه إلى أفق رحب، يستطيع من خلاله رؤية وجه حمزة، معانقة أشجار الجبل، رؤية زهرة! لا يعـــرف ما الذي يجعل حلمه بالحصول على سرايا تشبه سرايا أسعد باشا، وتقديمها هدية لزهرة، يلحّ بحضوره مجدداً في جوّ السّجن المقيت. لكنّه رأى في ذلك الحلم طاقة نور، أعادت إليه صوراً من الحياة خارج الأســـوار، وعاوده أمل بمرور قافلة قرب البئر. تأخر تحقيق الحلم سنتين كاملـــتين قضاهما على جنب واحد حسب تعبير المساجين، وجد نفسه بـــشكل قـــسري يحتك برفاقه في السّجن، ويتعرّف على معظمهم، بل ويتعلّم منهم أيضاً شغل الخرز! كان ينظر إلى تلك الأشياء الّتي يشتغلها السّجناء بدأب وصبر، على أنّها أشياء سخيفة، يرسلونها هدايا لمعارفهم خـــارج الـــسّجن، لكنّه حين تعلّم كيف يشتغل مثلهم، وجد في ذلك

مـــتعة، ثمّ وجـــده طريقة للتّعبير عن الأفكار والأحاسيس الّتي تعتمل داخله. في البداية قلّد ما يفعله زملاؤه، واختار وجوهاً، ثمّ راح يشكّل حروفاً بطريقة فنية، تعبّر عن أحاسيسه وصنع منها حقيبة صغيرة، حلم أن تكـــون هديته لحمزة. أخرجها من صرة الملابس وهو في طريقه إلى البلد، وحدّق فيها وهو يتخيّل كم سيفرح حمزة بألوانها. لكنّه لم يحصد من الحلم سوى خيبة الأمل.

قاوم للحظات رغبته في فتح عينيه، لكنّه لم يجد بداً من مواجهة ما يجـــري حوله، وهو في منتهى اليقظة. أوّل شخص لاحظ نظرته المحدّقة في الوجوه كان لحلوحة، غمزت بعينها، وهي تضحك:

- نـــوم العـــوافي، الظاهـــر عجبك هوانا، الهوا عنا بيرد الروح، وبينسي المجروح.

ضـــحك أبو فراس وصالح ضحكة مجلجلة، أحسّ جرسها المفتعل يخرج من حنجرتيهما صادماً أذنيه. قال أبو فراس بنبرة جادة:

- مـــن طول عمرك شاعرة، من لها روحك المرحة، لا يمكنها أن تقبل العيش في قفص.

أطـــرقت لحلـــوحة بحزن، وكأنّ ما قيل لم يكن مديحاً، بل طعنة وجّهها إلى روحها بمهارة، ذاك الذي فرض وصايته على جسدها، منذ وطئت قدمها حي العاهرات، وحتّى اللحظة. وهي على يقين أنّ تلك الوصـــاية ستبقى طيلة بقائها على قيد الحياة. لم تشعر يوماً بمقت لتلك الوصـــاية قـــدر شعورها في هذه اللحظة، أهو ماهر؟ لم تسمح لنفسها بالمضي أكثر من ذلك في تساؤلها، فهي تعرف بحدسها وفطرتها أنْ مثله لا ينظر إليها، وإن تاقت نفسها لمغامرة محفوفة بالمخاطر، تلقي فيها هذا الجسد المشتعل رغبة في أتون التّجربة المختلفة، رامية رقابة "أبو فراس" ووصـــايته وراء ظهـــرها. حدّقت في وجهه للحظات، لم تكن تستبعد

وجود شيء مشترك بينهما، و لم تفكّر بفارق السّن الكبير، ما هي على يقين منه بحكم التّجربة، أنّ الرجل إن أصابه سهم العشق لا يرى أمامه سوى ما يحبّ أن يراه. همست لنفسها "فريدة تكبره بعشر سنوات، لم لا ينظر إليّ؟".

لاحظ نظراتها المتلصصة، وفهم بسرعة سرّ ارتعاش يدها وهي تناوله كأس الشّاي السّاخن، لامست أصابعها يده، فأحسّ بحرارة تلسعه، أدرك أنّها لم تكن من الكأس، وأنّ وراء اللمسة العفوية الخاطفة رسالة أرادت أن تصله. رفع وجهه إليها، من دون مقدمات أفصحت عيناه عن موافقة مبدئية على دعوتها السّرية. سمع صوت "أبو فراس" يقول:

- الحمد لله على سلامتك، عرفت منذ مدّة أنّهم سيطلقون سراحك، لكن لم أحب أن أخبرك وأنت في السّجن، كي لا أظهر في الصّورة.

تمتم كلمات شكر غير مفهومة، ونظراته تتعلّق بوجه صالح، الذي عقّب قائلاً:

- أبو فراس سعى لإطلاق سراحك فور حصوله على منصبه الجديد، تعرف كم يعزك.

يعرف! ماذا يعرف؟ أبو فراس يعزه؟ ما المناسبة؟ كأسان شربهما على طاولته في الشّهبندر، وبضع سهرات في بيته، سمّاها صالح سهرات الأنس، هل يكفي ذلك ليكون له عند "أبو فراس" معزة خاصة؟. قال بلامبالاة:

- ألف مبروك المنصب الجديد، ولو أنّي لا أعرف ما هو؟

تدخلت لحوحة في تلك اللحظة قائلة بنبرات حمّلتها دلالة خاصة:

- معقول؟ لا تعرف! أبو فراس صار مساعد بدر الأوّل، لا يرفع يده عن ساقه من دون مشورته.

ضحك صالح، وغمزه:

- ومـــن أين له أن يعرف؟ قال، "أشو صار لك في القصر؟ قال امبارح العصر" يعني الرجل لم يدرك بعد أنّه خارج السّجن!

لمـــس جـــسده، وحدّق فيما حوله ليتأكد أنّه فعلاً غادر البيضة بجـــدرانها الكلـــسية المقيتة، شعر أنّه خرج لتوه إلى الحياة، وأنّ بدايته ستكون من هنا. لم يكن شعوره ذاك خاطئاً، لقد أدرك أنّه دخل الفخ بكامـــل وعيه، وأنّه راضٍ تماماً عن تبعات تصرفه هذا، ولن يندم يوماً علـــى شيء. ولماذا يندم؟ أليس التّحالف مع الشّيطان ممثلاً ببدر رئيس المخابـــرات، أفضل من النّوم سنوات داخل مغارة كلسية تحت مقبرة؟ تنطـــبق جدرانها على الجسد لتزهق الرّوح ببطء قاتل. لم يكن مهماً أن يقتنع بأنّ هذا الحل هو الأمثل، أراد فقط أن يفرغ شحنات الحقد الّتي نخـــرت صـــدره طيلة سنتين ونيف، وهو يعاني من الوحدة والفراغ، ويصارع الأشباح والكوابيس القاتلة. أراد أن يقول بطريقة غير مباشرة إنّ حقّـــه لن يضيع، وأنّه سينتقم ممن كانوا سبباً في انحراف حياته عن مسارها الهادئ. انتبه من شروده على صوت "أبو فراس" يقول:

- حسناً، لنكمل السّهرة عندي، فالمكان غير مناسب للحديث في السّياسة.

نهـــض صـــالح، وتبعه صامتاً، وتأخرت لحلوحة في الخروج من الغـــرفة. حين وصولهم إلى المدخل الضيق، شعر بأنفاسها تلفح كتفه، همست"امتى رح شوفك؟" لم يلتفت، خاطب صالح بصوت مسموع:

- عندك شيء يوم الأحد؟

ردّ صالح:

- لا، ما مشاريعك؟

قال:

- لا شيء محدد، نتفق فيما بعد.

لكزه وهما يعبران الزقاق، ويتّجهان شمالاً:

- يا لئيم، تظنني لا أفهم. تريد رؤيتها؟

قال بضيق:

- رؤية من؟

- لحلوحة، بس كبيرة عليك، عندها بنات غير شكل، ماذا تريد من امرأة ودّعت الشّباب؟ ولا لسه بتصدق قول العوام "الدّهن في العتاقي" يا رجل، بلا دهن بلا شحم، شوف لك شي بنت دلوعة، ولاّ خلص تعودت.

على الرغم من أنّ كلام صالح كان مزاحاً، إلاّ أنّه أصابه في الصّميم، وجعله يفكّر بشكل جدي، ما الذي يدفعه نحو لحلوحة؟ أهي تلك الصّورة القديمة للصبية الفاتنة المتكئة على سور درج الخان، تضحك للشّمس وزرقة السّماء فتورق وجنتاها بألف وردة! أهي خفقات قلبه لتلك النّظرات الشّاردة عبر النّافذة المطلة على ساحة السّوق؟ ما آله أكثر ربط الأمر بزواجه من فريدة. كلُّ شيء في حياته مرتبط بلحظة التّحوّل تلك، الّتي جعلته زوجاً لامرأة مطلقة تكبره بعشر سنوات. حلم بها يوماً كما يحلم الفتيان الفقراء في الحكايات بابنة الملك، الّتي تسكن برجاً عالياً، واكتشف أنّ الأحلام، تفقد بريقها وحلاوتها وإدهاشها، حين تتحوّل إلى واقع، بل تصدم صاحبها بقدر كبير من المرارة، فيعرف كم كان أحمق حين استسلم للأوهام بقناعة تقترب من اليقين.

لم يعقّب على كلام صالح، بقي صامتاً طوال الطّريق إلى بيت "أبو فراس" الواقع في حي الجميلية على الزاوية المقابلة لمقهى العطري. صعد

الـــدّرج وراء صـــالح ببطء خشية الانـــزلاق على البلاط الأملس، في الفسحة الثّالثة للدّرج، توقف لالتقاط أنفاسه، وسأل بضيق:

- ألا زال أمامنا الكثير؟

قال صالح، وهو يلهث:

- وصلنا، كلّها بضع درجات.

على يسار المدخل الضيق، دلف إلى غرفة صغيرة ضيقة بأثاث عتيق، تطـــلُّ علـــى منور، تتصاعد منه بين الفينة والأخرى أصوات السكّان في الطّوابـــق السّفلى، وأطفال يلعبون على الشّرفات. حمل النّسيم إليه رائحة ياسمين قادمة من شرفة مجاورة، لمح فيها طيف امرأة، تتوارى خلف أصص الزرع المرصوصة على شرفة لا تتجاوز مساحتها المترين طولاً والمتر عرضاً، ذكّـــرته بزنـــزانته، على الرغم من انفتاحها على أفق واسع، يضحك في عتمـــته قمـــر شاحب، أطلّ على استحياء من فسحة الأبنية العالية. شعر بالهـــدوء يسود كلّ ما حوله، وسمع صوت خطوات "أبو فراس" في المطبخ المقابـــل للغرفة. عرف أنّه لا يوجد أحد في البيت، لكنّ فضوله لم يتحرّك لمعرفة إن كان "أبو فراس" لا زال عازباً، أم أنّ زوجته تسكن في بلدته.

أفاق على صوت صالح يقول:

- وين صرت؟

قال بآلية:

- لا أدري، أفكّر بما آلت إليه حالي.

قال صالح ضاحكاً:

- ومـــا به حالك؟ أحسن من ناس كثيرين يموتون في اليوم ألف ميتة من أجل لقمة الخبز، الحمد لله، الله فاتحها عليك من باب واسع.

نعـــم، نظـــرياً يبدو كلام صالح صحيحاً، لكنّه في أعماقه يرى العكس، يرى نفسه أفقر خلق الله إلى كلّ شيء في الوجود. لم يحب أن

يـــدخل مع صالح في نقاش لن يؤدي إلى شيء في المحصلة، فاكتفى بهز رأسه، وتناول فنجان الشّاي من يد "أبو فراس" الذي دخل الغرفة لتوه، وهو يشتم الوحدة. غمز صالح بعينه قائلاً:

- والله معـــك حـــق، لقد أثبت الواقع مساوئها بما لا يدع مجالاً للشك. المهم أنّنا ندخل الآن عهداً جديداً نحتاج فيه إلى كادر نظيف.

قال أبو فراس:

- ما أسرع ما تحوّل الحديث إلى السّياسة، لم أقصد ما فهمته.

قال صالح:

- أعرف، ولكنّي أحبّ أن أصل إلى "الزبدة" من الكلام مباشرة، عرفت أنّك ستنتقل إلى الحديث عن الوحدة بأشكالها، وصيغها اللغوية والحياتية، بصراحة لا صبر لي على المقدمات الطويلة.

التفت إلى ماهر:

- هل أخطأت؟

اضطر ماهر لمسايرته، عندها قال صالح:

- حـــسناً، أنـــت أيضاً جعلت الطّريق أقصر للتّفاهم، الموضوع باختصار أنّنا نريدك معنا.

ردّ ماهر بدهشة:

- معكم؟ من أنتم؟

قال أبو فراس بجدية:

- شـــوف أخي ماهر، أنت تعرف، ونحن نعرف، لا يوجد شيء مخبّأ عليك. لا أظن أنّك تريد نسيان من جعلوك تقضي أكثر من سنتين في السّجن بعيداً عن بيتك وعائلتك. هل رأيت حمزة؟

لم يكـــن بحاجة لذاك السّؤال، فقد ضرب أبو فراس مكان الألم بقـــسوة، أدرك ما يرمي إليه، وإن خاف مواجهته حين انطلاقه بجناحي

الحـــريّة خـــارج الأسوار. خشي من ضياع حريته ثانية على الرّغم من الانفـــصال، الـــذي بات واضحاً أنّه قضى على نفوذ السرّاج وعصبته نهائياً. مع هذا لم يستطع نسف الخوف المتغلغل عميقاً تحت جلده. شعر أنّ العـــيون ذاتها ترصد خطواته منذ ودّع باب السّجن الصّدئ، وحتّى لحظة دخوله بيت لحلوحة في بحسيتا.

حدّق بوجه "أبو فراس" بذهول، وهو يخبره بالتّفصيل عن مراقبته له أثناء السّجن، وكيف دسّ له محكوم من طرفه، زوّده بمعلومات دقيقة عن أخباره ويومياته في الدّاخل.

وختم قوله:

- باختـــصار أخـــي ماهر، من الآخر، كما قال صالح، مصلحتنا واحـــدة، أنت تريد الانتقام ممن كان سبباً في دخولك السّجن، ونحن غايتنا القضاء على الفوضى، والمخرّبين الذين يخدعون النّاس باسم الدّين والحريّة ومناصرة الوحدة. لن نختلف حول الهدف، ولا أظننا سنختلف حول الوسيلة.

قال ببرود:

- هـــل أفهـــم مـــن كلامـــك أنّـــك تريدني أن أنتسب إلى حزبكم؟

قال أبو فراس:

- لا، أبداً، بل أريد منك البقاء في حزبك، وعدم إظهار معرفتك بالفاعـــل الذي أرسلك إلى السّجن. مصلحتنا المشتركة تقضي أن يثق بـــك الأخـــوان، ويعتـــبروك بطلاً، وأنت بطلٌ في المحصلة، دفعت ثمن مـــبادئك مـــن حريّتك، وعانيت من قسوة السّجن وإرهاب السّلطة الكـــثير، بينما هم نائمون في مخادع نسائهم. عليهم الآن أن يدفعوا ثمن ما فعلوه بك، ألست معي؟

كـــلام "أبـــو فراس" مقنع حتماً، وفوق ذلك فكّر فيه طيلة مدة ســـجنه، لكـــن عندما امتلأت رئتاه بهواء الجبل النّظيف، واستعادت حدقـــتاه صـــور الأماكن الحقيقية، خاف أن يخوض مستنقع الكراهية، فـــيودي به إلى عتمة جديدة! خاف أن يقضي عمره بين جدران رطبة تحيط بها أسوار عالية، تمنع عنه الضّوء والهواء، وأسلاك شائكة تقول له، إنّه لن يستطيع الفكاك من أسرها ما دام حيّاً. أليس من حقّه أن يخاف؟

قال صالح، وكأنّما يقرأ أفكاره:

- لولا الخوف، ما اخترع الجسد وسائله للدّفاع عن النّفس. أنت أولاً تدافع عن نفسك ووجودك، وعائلتك، فكّر بابنك ومستقبله.

حمـــزة! النّصل الذي يلغ جرحه، فيشعر بلذة الألم. نعم سيفكّر بابنه فقط، حدّث نفسه: لكن... شخصٌ واحد قام بالوشاية، ما ذنب الجماعة كي يقف ضدّها؟. هزّ رأسه بأسف، وهو يؤكد لنفسه مشجعاً على المضي وراء "أبو فراس" لا يمكن أن يكون الأمر فردياً، لا يعقل أن يتـــصرّف عضو في الحزب هذا التّصرف من دون علم القيادة، أو بلا مساندة من أحد، لا بدّ أنّهم اتفقوا ضدّه. لكن... لماذا؟ حيّره السّؤال، ولم يستطع إيجاد إجابة مقنعة. لم يستطع أن يبرر الكراهية الّتي جعلتهم يدفعـــون بـــه إلى السّجن. انتهى للاقتناع الكامل بطلب "أبو فراس". صورة الانتقام هي الوحيدة الّتي احتلّت مخيلته، ولوّنت الأفق بالرّماد. لم يعـــد يهتم كثيراً بالبحث عن مبررات لمن تسبب له بالأذى، بل اكتفى بالـــبحث عـــن الأسلوب الذي سيردُّ به الطعنة بأقسى منها. وأغمض عينيه بارتياح على عبارة واحدة" البادئ أظلم، والجراح قصاص".

حين استقبله الشّارع المظلم الخالي من المارّة، شبك ذراعه بذراع صالح، وهمس:

- إلى أين سنذهب؟

– ما رأيك أن نستعيد ذكرياتنا في "الشّهبندر" مع كأسين يعيدان الصّحو لرأسينا؟

قال بشرود:

– أنا لا أريد أن أصحو.

قال صالح:

– لا بأس عليك، الكأسان يمكنهما أن يدفعا بثالث يُذهب عنك العقل والصّحو، ما رأيك؟ أم أنّ لك قِبلة أخرى؟

أحسّ في داخله برغبة طاغية تدفعه نحوها، لكن كيف سيفلت من صالح قبل أن يعلم بما في نفسه؟ تيقّن أنّ صديقه يفهم ما يدور في رأسه. فهو الوحيد الذي استطاع أن يتأقلم معه عندما درسا معاً في "الكلّتاوية". لكن سرعان ما طرد صالح لهربه المتكرر، وحده كان يعرف أنّه يسهر في الشّهبندر، ويذهب إلى بحسيتا، وكثيراً ما كذب لأجله، كي يحصل على مصروفه من أبيه، وغطّى غيابه أمام مدرّسيه، مع هذا لم يكن ذلك يحرجه، فقد كان مقتنعاً أنّه يخدم صديقه الأثير. والآن؟ يريدها وبقوة، لن ينتظر حتّى الأحد، يريد رؤيتها قبل فريدة، تصوّر أنّه بذلك يصل إلى إذلال فريدة. فألحّ عليه خاطرٌ يقول: "هل تستطيع مواجهتها بما ستفعله؟". ضحك بصوت عال، واكتشف مباشرة أنّ صدى الصّوت يقرع أذنيه، وأنّ الشّارع الخالي يحدّق فيه باستغراب. قال صالح:

– حسناً، أتريد أن أوصلك إلى هناك؟ أم تفضّل الذّهاب وحدك؟

سحب كفه من يد صالح، وحثّ خطاه من دون أن يجيب، دار حول السّاعة، وتأمل المحلّات المغلقة، واقترب من مدخل الزقاق، دسّ في يد الحارس الجديد ليرة، وهو يحدّق في ملامحه، ويرى "أبو فراس" في المكان نفسه. ضحك من أعماقه للذكرى. في المرّة الأولى الّتي وطئت

فـــيها قـــدماه عتبة الزقاق، تعرّف على "أبو فراس" كان يقف هنا في الـــزاوية نفسها. سلّم عليه صالح، ونقده ليرتين ليتغاضى عن دخولهما. حـــين ســـأله عـــن السّبب، قال: "علينا إسكاته، فنحن لم نبلغ السّن القانونـــية المـــسموح بها للدخول إلى العاهرات". وأتبع ذلك بضحكة عالـــية، ارتج لها قلبه، تردد وقتها في الدّخول، وحين دفعه صالح أمامه بقـــوة، جلس على حافة السّرير، و لم يجرؤ على رفع رأسه لتأمل الفتاة الّـــتي دخلت عليه في ذلك الوقت. ارتبك كما يفعل أمام الشّيخ عمر، وغـــرق في عرقه. لم يعرف ماذا سيفعل. فسألها إن كانت متضايقة من وجـــوده؟ لم ترد، ارتمت على السّرير، وبحركة سريعة، كشفت ثوبها، وباعـــدت بـــين ساقيها، وهي تلوك مضغة لبان كبيرة، استفزه ذلك الـــصوت الذي يصدر عنها وهي تنفخها بقوة فتنفجر تاركة دوياً في أذنـــيه! تيبست أعضاؤه عندما أمسكت يده، وشدّته بغلظة وغضب، كـــاد يستسلم لذاك الدّفء المتسرب من أصابعها وهي تسحب يده، وتـــضعها في حجرها، لكنّه حين رفع وجهه لينظر إليها، رأى شيئاً لم يـــستطع عقله أن يستوعبه بالسّرعة المطلوبة، وسمع صوت الشّيخ عمر، وهـــو يلوّح بنارٍ جهنم كعقاب، ينتظر من تسوّل له نفسه ارتكاب إثم النظـــر إلى امرأة ليست حلالاً له. نهض بسرعة، وغادر المكان، ركض مبـــتعداً عن الزقاق، لا يلوي على شيء، لكنّ ضحكاتها بقيت تلاحقه ساخرة من جبنه زمناً طويلاً.

توقف أمام باب لحلوحة متردداً، لماذا يتردد؟ أليست من ستوصله إلى إذلال فريدة والتّخلص من سطوتها على حياته؟

فاجـــأه أن يراها وقد هيّأت نفسها لتلقاه، لم تترك له مجالاً ليبدي اســـتغرابه، اقتربت منه وشعرها يقطر ماءً، ورائحة عطر خفيف تفوح من جسدها، وثوبها النّاري الشّفاف، يفصح عن رغبات، أشعلها اللقاء

الغـــريب بينهما. أهو غريبٌ حقّاً أن يجد نفسه هنا، وبكامل وعيه؟ لم تترك له لحلوحة فرصة البحث عن جواب، حين قالت:

- حدّثني قلبـــي أنّك رح ترجع.

اســـتغربتْ رنّة الفرح في صوتها، سمعتْ صوتاً من أعماقها يقول ساخراً "قلبك؟ منذ متى؟ هل صدّقت أنّك تمتلكين قلباً؟ ما أسخف ما تقـــولين!". منذ قررتْ أن تترك محمّد، وتخرج إلى الحياة، عرفت أنّها تغامر بقلبها، وبعد زمن قصير من عملها في الشّهبندر، أيقنت أنّ ذلك المـــسمّى الغـــريب الذي يضخ الدّم إلى الجسد، بات عبئاً ثقيلاً عليها. حـــين انـــتهت علاقتها ببدر، وزرعها مع تلميذه"أبو فراس"في بحسيتا، لـــيجمعا معلومات تهمه عن شخصيات معروفة ترتاد الحي، شعرت أنّ حـــياتها توقفت تماماً، وأنّ جسدها يتحرّك بآلية الكره والأذى، أرهقها تمثـــيل الابتسام مع الوقت، حتّى شعرت أنّ جلدها أصبح مشدوداً، لا يمكـــنه أن يسترخي، حتّى في السّاعات القليلة الّتي تختلي فيها بنفسها، فـــسرعان ما يسرقها النّوم، مضيّعاً عليها فرصة الاستمتاع بملامح حيّة، تعبّر عن أعماقها.

جلـــست علـــى حافة السّرير، وأطرقت بصمت. اقترب منها، وجلس بجانبها، سأل باستغراب:

- مابك؟ ماذا حدث؟

قالت:

- خائفة.

سألها:

- مم؟

قالت، والدّموع تنساب من عينيها بهدوء:

- من نفسي. ما رح تفهمني، غلط، ما نفعله غلط.

حـــدّق فـــيها، وكأنّه يراها لأوّل مرّة، التّجاعيد غزت وجهها، شـــعرها المصبوغ بالحناء فقد بريقه، مالت إلى السّمنة، حتّى قوس قزح فـــوق جبيـــنها تلاشى. ماذا يريد من امرأة مثلها؟ أغمض عينيه على صـــورتها في مخيلـــته، وطلب منها أن تطفئ الضّوء. شعرت بلسعة برد اقـــشعرّ لها جسدها. فهمت أنّه لا يريد أن يراها، لكنّها انساقت وراء ذلـــك الإحـــساس الذي فتح قلبها على مصراعيه حين دخلت غرفتها عـــصر الـــيوم؛ ورأته ممدداً على الأريكة مكان جلوسها المفضل!. لا تـــدري ما الذي جعلها تراه رأي العين يحضنها، ونسيت للحظة وجود صـــالح و"أبـــو فراس" والدّنيا من حولها. حتّى أنّها استطاعت نسيان المكـــان، رأت نفـــسها تهبط درج الخان بخفة فاتحة ذراعيها لاستقباله. عـــرفته علـــى الرغم من تغيّر ملامحه. فيه شيء يشبه ذلك الفتى الذي لعـــبت معه على حافة نهر في مكان مجهول، لكنّه ماثلٌ أبداً في مخيلتها. مـــع أنّها أحبتْ محمّداً، وهربت معه من قبضة صاحب الخان، إلاّ أنّ ذلك الفتى عند النّهر، لم يفارق ذاكرتها أبداً، ربّما لأنّه الشّيء الوحيد الذي تتذكّره من ماضيها، من طفولتها، قبل أن تصبح أسيرة حويسي. لكـــنّها في هـــذه اللحظـــة الباردة، باتت تشكّ أنّ لها ذاكرة وماضياً، وفاجأهـــا خاطرٌ قاتل، لمَ لا يكون كلّ ما تتذكّره مجرد خيال وأحلام يقظة، تدافع بها عن إنسانيتها المفقودة، وتهرب من وجودها المخزي؟

نظـــرت إليه في العتمة ممدداً على الأريكة، خفق قلبها، وتصاعد الدّم إلى رأسها، تمنّت لو ينهض ليحضنها، لكن لا مجال لتنفس الحلم في هذا المكان الكريه.

جلست عند قدميه، لامست أصابعها ساقه بلطف، دلّكتها برفق، وصـــعدت أصـــابعها إلى صـــدره، بقيت عيناه تحدّقان في السّقف بلا مـــبالاة، شكّت أنّه يشعر بوجودها، مع هذا لم تيأس، أرسلت أصابعها

المدرّبة لتفك أزرار القميص، وتخلعه عنه. استلقت بجانبه، مزاحمة جسده على المكان الضيق، لكنّه بقي بارداً كلوح ثلج، على الرغم من حرارة الغرفة الخانقة. تصارعت في داخله رغبتان، أن يواجه جسدها المشتهى بالقوة نفسها الّتي أطّرت حلمه وهو صغير، أو يتركها هكذا تسعى فوق جسده كأفعى، لا تجد منفذاً ترسل منه سمّها. لم يكن على يقين بعد لحظات من أنّها مجرد أفعى ستلدغه بمتعة، وتفرُّ هاربة، أحسّ بتدفق الدّم في شرايينه، وانبعاث المتعة في جسده، فتمطّى غصباً عنه، ولفّ جسدها بذراعيه بقوة. أحسّت أنّ روحها تحلّق بعيداً عن الغرفة، تصوّرت أنّها تملك الدّنيا في هذه اللحظة، انتابها ما يشبه اليقين أنّه الرجل الأوّل في حياتها! وأنّ مسامات جسدها تتنفس رائحة زهور صفراء صغيرة، رأتها كثيراً في الحلم مغروسة في ضفائرها الطويلة، تداعبها الرّيح، فتنثر في الجوّ نجوماً شديدة الضّياء. تداعب أنفها رائحة الطيون[1]، وتبتعد وسط غابة لا أثر فيها لزرقة السّماء!

همس، وهو يستنشق بعمق:

- ما اسم العطر الذي تضعينه؟

غمغمت وشفتاها تمسحان جبهته ببطء:

- ما زهر[2]، يذكّرني بطفولتي.

قال، وهو يضغط كتفيها بقوة، لتلتحم به أكثر:

- وكأنّك دهنت جسدك كلّه! رائحته أطيب من أيّ عطر.

اكتفت من الردّ بابتسامة، حملت براءتها الأولى، وأشرق وجهها بنور الحلم للحظات، أفاقت بعدها على جسده الهامد بقربها، ورائحة العفونة المنبعثة من الجدران، خرَّشت صدرها، انتبهت على واقع لا

(1) زهوره الصفراء الصغيرة، تطيّرها الريح في مواسم الإلقاح، وتنبت في الجبال.
(2) ماء الزهر، يصنع من زهر الليمون.

يمكـــن لجناحـــيها العاجزين مهما حلّقا في دنيا الحلم، أن يتجاوزا ما تعيشه! وهذا ما عرفته سابقاً، وتيقنت منه، لكنّها غامرت، واستطاعت أن تمنح نفسها - لمدّة دقائق - لذة افتقدها لسنوات طويلة، عاشتها في غربة عن نفسها. أقصت خلالها كلّ شعور إنساني يمكنه أن يتسلّل إلى قلبها، ليخفق مانحاً إياها متعة الكشف عن جمال الآخر.

واجهـــت الغرفة الرّديئة بعينين دامعتين، وقلب يكاد يقفز خارجاً مـــن ضـــلوعها، ضاق صدرها، واختنقت أنفاسها في صدرها للحظة، تبخّـــر خلالها الهواء، فشهقت بعنف. أحسّت بعدها بيده تضربها بقوة علـــى ظهرها، وعينيه تحدّقان في وجهها بلهفة. تمنّت لو تموت لتحتفظ بنظـــرته أبداً، ولا ترى شيئاً من الحياة بعدها. هل يمكن لأحد في هذا الوجـــود أن يعاملها بحنان متناسياً مَنْ تكون؟ لم تصدق في البداية أنّه مـــسح دمعها، وأسند رأسها برفق على ذراعه، ودفع إلى حلقها بقليل مـــن الماء! ثمّ... لا يمكن أن تصدّق أنّه قبّلها بحرارة، ارتجف لها قلبُها. أغمضت عينيها، واستسلمت لإغفاءة، وكأنّها تريد أن تبقى هكذا إلى الأبـــد. أنـــزل رأسها عن ذراعه، ومدّد جسدها على الأريكة، نهض على عجل، ارتدى ثيابه، وغادر المكان.

توقـــف أمام باعة "المحمّرة" المنتشرين قرب الزقاق، أراد أن يأكل شـــيئاً يعيد إليه نشاط جسده المرهق. لكنّه تراجع عن قراره، سخر من نفسه"أيُّ نشاط سيستعيد؟ و لِمَ؟"، السّؤال الأهم الذي كان لا بدّ من مواجهـــته، لِمَ فـــرَّ بهذه السّرعة من أحضانها، وقد تمنّى أن يبقى لديها حتّى يطلع الصّباح؟ لم يُفاجأ بالخاطر السّريع الذي مرَّ في ذهنه، أيقضي ليلته في بيت عاهرة، وهو الذي لم يسبق له أن اكتشف جسد المرأة قبل فريدة، ولا بعدها؟ أحسّ بقسوة اللفظ، أراد أن يعيد للحلوحة اعتبارها وإن أمـــام نفسه، هزّ رأسه بأسف، لأنّه لن يستطيع أن يتجاهل الحقيقة

مهمـــا احتال عليها بمسميات لطيفة، وكيفما كانت مشاعره لن تمنح لحلـــوحة إنـــسانيتها المفقودة بحكم وضعها الاجتماعي. لكن واجهته مـــشكلة جديـــدة، أين سيقضي الوقت ريثما يطلع الصّباح؟ ليستقل الحافلة إلى اللاذقية؟ أطلق لعنات على مجهولين في الفضاء، طالت حتّى أصـــحاب شـــركة أرســـلان للـــنقل، لماذا لا يدرجون رحلة إضافة للمقطـــوعين أمثاله؟! هل يعود إلى لحلوحة؟ هل يقضي باقي الليلة في فراشها؟ حسم تردده، ودار على عقبيه، وطرق بابها بأصابع مرتعشة!

في الصّباح، توجه إلى اللاذقية، طيلة السّاعات السّت الّتي قضاها على الطّريق، كان فكره مشغولاً بصور مختلفة للقائه بفريدة، لكنّ قلبه، كان ينـــز صديداً، تلفحه ريحٌ حارّة، تحمل معها أتربة الطّريق المقفر، ولـــون الـــرّماد المخيّم على صخوره الصّامتة، حتّى وصل العاصي عند جسر الشغور وتبدّل طبع النّسيم!

حين تجاوز جامع "العجّان" كانت الشّمس تنحدر بهدوء صوب البحـــر، صابغة الأفق بلون أرجواني مشوب ببعض السّحب الرّمادية، توافـــق مزاج البحر مع مزاجه المضطرب لهذا المساء، لم يفاجئه، بل زاد إحساسه بقرب انفجار الأزمة بينه وبين فريدة. استنفرت حواسه كلّها وهـــو يقتـــرب من الحي، ويلمح الجميزة الضّخمة رابضة هناك قرب القنطـــرة، تفـــتح عينيها ببطء، لترمق الغرباء باستغراب. عجائز الحي حـــدّقن فـــيه بفضول وهو يمرُّ أمامهن، سمع همسهن وتساؤلاتهن حول شخـــصه. ابتـــسم بمـــرارة، وهو واقف أمام الباب المفتوح متردداً في الدّخول. على الدّرجات الخارجية جلست طفلة شقراء، غطّت جبينها بكفّهـــا الـــصّغيرة، وهي تنظر إليه بعينيها الزرقاوين ورموشها البيضاء ترتعش خوفاً. خرج إليها طفل ينادي:

- نسمة، تعالي، ماما تريدك.

ابتسمتْ فجأة، وركضت صوب أخيها، والتصقت به، ثمّ نظرت إليه مبتسمة. خفق قلبه بشدّة "من هذه الطفلة؟" اقترب قليلاً من حمزة، وناداه، حاول أن يضمَّ ابنه إلى صدره، لكنّه فرّ صارخاً "ماما". هرعت فريدة من الدّاخل بلهفة. وقفت بالباب، وقد فقدت قدرتها على النّطق. آخر ما كانت تتوقعه أن ترى ماهر أمامها على هذه الهيئة. شلّها الرّعب، واحتضنت طفليها، وكأنّها تخشى أن يسرقهما منها. لم تعرف كيف تتصرّف، وماذا تقول. اختصر ماهر الموقف قائلاً:

- إلى متى سأبقى واقفاً أمام الباب؟

اعتذرتْ بارتباك، وابتعدت عن طريقه داعية إياه إلى الدّخول. آلمته تلك الجملة الّتي قالها، هل كتب عليه الوقوف دائماً هكذا بباب فريدة؟ زاد السّؤال من توتر أعصابه، وهو يبحث بعينيه عن مكان يجلس فيه. أدرك أنَّ زواجه من فريدة لن يجعله من سكّان البرج، ولن يمكّنه من اكتساب صفاتهم، وسيبقى مؤرجحاً في الهوّة الّتي تفصل الباب عن الغرف العالية. لن ينسى ذلك المقعد الخشبي، مكانه الطبيعي، ربّما تكون فريدة قد نسيت، والنّاس من حوله قد نسوا، والباشا أنساه الموت كلَّ شيء، لكن هو،لا يمكنه أن ينسى! نظر إليها وهي منكمشة في كرسي جدتها قرب النّافذة، والولدان يتمسكان بثوبها. ابتسم محاولاً جذب ابنه، قال:

- تعال يا حمزة، ألم تشتق إليّ؟

ردّت فريدة بصوت خفيض:

- يحتاج لوقت كي يتذكّرك.

قال باندفاع:

- لا شكّ أنّك قلت له، إنّي مت.

نفت فريدة بخوف:

- لا، لم أفعل، هو يعرف أنّك مسافر إلى بلد بعيد.

أشار إلى الصّغيرة، فاحمرّ وجه فريدة، وهي تقول:

- نـــسمة، جـــدتي سمّتها كذلك، فقد أعادت إلى البيت الرّوح بوجودها.

قال:

- متى حدث ذلك؟ لم أعرف أنّك حامل!

قالت بالصّوت الخفيض ذاته، نافية أيّ فكرة سيئة يمكن أن تخطر له:

- ولدتها في 15 كانون الثاني 1959.

هـــز رأسه، كأنّما لينفي الفكرة ذاتها الّتي أرادت فريدة نفيها من خلال ذكرها لميلاد طفلتها. فقد جاءت نسمة إلى الدّنيا بعد ستة أشهر مـــن اعتقاله. لماذا أخفت فريدة عنه الخبر إذن، كاد يصرخ في وجهها بكـــلّ ما في نفسه من شكوك وكره، لكنّ الطفلة اقتربت منه في تلك اللحظة، ومدّت كفّها الصّغيرة بلعبة تشبهها، واشتكت حمزة بكلمات واضحة، فقد كسر يد لعبتها الجميلة. أخذ اللعبة منها، ونظر في عينيها، أحسّ بدفقة حنان جارف، فحمل الطفلة، وأجلسها على ركبته، قبّلها، وقال لفريدة:

- كم تشبه أمّي!

أطرقت فريدة، وتنهّدت بارتياح، فقد استطاعت الطفلة أن تكسر حـــدّة هجـــوم أبيها، ولجم غضبه ببراءتها. حين رأى حمزة اهتمام أبيه بأخته، تقدّم ببطء، وسلّم عليه، ثمّ اندس في حضنه، وقال:

- بدّك تنام عندنا؟

فوجئ بكلمات الصّبـــي، فسأله:

- كما ترغب أنت، إذا أردت، أنام، وإن رفضت، أذهب.

عانقه حمزة، وقال:

- بـــدّي تبقـــى، نحـــن وحدنا، ماما لا تسمح لنا باللعب تحت الجميزة مع الأولاد. ولا تسمح لنا باللعب في الحديقة، بس بنروح كلّ يوم مشوار على البحر.

لم يـــستغرب حديث الصّبـــي، التفت ليكلّم فريدة، فلم يجدها، انـــسلّت إلى المطـــبخ بهدوء، لتحضّر الطّعام. فاحت رائحة غريبة في المنـــزل، ورآها قادمة. همست:

- الأكل جاهز، تفضل.

نهض حاملاً طفليه، ودخل إلى المطبخ، حيث وضعت فريدة طاولة صغيرة، حولها كراسٍ من الخيزران، سحبت له الكرسي، وأشارت إليه ليجلس، وطلبت من طفليها أن يجلسا في مكانيهما. قال:

- اتركيهما في حضني.

لكـــنّ حمزة قفز بسرعة، وجلس مكانه. تلكأت نسمة قليلاً، ثمّ نـــــزلت مـــن حضن والدها، وجلست مكانها!استغرب الطّريقة الّتي صعدت فيها على الكرسي، وضحك بصوت عالٍ:

- من علّمك ذلك؟

أشارت إلى أمّها. وضعت الفوطة حول رقبتها، وتناولت صحنها. راقـــبها وهي تأكل بهدوء، ولا تلوث ملابسها. راقب حركات يديها، وكأنّه يرى فريدة، الانضباط والهدوء، والحذر. مثل أمّها في كلّ شيء، مـــا عدا عينيها وجبينها، تشبه أمّه، نعم تشبهها. لكن يبدو أنّ فريدة صنعت منها نسخة مطابقة لها، فهل يحبّها؟ أم... قالت فريدة:

- لَمَ لا تأكل؟ أم أنّ طبخي لا يعجبك؟

فريدة تطبخ! ماذا حلّ بالدّنيا في غيابه؟ نظر إلى صحنه، لم تعجبه الرّائحة. قالت:

– جـــرّب أن تذوقها، أعلم أنّكم لا تعرفون الملوخية في بلدكم، وسيكون صعباً أن تجرّبها، لكنّي أعتقد أنّها ستعجبك.

قـــال في نفـــسه "لـــو أنّـــي التقيت فريدة في ظروف مختلفة، وتزوجتها في مكان مختلف، أكيد سأحبّها، وسأعشق كلّ ما تفعله، أيعقـــل أن تتحوّل فريدة في هذا الزمن القصير، من سيدة متعجرفة يأتمـــر الـــنّاس بأمرها، إلى امرأة عادية تعتمد على نفسها حتّى في المطـــبخ؟". تذوّق الطّعام بتردد، لم يعجبه الطّعم، لكنّه تناول المزيد مـــن دون أن ينبس بحرف، تضرّج وجهها بالحمرة، وهي تنتظر منه كلمة، وخجلت أن تسأله عن رأيه. انشغل ذهنها بما هو أهم، ماذا بعـــد؟ ســـينتهي من طعامه، وسينام الطّفلان في الثّامنة كعادتهما، وبعد؟ كيف ستواجهه؟ ماذا ستقول عن هربها؟ عن قرارها؟ عن... لمحـــته يأخـــذ الطّفلين إلى المغسلة، ويجفف أيديهما، ويجلسهما على ركبتيه في الصّالة، ويبدأ بقص حكاية لهما. صعقها الأمر، لقد تعلّقا به، وكأنّه لم يغادرهما يوماً! أحسّت بالخيبة والفرح في الوقت نفسه، أرادت أن يتركها بسلام، ويترك لها الطّفلين، ولم تستطع أن تسمح لنفسها بحرمانهما منه أكثر! تركتها الحيرة مشوشة الذّهن، ولم تنتبه إلـــيه وهو يحمل حمزة إلى سريره، ثمّ يعود ليأخذ نسمة. أفاقت على صوت الباب يغلق ببطء، ويقف بقامته الفارعة أمامها، تمنّت لو أنّ تلـــك الـــسّنوات مجرد كابوس، ستفيق منه على ذراعيه تحتضناها، ويصحبها برفق إلى غرفتها، لتمدد جسدها المرهق، وتغمض عينيها على ابتسامته وتمنياته لها بليلة سعيدة. أرادت بذلك أن تحارب الواقع بقـــسوته، وأن تـــتجاهل مـــا ســـيحدث، وتؤجل مواجهته قدر استطاعتها. قال بلا مبالاة:

– ألن تنامي؟

استغربت دعوته الموارية لها، واستغربت أكثر بروده ولا مبالاته، تنبّهت حواسها بانتظار ضربة ستأتيها من جهة مجهولة، ليته يقول ما يريد دفعة واحدة، ويخلّصها من هذا القلق والخوف. قال:

- سأسبقك.

دخل غرفة النّوم، ووقفت هي مشدوهة! ماذا عليها أن تفعل؟ هل تتصرّف كزوجة انتظرت عودة زوجها الغائب؟ حاولت أن تقنع نفسها أنّ ماهر يحبُّها، وأنّ تصرفاته الهادئة دليلٌ قوي على ذلك. دخلت الحمّام، فتحت "الدش"، ووقفت تحته، شعرت بجسدها ينتفض، والماء ينساب مدغدغاً حواسها كلّها، فركته بالكيس الأسود بقوة، وليّفته بصابون الغار... أرادت أن تطيل فترة استحمامها، لعلّها تهتدي للطّريقة الأمثل في معاملة زوجها. حين قررت ترك البلدة والمجيء إلى جدتها، أعماها الغضب، وظنّت أنّها ستنسى ماهر، وستجرؤ على طلب الطّلاق، لكنّ الأيام الّتي قضتها وحيدة بعد وفاة جدتها، أثبتت لها بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنّها بحاجة لرجل يحمي روحها وجسدها من تقلّبات الزمن. لا تنكر أنّها فكّرت بمراد في بعض الليالي الموحشة، لكنّها اقتنعت أنّها لا يمكن أن تسامحه على غدره حتّى لو عاد إليها طالباً الصّفح والغفران. ووجدت نفسها تنسى فكرة الطّلاق من زوجها، بل تحن إلى وجوده قربها، لكنّ كبرياءها منعتها من العودة إلى البلدة ثانية والسّؤال عنه، كانت على يقين أنّه سيأتي بحثاً عن ابنه حين يطلقون سراحه. نظرت إلى وجهها في المرآة الصّغيرة وهي ترتدي ثيابها. أحسّت بالرضا، فقد بدا مضاءً بنور خفيف وحمرة شديدة.

تركت شعرها المبلول يقطر ماء البابونج الدّافئ على كتفيها العاريين، وخطت إلى الغرفة. وقفت بجانب السّرير ونبضات قلبها تصل أذنيها، تطرقهما بعنف، ووجهها تشتدّ حمرته. حين رفع رأسه عن

الوسادة، وحدّق فيها، زلزل كيانها، وارتعش جسدها، وأحسّت أنّها المرّة الأولى الّتي تقف فيها أمامه. تمنّت لو تتغلّب قليلاً على خجلها، وتستطيع أخذ مبادرة، بدل هذا الانتظار المقيت. قال بحياد:

- لماذا تقفين عندك؟ تعالي.

جلست على حافة السّرير، تناولت يده، وقالت:

- الحمد لله على سلامتك.

على الرغم من إحساسه بصدق كلماتها، لم يترك مجالاً لقلبه ليخفق لمرأى جسدها، وهو يعريه بسرعة أجفلتها. لم يترك لها فرصة لتنطق بكلمة، أو تبتعد معترضة على أسلوبه الهمجي. ذهبت توسلاتها أدراج الرّياح، صمتت فجأة، فقد أدركت بوضوح أنّه لا يريد أن يسمعها، ولا يريد أن يتحدّث إليها، بل يريد حقّه في جسدها فقط! همدت، ولم تعد تشعر بشيء مما يدور حولها، ملأت أنفها رائحة جسده، ووصلت إليها الرسالة بسرعة البرق "لقد كان في أحضان امرأة غيرها قبل أن يأتي إليها". مسحت دمعة تسلّلت رغماً عنها إلى خدها، وأفلتت لمخيلتها العنان لتجول في أماكن أخرى، وتتحدّث إلى جدتها، وأمّها، وخالها، وأبيها، وكلّ الرّاحلين عن عالمها.

ابتعد عنها غاضباً، صرخ:

- مابك؟ لم أعاشرك يوماً إلاّ وكنتِ بين يدي جثة، لا يمكن أن تكوني امرأة أبداً.

لم ترد، اكتفت بالصّمت، هو يريدها أن تغضب، أن تقول له إنّه يحمل رائحة أخرى، أن تسأله من هي؟ ولماذا يخونها؟ متى خرج من السّجن؟ متى وجد الوقت ليتعرّف على أخرى؟ أهي زوجته؟ أم مجرد امرأة عابرة قضى معها ليلته؟. فريدة لم تسأل أيّاً من هذه الأسئلة الّتي انتظرها، ووضع لها الإجابة سلفاً، لم تترك له فرصة لإهانتها أكثر. ما لم

يعـــرفه ماهـــر أنّها فهمت كلّ شيء، عرفت أنّه يريد إذلالها بأسلوب تعتـــبره رخيـــصاً، ولا تسمح لها تربيتها أن تنـــزل إلى مستواه. بينما اعـــتقد أنّه سيجعل فريدة تشتعل غضباً، وسيخبرها أنّه يعشق غيرها، وأنّهـــا مجـــرد زوجة لن ترقى يوماً إلى مستوى حبيبة، وأنّ... وأنّ... وبذلك يفرغ شحنة نقمته عليها، ويجعلها تفهم أنّها لا قيمة لها أبداً.

هـــدأ لحظة وهو يزفر أنفاسه بحرقة "أين منها لحلوحة؟" لقد شعر معهـــا أنّـــه يملك الدّنيا بين يديه، يصهل في السّهول البعيدة، أحرقته بتأوهاتها، بحرارتها، بـــ...

التفت إليها، العينان مغمضتان، أنفاسها منتظمة، مسحة الكبرياء لا تخفـــى في ملامحها المحايدة، تساءل بغيظ "من أين تأتي بهذا الهدوء؟" أثار اهتمامه انعكاس الضّوء الخفيف على أنفها المستقيم، وإضاءته بنور شمعـــي أعطاهـــا جمـــالاً إضافياً، ذلك النّوع من الجمال الذي يفرض ســـلطته القوية بلا إثارة واستفزاز، تمنّى تلك اللحظة لو ينسى حقده، ينـــسى إســـاءة فريدة المستمرة لمشاعره، ينسى كلّ ما يتعلّق بماضيهما المـــشترك، ويـــتعامل مع هذا الجسد المستكين في فراشه بطريقة أكثر تحـــضراً، لم يتخيّل أن تكون مثل لحلوحة، ولا حتّى مثل زهرة. تصوّر أن يـــبدأ قصّة حبّ مختلفة عما مرّ به، هل ذلك ممكن؟ صدمته العبارة، ورأى أحمد علوان يرافق فريدة إلى حلب، ويحافظ على سر هروبها حتّى لحظـــة مواجهته عند خروجه من السّجن، رأى كيف كانت تنظر إليه على المائدة صباح زفافهما، ورآها وهي تدير وجهها إلى الحائط محاولة تفـــادي أيّ نقاش معه عندما ترتفع وتيرة غضبه! لمس ساقها المكشوفة، أحـــسّ بـــنعومة قـــشر الدّرّاق، فنفرت أصابعه بعيداً، تذكّر كم كان يتحـــسس مـــن ذلك الملمس الغريب، وكم كان يكره شجره! يرتبط ذلك بمرضٍ أصابه في الصّغر، جعله ينفر من الفاكهة ذات الوبر، ويمنع

دخـــولها البيت، لكنّه لم يجرؤ على قطع شجرة "الأنكي دنيا" وإن همّ بفعل ذلك مرّات عديدة. ربّما لارتباطها الوثيق بحلمه بامتلاك السّرايا، وإنقـــاذ فريدة من البرج! تنهد بصوت مسموع، جعل فريدة ترتعش، وتفـــتح عينيها ببطء باحثة عن منفذ تتسلّل من خلاله إلى داخله، فتبدأ حديثاً - ربّما - يكون بداية جيدة لاستمرار علاقتهما، لكنّه نهض من الفـــراش، واقتـــرب من النّافذة، أزاح السّتارة، وتأمل الشّارع الخلفي الغارق بالظلام. قالت بتردد:

- لا بدّ أنك بحاجة للرّاحة، ألن تنام؟

قال مغتاظاً:

- مـــنذ ســـنوات وأنا مرتاح، أحتاج للحركة ولرؤية العالم من حولي، لم أنم منذ خرجت من السّجن حتّى الآن، ولا أريد أن أنام.

بقيت صامتة، شعرت أنّه لا فائدة ترجى من الحوار معه، قال:

- ألن تسأليني أين كنت؟ ولماذا لم أنم؟

لم تـــرد، شعرت بأنّه ينوي الانتقام منها. قال ببرود، وهو يتأمل وجهها:

- كنت مع عاهرة في بحسيتا.

لم تستطع أن تقاوم إحساسها بالقرف، نهضت مسرعة، ودخلت الحمّـــام، دوارٌ عنيف كاد يرميها أرضاً، استندت إلى المغسلة، وتقيأت، خلعـــت ملابـــسها، استحمّت مراراً، نظّفت نفسها بالصّابون، لكنّ الرّائحة الكريهة بقيت عالقة بجسدها، أحسّت أنّ ماهر وصل لغايته في إذلالها، لوث جسدها برائحة عاهرة، ارتجفت بعنف، وهوت أرضاً.

حين أفاقت في الصّباح، رأته قرب النّافذة يراقبها بصمت، قال بلا مقدمات:

- حضّري نفسك للسّفر إلى البلدة.

هزت رأسها بخيبة، فتحت فمها تريد الاعتراض، نظر في عينيها، تلك النّظرة الحازمة، القاسية، وقال:

- لا أريد نقاشاً.

وأضاف ساخراً:

- أعتقد أنّك لا تزالين في عهدتي.

بلعت الغصّة الّتي جرحت حلقها، هل وصلت به الوقاحة حدّ مخاطبتها بتلك الطّريقة؟ لم يكن أمامها متسع من الوقت لتفكّر على مهلها، صحيح أنّها تملك المأوى، لكن من سيسندها إن هي طلبت الطّلاق، ورفض ماهر تطليقها؟ من سيقف إلى جانبها؟ ماذا سيكون مصير الطّفلين؟ لم تتساءل فريدة عن أيّ أمر آخر، فقط توقفت أفكارها عند حمزة ونسمة، ونهضت لتحضّر حقيبتها!

* * *

(4)

استدعاه على عجل. ارتبك وهو يرتدي ثيابه، وخرج من دون أن ينظر إلى نفسه في المرآة. استغرب إلحاح "أبو فراس" على رؤيته في هذه السّاعة من الليل على الرّغم من معرفته لسوء الوضع في المنطقة. فلم يكن يعنيه ما يجري بأيّ حال، بالإضافة إلى أنّه نسي تماماً ذلك الاتّفاق القديم بينهما، وانغمس تماماً بدوره الّذي ارتضاه لنفسه في الحياة، فبعد حساب بسيط للرّبح والخسارة، ومراجعة كاملة لحياته الماضية، استقرّ رأيه على التزام هيئة رجل الدّين، الهيئة الّتي رسخت صورتها في أذهان النّاس، ورغب بها والده حين كان يافعاً، واقتنع هو بأنّها تناسبه. ماذا يريد أبو فراس منه؟ حدس أنّ الأمرَ خطيرٌ، وأقلقه ذلك، فقد عاش خلال السّنوات القليلة الماضية حياة طبيعية، لم يحتك مع رجل أمن أو رجل دين، وأراحه الحياد التّام في تصرفاته تجاه ما يجري. علاقته بـ "أبو فراس" تقلّصت إلى الاتّصال الهاتفي كلّ فترة من الزمن. يقينه بأنّه لم يعد يحتاج إلى خدماته، ولا حتّى صداقته، جعل الأيام تمضي رتيبة هادئة تتخلّلها المشاكل العادية للأسرة، حتّى علاقته بفريدة أخذت منحىً من الاعتيادية والفتور والرتابة الدّائمين. لم يحدث خلال تلك السّنوات ما يؤرقه، عدّة حوادث مرّت، ثمّ تلاشى أثرها، وراحت الأيام تجري مكرّرة نفسها بشكلٍ ممل.

عندما عاد وفريدة من اللاذقية ومعهما حمزة ونسمة، صبّ جام غضبه على أحمد علوان. طرده من العمل، ومنعه من أخذ أيّ شيء

معـــه. لكنّ غضبه لم يهدأ، حدّث "أبو فراس" بالأمر، فاقترح عليه أن يسجنه بضعة أيام. وافق من فوره، والتّهمة كانت جاهزة، العمل ضدّ الـــثورة. مـــا لم يفكّر به في ذلك الوقت أن يستمر حبسه مدّة طويلة بسبب الإجراءات والروتين وأشياء لم يفهمها، قال أبو فراس وقتها: "لا تهـــتم الأمـــر بسيط، وهو يستحق، سيخرج، لن تطول المدّة". ارتاح لكلمات "أبو فراس" إلى أن فوجئ بخبر في الجريدة الرسمية صعقه"هرب الـــسّجين المخرّب أحمد علوان". في البداية أزاح الخبر عبئاً عن كاهله، وقـــال:"فعل خيراً". لكنّ الأمر تطوّر إلى ما لم يكن في الحسبان، شكّل أحمد علوان عصابة، قامت بتفجيرات وعمليات إرهابية، راح ضحيتها مواطنون أبرياء. مما جعله يشعر بالذّنب تجاهه. فقد كان سبباً بشكل أو بآخـــر في تورطه بذلك. بقي سؤالٌ واحد يقضُّ مضجعه فترة طويلة. كـــيف اســـتطاع أحمد علوان الهرب من السّجن ما لم يكن لديه من يسانده في الخارج؟ وهل هرب لينتقم منه؟. أبو فراس طمأنه بأنّ الأمور تحت السّيطرة تماماً، وبأنّ أحمد علوان لن يستطيع أن يؤذيه.

وقـــد اقتنع بعد فترة من الزمن أنّ أحمد علوان لا يفكّر به، وربّما لا يعرف أصلاً أنّه السّبب في سجنه.

كـــادت السّيارة تنحرف عن مسارها عدّة مرّات وهو غارق في تفكـــيره. تذكّـــر أوّل خلاف له مع "أبو فراس". يومها كان متحمساً لإنهاء تلك الصّداقة الّتي شعر أنّها تجعله عارياً ومكشوفاً باستمرار. أراد أن يحتفظ بخصوصياته لنفسه، مع إدراكه أنّه تورط وانتهى الأمر. يومها قـــال لـــ "أبو فراس" وهما يتحدّثان عن إنجازات الثّورة، وهرب أحمد علوان "أنتم تسعون وراء السّلطة المطلقة فقط، ولا أظن أنّ شيئاً سواها يعنـــيكم". ردّ أبو فراس بحماس: "لم يسعَ الحزب إلى السّلطة إلاّ ليقينه أنّ الجمـــاهير هـــشة وجبانة، ولا يمكنها تحمّل مسؤولية الحريّة، كان

ميشيل عفلق على حق حين وصفهم بالرعاع، وبالقاعدة الشّعبية". أراد أن يشرح وجهة نظره في وجوب وجود الديمقراطية وتعدد الأحزاب، والإبقاء على هامش من الحريّة، يساعد المواطن على العيش بكرامة. ردّ أبو فراس بشكل حاسم: "إنّ الحزب الواحد يحقق للعامة السّعادة والاطمئنان، من يريد تبديل الوضع؟ الحريّة تجلب عليك الكثير من التّعاسة والقلق، وترمي بك في المهالك. فأيهما تفضل؟ حياة الدّعة والاستقرار، أم حياة التّشرد والبؤس؟".

لم يؤمن يوماً بما قاله أبو فراس، وأغرب ما في الأمر، أنّ الرفيق تحدّث بثقة تامة، حتّى التبس الأمر عليه، وصار يتساءل: أيهما على صواب؟ لكنّه لا زال مقتنعاً أنّ لا أحد يقيم حكماً استبدادياً لحماية ثورة!

استقبله أبو فراس بلهفة، وقبل أن يمد يده ليصافحه، قال:

- جاء الوقت الذي ستنتقم فيه.

قال بلا مبالاة:

- أنت تعرف جيداً أنّ الأمر لم يعد يعنيني، كلّ شيء صار من الماضي، وأنا راضٍ بحياتي كما هي.

ضيّق أبو فراس ما بين حاجبيه، ورمقه باستغراب:

- يبدو أنّك نسيت اتفاقنا!

قال وهو يجلس على أقرب كرسي من المكتب:

- أنت على حق.

ابتسم أبو فراس، وضغط الجرس، فدخل أحد العساكر، وأدّى التّحية:

- أمرك سيدي.

طلب كأسين من الشّاي الثّقيل، وقال:

– كيف حال نسمة؟ لم تعد لزيارتنا منذ أمّنت لها غرفة في المدينة الجامعية.

أحسّ بوخزة في صدره، لمحه يغمز بعينه بما يقصده، نسمة! هل أخطأ حين أرسلها إليه ليدبّر لها غرفة في السّكن الجامعي؟ ليس الوقت مناسباً لمحاسبة نفسه، عليه أن يعرف إلى أين سيقوده ذلك الفخ الصّدئ الذي نصبه له أبو فراس في غرفة رطبة في بحسيتا منذ سنوات طويلة. هل سيبقى طيلة عمره مقيّداً بحديد الولاء، يشدُّ أبو فراس سلسلته متى شاء؟ ابتسم أبو فراس وهو يقدّم له سيجارة، ويشعلها قائلاً:

– في هذه المرحلة نحن بحاجة إلى المواطنين الصّالحين أمثالك، الّذين تهمهم مصلحة البلد أكثر من مصالحهم الشّخصية. لن أدعوك للانتقام، دعنا نقول إنّنا نكلّفك بمهمة رسمية وطنية لصالح البلد.

شعر أنّه حوصر، ولن يستطيع فكاكاً ما لم يهادن، قال ببرود:

– ما المطلوب مني؟

جلس أبو فراس وراء مكتبه، وفرد أمامه أوراقاً كثيرة، دفع إليه قلماً وورقة، وقال:

– أنت عيني، بدأنا نتفاهم. أريد منك أن تحدد لي على هذه الورقة، كلّ المغارات الموجودة في الجبل، والطّرق الّتي يستطيع المرء أن يهرب من خلالها إذا حوصر هناك.

قال بدهشة:

– ولِمَ هذا الإجراء؟ ثمّ، يستطيع أيّ شخص غيري أن يخبرك بتلك الأماكن، فهي معروفة جيداً. هل أتيت بي من البلد إلى هنا من أجل هذا؟

قال أبو فراس:

- أنا أثق بك أنت. لا أريد أن يعرف أحدٌ في البلدة شيئاً عن هذا الأمر. هل تفهمني؟ الأمر سري للغاية.

قال مستغرباً:

- هل ستحاصرون الجبل؟ الأمر صعب جداً، القرى من الجنوب كثيرة، والمسافات طويلة، ومن الغرب الوعر لا يمكن اجتيازه عن طريق السّيارات!

قال أبو فراس، وهو ينفخ دخان سيجارته:

- لـــن أدعك في حيرة من أمرك، هناك معلومات لدينا أنّ بعض المخـــربين بقـــيادة أحمد علوان يتمترسون في الجبل، وهم مسلحون، والحكومة تنوي القبض عليهم، تعرف مدى البلبلة الّتي يمكن أن يثيروها إن هـــم قامـــوا بأيّ عمل متهور. الاغتيالات أصبحت كثيرة، والمثل يقـــول"لا تـــنام بين القبور وتشوف منامات موحشة". أمّا عن صعوبة الحصار فالأمور مدروسة جيداً.

أطـــرق قليلاً، حدّث نفسه: "سيعرفون كلّ شيء، عن طريقي أو طريق غيري، ما المانع؟".

رســـم على الورق كلَّ منافذ الجبل، ومداخل المغارات، والطّرق المـــؤدية إلى القـــرى المحيطة، ودفع الورقة إلى "أبو فراس"، الذي تأملها بهدوء، وقال:

- أهذا كلُّ شيء؟

ردّ بنفاد صبر:

- نعم، هذا ما أعرفه. لكن لمْ أفهم لمَ لجأت إليّ من دون غيري؟

قال أبو فراس:

- الأمـــر بسيط، أعرف أنّك نشأت في الجبل، وتعرف كلَّ شبر فـــيه، لا أريد أستاذ جغرافيا ليدلّني على ما أريد، أريد عفريتاً يعرف ما

خفي تحت الأرض، لا شكّ أنّ هناك أماكن محددة، آبار مهجورة مثلاً يمكن أن تكون مخازن أسلحة. معرفتي بك ليست ابنة يومين، أم ماذا؟

هزّ رأسه بحسرة:

- هذا كان زمان.

ضحك أبو فراس:

- سيبقى وحياتك على طول، بس أنت اختفيت، ولم تعد تطيق الظّهور في الحياة الاجتماعية، حتّى أنّي سمعت إشاعة تقول إنّك تدروشت. صحيح، نسيت أن أبارك لك، أخبروني أنّ حمزة عاد من الاتحاد السّوفييتي، وأصبح مهندساً كما تمنيت. وسمعت أنّك تسعى لترسله إلى الخليج، يا رجل هل يعقل أن أسمع مثل هذه الأخبار من النّاس؟

ابتسم بسخرية:

- كنت سآتي إليك لطلب المساعدة، وها أنت قد قصّرت عليّ المسافة، واستدعيتني في ليلة ما فيها ضوء قمر. في الحقيقة أمامنا مشكلة التّجنيد، لم يقبلوا أن ندفع له "بدلاً"، وأنا أواجه مشكلة إقناعهم بقبول تأجيله مجدداً.

قال أبو فراس:

- ولا يهمك، اعتبر الموضوع منته، كلّها يومين ثلاثة، وأنتهي من المشاكل الّتي بين يدي، ويكون التأجيل عندك، ويسافر بالسّلامة. ما أخبار فريدة خانم؟

أحسّ بوخزة أشد، ما بال أبو فراس يتسلّل كعلقة إلى حياته الشّخصية، ويخلط الأوراق؟ أيريد تذكيره بمشاكله، واستغلالها؟ أم يريد أن يفهمه أنّه لا يخفى عليه شيء؟

قال بصوت حافظ على حياد نبراته:

- كما نحن، لم يتغيّر شيء.

نهض يريد الاستئذان، لكنّ أبو فراس قال:

- انتظـــر، لن تستطيع المغادرة الآن، أرسلت المعلومات للقيادة، يفـــضّلون أن تبقى عندنا الليلة، نحتاجك في الصّباح الباكر معنا في مبنى الحزب.

قال والكلمات تكاد تقف في حلقه:

- لكنّ فريدة لا تعرف أين أنا، تعتقد أنّي لم أغادر غرفة المكتب إلى الآن، والأولاد...

ربتّ أبو فراس كتفه:

- منذ متى تهتم إن عرفت فريدة أم لم تعرف؟ يا رجل قل كلاماً آخر.

"*هل جربت إحساس الفأر داخل المصيدة بعد أن يدخلها بقدميه تحت إغراء قطعة الجبن؟ ها أنت في مواجهة مصيدتك، مَن نصب الفخ لـــن؟ تكاد الأمور تختلط ببعضها، وينمحي الخيط الفاصل ما بين الخير والشّر. ها أنت ترى بعينيك أنك أصبحت أسير نتائج قراراتك الخاطئة، ولم يعـــد بإمكانك الالتفات إلى الخلف*". حدّث نفسه وهو غارق في مقعـــده والحـــركة حـــوله علـــى أشدّها. أخفى ابتسامة غافلته، هل سيكتـــشف "أبو فراس" أنّه أخفى عنه مكان أهم مغارة في الجبل؟ تلك الّتي كان نجيب السخيطة يختبئ فيها من الفرنسيين، لسعه خاطر مزعج كاد جسده ينتفض على إثره، أيمكن أن يكون "أبو فراس" قد نصب له فخـــاً بغية اختباره؟ هل يعقل أن يكتشفوا مكان الجب القديم في أرضه الكائنة في الوعرة؟ لقد أخفى فتحته بدقة، لكن ما المانع من اكتشافه إن كان لديهم إخبارية عنه؟ حاول تهدئة نفسه والسّيطرة على أعصابه، في مطلـــق الأحـــوال لن يجدوا شيئاً، إنّه مجرد بئر، يتصل بقنوات رومانية

ببعض الآبار والينابيع في الجبل، لا ماء فيه منذ سنوات. لم يرتح لخاطره ذاك، فكـــون البئـــر جافـــة هذا يعني سهولة النّزول إليها، واكتشاف ارتـــباطاتها مع الآبار الأخرى! كاد صدره ينشق عن آهة ساخنة، لكنّه حافظ على رباطة جأشه ولون وجهه الأصفر المحايد.

قال أبو فراس بعد ساعات:

- هيا بنا، يجب أن نصل إلى البلدة فجراً.

نهض بتثاقل بعد أن رشف ما تبقّى من فنجان قهوته البارد، تلذذ بالطّعم المرّ، وتجرّع كأس ماء، ومشى بآلية نحو سيارته.

قال، وكأنّه يحدّث نفسه:

- ما أخشاه أن يُقتل أبرياء بسببـــي.

ضحك أبو فراس مقهقهاً:

- يـــا رجل، لا تكن شديد الحساسية، لا بدَّ للعيد من أضاحي. ثمّ إنّ الـــتّقدم البشري دائماً مرتبط بمصير مأساوي لبعض الأطراف. أم تراك تريدنا أن نكون نحن الضّحايا؟

ابتسم بمرارة، وقال بلهجة المزاح:

- أرى أنّي تحالفت مع الشّيطان.

صمت أبو فراس قليلاً، ثمّ التفت إليه، وقال بجدية:

- أيّ نجـــاح مـــؤكد يحتاج وسائل مشبوهة، وارتباطاً أكيداً مع الشّيطان.

- أشعر بالمرارة، أودُّ لو أستطيع التّراجع عما فعلت. لكنّي أدرك جـــيداً أنّـــه بعد أن يتورّط المرء في الشّر بحريّة وتصميم ونتيجة تفكير واضح، يصبح من الصّعب جداً، بل من المستحيل الخروج منه.

عقـــد أبو فراس حاجبيه، ونفخ دخان سيجارته، وهو يفتح شبّاك السّيارة، فكّر ملياً، وقال:

- اسمعـــني جيداً، نحن نتكلّم الآن كأصدقاء، عليك أن تمحو هذا الحديث من ذاكرتك، وكأنّه لم يكن، أتفهمني؟ عليك أن تدرك أنّه إذا كـــان الخـــير يمكن أن يصدر عن إغراء الإنسان، فذلك لأنّ الشّيطان بالرّغم من صفاء تفكيره، لا يفهم شيئاً من رغبات الإنسان واندفاعاته. ســـأكون واضحاً معك لمرّة واحدة، شخصياً لا أجد للعالم لونين، لا أعـــتقد أنّ هـــناك مـــسمّيات غبية مثل الخير والشّر، تلك المسمّيات اختـــرعها البسطاء لحماية أنفسهم. فهم يجدون كلّ من يحكم شريراً، لأنّهم لا يستطيعون الوصول إلى مكانه، لكن... ماذا لو احتلوا المكان ذاته؟ ساعتها سينقلب مفهوم الشّر والخير، وسيجدون مسمّيات أخرى لوضعهم الجديد.

وإذا أردت أن أناقشك من المنطق ذاته الذي تتحدّث به، سأطلب مـــنك أن تنظر للأمر من الجهة المقابلة، سترى بنفسك أنّ العنف يولّد العنف المضاد، ولا يمكن للسّلطة أن تتغاضى عمّا يحدث، وإلاّ غامرت بمكانها.

ساد الصّمت بينهما بعض الوقت قبل أن يصلا مشارف البلدة من الجهـــة الـــشّرقية. أحـــسّ ماهر بشيء يغوص في ضلوعه، وصعوبة في التّنفس، نـــزل من السّيارة على عجل، وعبّ الهواء بعمق. لم يشعر مع ذلك بالارتياح، ضحك أبو فراس، وقال:

- يبدو أنّك وصلت إلى مرحلة عليك أن تفكّر فيها بشكل جدي بترك التّدخين.

يـــدرك جيداً، أنّه لا علاقة للتّدخين بالأمر، بل هو حدسه الذي يلتقط كهرباء قاتلة من الجوّ العام.

دخـــلا مـــبنى الحزب، وجلس بصمت. لاحظ أنّ الجميع كانوا بانـــتظار "أبو فراس"، الذي جلس بسرعة وراء المكتب، وتناول أوراقاً

معدّة سلفاً! لمح أسماء الأزقة مكتوبة عليها، "زقاق نصرة" "زقاق أسوم" زقاق ديبو" و... انقبض قلبه أكثر. الأوراق الّتي تأملها أبو فراس بتمعن كانت تحوي أسماء البيوت وأصحابها، وعدد سكّانها. لم يفهم معنى ذلك، صعقه خاطر مزعج حين لمح خطوطاً حمراء تحت أسماء محددة، أوّلها محمّد نصرة. كاد قلبه ينتفض خارجاً من ضلوعه، وهو يرى بعين ذاكرته المشهد الذي حُفِر في مخيلته وهو طفل صغير، أبو فلان جد محمّد نصرة الذي هاجم الفرنسيين في خان البازار بسدّة الكور! والذي ذهب ابنه البكر سعيد إلى حرب فلسطين، وعاد منها عاجزاً، يجوب الشّوارع كلّ يوم منذ طلوع الفجر وحتّى غياب الشّمس بحثاً عن حقيقة ما حدث. محمّد! لماذا؟ همس بشيء من الاستغراب:

- ما معنى هذا "يا أبو فراس"؟

قال أبو فراس بلا مبالاة:

- اسأل أولاد بلدك، هذه الأسماء مسجّلة خطر على أمن البلد، والبقية تحتاج لفركة أذن كي تتأدب.

فتح فمه دهشة، لكنّه لم يستطع النّطق بكلمة. خرس تماماً، إن كان يجهل النّاس جميعاً، فلن يجهل محمّد نصرة الذي عاد من حرب تشرين وصدره مزيّن بالأوسمة. وحكت البلدة عن بطولاته وصموده هناك. ماذا يحدث بالضبط؟ شعر بحاجته لمن يشرح له. فجأة لمح "الساطور" يقترب من "أبو فراس" ويناوله مظروفاً مغلقاً، ويهمس في أذنه بضع كلمات. هزّ أبو فراس رأسه، وأشار إليه بالانصراف. وغمز بعينه ناحيته قائلاً:

- عرفت؟

نعم لقد فهم، وعرف كلّ شيء، الساطور، ابن رمز الدلاّلة، سائق أمين الشّعبة القذر، لكن أيعقل أن يدوّن أسماء كلّ هؤلاء الذين لا

علاقـــة لهـــم بـــشيء؟ ومن أجل ماذا؟ أجابه صوت ساخر من داخله "وكأنّـــك لا تفهم!". وكيف لا يفهم؟ لقد رأى بعينه كلّ شيء، وهو بعد صغير، قبل أن يكبر، ويدرك بشكل أوضح.

أوّل مـــرّة وطئت قدمه زقاق "رمز" كان في الثّامنة من عمره، رافق محمّـــد ديـــب الذي يكبره بست سنوات إلى هناك، بعد أن أغراه بمشهد غريب لن ينساه طيلة حياته، تسلّقا القنطرة المطلّة على ساحة بيت رمز من الجّهـــة الجّنوبية، وكمنا قرب حافة السّطح الّذي تسلّلا إليه بحذر، جلس محمّد ديب بهدوء وهو يدّخن أعقاب سجائر لا يدري من أين جمعها، ولم يكـــن يهتم لذلك، فقد انشغل بدقات قلبه السّريعة، وخوفه من اكتشاف أمـــرهما. أجـــبره محمّد ديب على الجلوس ريثما تنعقد الجلسة، كاد قلبه يـــتوقف من الرّعب حين لمح والده يدخل إلى السّاحة بصحبة علي أسعد باشـــا. قرصه محمّد ديب بشماتة، وهمس:"أرأيت؟". توقفت الصّرخة في حلقـــه. وتجمّـــد في مكانـــه، وهو يرى امرأة ترتدي ثياباً شفّافة، وتتزيّن بأســـاور وأقـــراط وخلاخيل، وتضع أصباغاً كثيرة على وجهها، شعرها الأجعـــد الطّـــويل غطّى قسماً من صدرها وظهرها، رحّبت بوالده وعلي باشا، وهي تضحك ضحكة غريبة، لم يسمعها من قبل، وجلست بينهما. ثمّ دخلـــت فتيات متزيّنات مثلها، يرتدين ملابس قصيرة وشفّافة، تناولت إحـــداهن آلة موسيقية أمامها، وبدأت بالعزف، ونهضت الباقيات يرقصن، ويـــتمايلن، ويضحكن، وهن يجلسن بالتّناوب على ركبة الباشا ووالده! لم يفهم شيئاً مما يجري، وحين سأل محمّد ديب، قال له:

– يا غشيم، رح تشوف بعد شوي كلّ شيء. لو شرحت لك ما رح تفهم. تفرّج وبس.

كـــان على يقين بأنّ محمّد ديب يعرف أشياء خطيرة، فهو يلحق الـــصّبية مهدداً إياهم بأنّه سيفعل "كذا وكذا... بهم"، ويعترض طريق

الفتيات على درب العين، ويتحرّش بهن. مجرد حضوره في الزقاق، يثير خـــوف الفتـــيات فيبتعدن عن طريقه، ويحاول الصّبية مراضاته بجمع أعقـــاب السّجائر له، وإطعامه ما بحوزتهم من جوز ولوز وتين يابس. يـــدرك أنّ محمّد ديب يصلح للزعامة وقيادة صبية الحي في كلّ مشكلة يخطّط لها، وينفذها.

حاول أن يبتعد ببطء، ليهرب من الموقف الصّعب الذي وُجدَ فيه، لكنّ محمّد ديب أمسكه من طرف جلبابه، وسحبه بقوة لينبطح أرضاً، ويخـــرس تمامـــاً. دمعـــت عيناه، وسالت على خديه، شربها، وشرق بـــصمت، بقـــي هكذا لحظات، يخجل من النّظر إلى أرض الدّار، على الـــرغم مـــن قرصات محمّد ديب الموجعة لفخذه، أحسّ بسخونة بين ســـاقيه، ثمّ أرعشه النّسيم البارد، جمّد الخجل جسده، لم يعد يستطيع الحـــركة، كانـــت إحدى الفتيات تصدح بأغنية جميلة، ينساب صوتها ببحـــته الدّافئة في أرجاء الزقاق، مصاحباً نغمات العود، وذراع أسعد باشـــا تحتضن فتاة تجلس على ركبتيه، ووالده يهمس بكلمات في أذن رمـــز، لتـــنطلق ضحكاتها الفاقعة بلون زهر الرمان، فتلوّن العتمة بدم يـــسيل على الجدران، لا يعرف كيف احتلت تلك الصّورة لضحكتها مخيلـــته، ولم تفارقها أبداً. أراد أن ينتهي كلّ ذلك ليهرب إلى فراشه، فيدفن فيه خجله وغضبه وتساؤلاته المرّة، تضرّع إلى الله أن يبقي محمّد ديـــب الأمـــر طي الكتمان، وألاّ يفضحه في الغد أمام صبية الزقاق، ويـــسخر مـــن جبنه ومن والده. ساد الهدوء فجأة، ورأى أسعد باشا يحمل الفتاة، وهي تتلوى وتضحك، ويدخل بها إحدى الغرف. ورأى والـــده ينـــسل بصحبة فتاة إلى غرفة ثانية! لم يستطع أن يحدد إن كان ذلـــك أراحه، أو أصابه في مقتل، تصارعت في داخله مشاعر غريبة من الحـــزن والقهر والغضب والارتياح. لقد انتهى الأمر على خير، ولم يره

والـــده، لكنّ الخوف من لسان محمّد ديب، الّذي التفت إليه في تلك اللحظـــة، وهـــو يتنهد بحسرة، ويقول: "والدك وأسعد باشا غبيان، لا يفهمـــان شيئاً في دين النّسوان، شوف الحمار الأوّل راح مع بنت من جيل أحفاده، والثّاني أبوك البغل، لحقته بنت أكبر منك بشوي، يخرب ديار الاثنين سوا"[1]. لم يفهم ما قصده محمّد ديب من كلماته تلك، إلاّ بعد سنوات، حين أخبره أنّه يزور بيت رمز الدّلالة، وأنّه متورط في أمر خطير، لا يعرف كيف يخرج منه، حدّثه عمّا جرى بينه وبينها، كيف قفز من السّطح إلى أرض الدّار في غيابها، وكمن في المدخل المعتم حتّى عـــادت، وطـــوقها من الخلف، وأغلق فمها بيده، وجرّها إلى الدّاخل، وكيف استسلمت له بسرعة. لم يشكّ بصدق روايته، بل احمرّ وجهه، وبلع ريقه بصعوبة، فلكزه محمّد ديب غامزاً "شممت وسكرت، كيف بك إذا شربت؟ العمى بقلبك قديش خرع، أخ لو تذوق، يخرب بيتها واحدة داهية".

فـــتح فمه دهشة، يذوق ماذا؟ شرح له بالتّفصيل، اقشعرَّ جسده وهـــو يسمع الحكاية، وفكّر أنّ محمّد ديب يختلق ذلك، إذ لم يستطع تـــصوّر مـــا قاله، حتّى بعد أن عرض عليه أن يتركه يشاهد كلَّ شيء بعينه.

هل يمتلك الجرأة على القيام بتلك المخاطرة؟

دفعـــه الفضول لقبول التّحدي، أراد أن يرى ذلك الشّيء الذي يجعـــل الـــرجال يتـــركون نساءهم في البيوت ويتسلّلون إلى بيت رمز الدّلالة.

احـــتقن وجهه بسبب تدفق الدّم السّريع، وهو يعبر الدّهليز المعتم إلى فـــسحة الدّار الواسعة، لم يتصوّر يوماً أنّ بإمكانه أن يختلي بامرأة

(1) تستخدم في العامية بمعنى "معاً" وبمعنى "نعم صحيح"، حسب موقعها من الجملة.

تحت سقف واحد، وتصوّر شيخه عمر ينظر إليه بريبة محاولاً اكتشاف فعلته هذه، ارتعش جسده، وتراجع إلى الخلف خطوات، أمسك محمّد ديب يده "وين رايح؟ وصلت اللقمة للفم" قال له بصوت خافت: "لا أستطيع، لا تورطني الله يخليك". ضحك محمّد ديب بخبث، وقال: "لا بأس، ابقَ في السّاحة، ألا تريد أن تتفرّج؟ يخرب بيتك ما أجبنك".

بعد عودتهما، سأله محمّد ديب عن رأيه، فقال بصراحة: "عليك أن تتركها، ستؤثر على مستقبلك، برأيي أن تذهب إلى حلب، ولا تعود حتّى تنهي دراستك في الكلتاوية".

عمل محمّد ديب بنصيحته، وعاد إلى البلدة بعد سنوات، وقد لبس العمامة، وراح يفتي بين النّاس، ويؤمهم في الصّلاة، ثم اعتلى منبر أحد المساجد، وأصبح خطيباً، بعدها اختصّ بزاوية يؤمها أصحاب الحاجات، لكنّ ذلك كلّه لم يطفئ الإشاعة الّتي تداولتها ألسنة النّاس، وبقي كثيرون ينسبون ابن رمز الدّلالة إليه، على الرغم من إنكاره لذلك.

تأمل ملامح "الساطور" وهو يدخل ثانية إلى مكتب الحزب، باحثاً فيها عن ذلك الشّبه الذي يتحدّث عنه النّاس بينه وبين محمّد ديب، لم يستطع قطع الشكّ باليقين، على الرغم من وجود أشياء مشتركة!

أيقظه صوت طائرات الهليوكوبتر من تأملاته، خرج إلى السّاحة، فرأى الجبل قد طُوّق! تجوّل مع "أبو فراس" في سيارته العسكرية، شعر بالخوف، وهو يرى الدّبابات تحاصر البلدة من مداخلها الثّلاث شرقاً وغرباً وشمالاً، والجنود ينتشرون في الأزقة والشّوارع والحارات. البلدة ساكنة صامتة، وضوء النّهار يتسلّل على استحياء، خجلاً من همجية الجنود الّذين يداهمون البيوت، فيقلبون عاليها سافلها، ويقودون رجالها

أمامهم. رآه بينهم، أهي مجرد مصادفة أن يكون شاهداً على قتل القيم الّتي تتربّى عليها الأجيال من خلال شخص أحد أبطالها محمّد نصرة؟ كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، الأثاث مرميٌ بشكل عشوائي، الكتب على الأرض، والصّور والأوسمة، وهم يجرّون الرجل ككلب أجرب! ويركلونه ببساطيرهم. كيف يستطيع بلع غصته؟ كيف سيتحصن بلامبالاته تجاه ما يجري؟ كثيراً ما اعتقد أنّه غير معني بكلّ ما يحدث، وأنّ الناس تستحق أكثر من ذلك. لكنّه في هذه اللحظة، أصبح على يقين بخطأ نظرياته كلّها. "هل تعتقد أنّ المسيح وحده سُمِّر على الصليب؟ كلُّنا مصلوبون، دُقت المسامير في أرواحنا". صوتٌ من أعماقه همس في أذنه مواسياً، فتمتم: "تباً للكلمات، ما أسهلها!".

طلب من "أبو فراس" أن يسمح له بالذّهاب إلى بيته ليطمئن على عائلته، ردّ باستعجال:" ابقَ معي، أحتاجك الآن، عائلتك بأمان، أعطيت تعليماتي بعدم تفتيش بيتك". لم يرتح للهجة "أبو فراس" ولكنّه كان مضطراً لقبولها على مضض، والتّغاضي عن تلك الوخزات الموجعة الّتي تهاجم صدره بين دقيقة وأخرى، وقهرها بالتّدخين، والانشغال بما يجري حوله.

لأوّل مرّة يكتشف أنّ قلبه ضعيف، ولا يستطيع رؤية الجثث المشلوحة فوق الدّبابات، والّتي كان الجنود يحملونها بلا مبالاة، ويلقونها فوق بعضها، كأنها أكياس رمل فارغة. ميّز بعضها بسرعة، وأخفى وجهه بيديه. ما هذا؟ هل يعقل أن يكون مشاركاً في هذه المجزرة؟ أيمكن أن يكون هؤلاء الفتية كلّهم محاربين وإرهابيين، ويحملون السّلاح تحت إمرة أحمد علوان؟ اللعنة عليه ذلك السّافل الذي قاد هؤلاء إلى هذا المصير. حاول أن يتحامل على خوفه، وينظر مرّة أخرى، أسماء بعينها، صدمته، لم يصدق أنّ هؤلاء كانوا يقاتلون في

الجـــبل، صفعه الكتاب الملقى بجانب إحدى الجثث، طالبٌ في سن ابنه أحمـــد، كـــتابه يقول إنّه كان يدرس لامتحان البكالوريا. غادر مبنى الحـــزب لا يلوي على شيء، لم يرد على نداء" أبو فراس" الذي طلب منه البقاء لتناول الغداء معه. غصّت الدّموع في حلقه، وأدمته.

حـــين وصـــل الـــسّرايا، وجد فريدة منهارة تماماً، أمسكت به، تشبثت بملابسه، وهي تقول من خلال دموعها:

- أيـــن كنت؟ ألم أقل لك إنّ الأولاد فوق؟ لم يعودوا، ثلاثتهم فـــوق، الطّـــيران غـــادر، والدّبابات نـــزلت من الجبل، ولم يعودوا، أرجوك، أحضر لي أولادي.

اتصل "بأبو فراس" على عجل، فقال له: "تعال لعندي، سنبحث عنهم بين المعتقلين".

لا يعـــرف كـــيف غادر المنـــزل، وكيف وصل السّاحة المليئة بالـــرجال، الذين عُصبت أعينهم، وكُبّلت أيديهم خلف ظهورهم. دار كالمجـــنون بينهم، لم يجد أحداً. حينها قال أبو فراس بهدوء: "لا تأكل هم، رحّلوا الكثيرين إلى السّجون، سنبحث عنهم، وسنجدهم".

حـــلّ المساء، وهو يبحث بين المعتقلين بلا جدوى. قال أبو فراس بصوت خافت:

- أرجـــو أن تتمالك أعصابك، لا بدّ من البحث بين الجثث قبل ترحيلها.

لم يـــستوعب مـــا قاله أبو فراس، شعر بفراغ في دماغه، حواسه تعطلت، وجحظت عيناه، حدّق فيه بذهول، وكأنّه يطلب منه أن يعيد صياغة جملته بشكلٍ آخر، رفض أن تدخل الكلمات إلى عقله، قال بعد صمت طال بينهما:

- أظنُّكَ تعني أنّهم على قيد الحياة.

قال أبو فراس بهدوءٍ مفتعل:

- أتمنّى ذلك، لكن لا بدّ من البحث.

نهض، يجرُّ جثته، وكأنّ روحه غادرته، لم يشعر بخطواته على الأرض، لم يعد يسمع كلمات "أبو فراس"، لم يرَ أمامه شيئاً، حتّى الجثث المكوّمة أمامه اتّخذت لها أجنحة، وطارت! أدار أبو فراس رأسه بقوة، وسحبه من يده بعيداً، وهو يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون، لا أستطيع أن أصدّق، كيف حصل ذلك؟". لم يرد، كان في عالم آخر، الصّمت هو كلُّ ما استطاعه، أجلسه أبو فراس على كرسيٍ في مبنى الحزب، وأحضر له كأس بابونج، وطلب من مرافقه حمل جثة أحمد إلى البيت، واتّخاذ الإجراءات اللازمة للدّفن، واستدعاء أحد المسؤولين عن حصار الجبل للتّحقيق في الحادث!

وصل إلى سمعه أخيراً كلمة "حادث"، وفهم أنّ خطأً ما قد حدث.

خبط أبو فراس زجاج المكتب بقبضته القوية، فتناثر أجزاءً، وهو يصرخ: "أوامر من؟ قلت لكم أن تقتلوا من يقاوم، هل حمل سلاحاً في وجهكم؟".

لم يهتم لصراخ "أبو فراس"، لم يكن يعنيه في تلك اللحظة شيئاً، فقد كان يشعر أنّه المسؤول الوحيد عن مصير ابنه. خرج يجرّ جسده المنهك، لا يكاد يبصر طريقه، تبعه أبو فراس بسرعة، أسنده حتّى السّيارة، ركب إلى جانبه، ورافقه إلى البيت.

استدعى أبو فراس الضابط المسؤول، وقبل أن يفرغ غضبه بكلمات يصبّها فوق رأسه، همس الضابط: "سيدي، أريد الانفراد بك". قفل أبو فراس الباب، وطلب من الضابط أن يتكلّم. تغلّب الشاب على ارتباكه، وقال: أنا يا سيدي من ساعدهما على الهرب، لم أستطع أن أتركهما للموت، ساعدتهما في دفن الكتب، وحملتهما

بطائرتي، وتركتهما هناك خلف الجبل في قرية بزابور، وطلبت منهما ألا يخبراني عن وجهتهما، بإمكانك اتّخاذ الإجراء اللازم.

ابتسم أبو فراس أمام دهشة الضابط الشاب، وأمره أن يسرع خلفهما، ويوصلهما إلى مطار حلب وهو سيجري اتصالاته لتأمين سفرهما، و لم ينسَ أن ينبّه الضابط إلى أهمية الأمر وسريّته.

لم يكن هناك أحدٌ بجانب ماهر في المقبرة، عاد إلى البيت وحيداً، بضعُ جنود قاموا بتعزيته، وغادروا مسرعين. أسدل السّتائر، وجلس في العتمة وحيداً، بعيداً عن صراخ فريدة، الذي يشقُّ هدوء الزقاق، وصوت أمّه الخافت وهي ترتّل القرآن. زاره أبو فراس منتصف الليل، وأخبره بالأمر، وأكّد عليه ألاّ يخبر فريدة، فأمر كهذا لا يمكن البوح به لامرأة، شدّ على يده قائلاً:

- كان تصرفي تجاه صداقتنا مغامرة بمستقبلي، وأنت تدرك ذلك، دع فريدة تعتقد أنّها فقدت الثلاثة، أفضل من أن يبحثوا عنهما، ونضيع أنا وأنت، تفهمني طبعاً.

خرج بعد أسبوع من عزلته، وأخبر فريدة بهدوء، أنّه سيبيع السّرايا، ويغادر إلى اللاذقية.

لم يجد صعوبة في إيجاد مشترٍ للسّرايا، كان محمّد ديب جاهزاً لشرائها منه. و لم يهتم لذلك كثيراً.

حين حطّ الرحال في بيت فريدة، اختار غرفة في الطّابق الأرضي، كي لا يصعد إلى حيث ذكرياته معهم. أقفل غرفهم كما تركوها، واحتفظ لنفسه بعزلة شبه دائمة في غرفة المكتب، بعد أن أضاف سريراً إلى أثاثها.

بدأ بكتابة مذكراته، احتفظ بالأوراق في أحد الأدراج، يقفلها بإحكام كلّما اضطر للخروج من غرفته، ويحمل المفتاح معه. مرّت

الأيـــام عاديـــة، بطيئة، لا لون لها، حتّى رنّ الهاتف في مكتبه، وسمع صوت "أبو فراس" يقول:

- أين أنت يا رجل؟ إذا لم أسأل عنك لا تتذكّرني؟

تمتم بكلمات مبهمة، فقال أبو فراس:

- ما علينا، اتّصلت بك لأمر هام، أرجو أن لا يستفزك حديثي، هل تذكر أحمد علوان؟

وهل نسيه كي يتذكّره؟ مثله لا ينسى! تابع أبو فراس:

- هل تعرف أنّ عنده ولد اسمه المثنى؟

ردّ بصوت مبحوح:

- نعم.

قال أبو فراس:

- لقد اعتقلنا ابنه منذ أيام، ليس هذا مهماً بالنّسبة لي، بل علاقة ابـــنه بابنتك، أرجو أن تتمالك أعصابك. ما فهمته أنّ المثنى صديقها، أو... ربّمـــا.. أقصد أنّه يفكّر بالارتباط بها، هذا ما وجدناه في أوراقه أثناء تفتيش البيت، إن أحببت أرسل لك الأوراق.

تلقّى صفعة قاسية على وجهه، نسمة! والمثنى! كيف، لا يمكن أن يحدث ذلك.

في تلك اللحظة برز أمامه المقعد الخشبـــي، يده الّتي تحفر الخشب بالمـــسمار، يـــد المثنى الصّغير الّتي تحفر الخشب، فوجئ أنّه يذكر حتّى تفاصيل ملامحه، لون عينيه، لون شعره، ثوبه الفضفاض القصير الوسخ، قدميه العاريتين، جسده الهزيل، وتتراكم الصّور، تتهاوى، يسمع صوت عـــبد الحـــي، صـــوت أحمد علوان السّائس، ويرى المثنى شاباً يدخل السّرايا، وهو ملقىً في السّرير النّحاسي، وحده والخادمة السّوداء!

يستفيق من هول الصّورة على صوت أبو فراس:

- أنتظر رأيك.

- افعل ما يجب، هل لرأيي تأثير، أظنّه يستحق الشّنق.

حين وضع السّماعة، هاجمته عينا أحمد علوان معاتبة بطيبتهما المعهودة "لكنّه وحيد أمّه". ارتعشت يده، واكتفى بجرع كأس الماء، تذكّر كيف فقد أثر أيمن وحمزة بعد مغادرتهما البلاد، همس: "هي أيضاً وحيدتي، لن تكون لك يا سايس، لن تكون أملاكي لذريتك".

تذكّر ماهر باشا في تلك اللحظة الفرس الّتي نفقت بعد سفر أحمد علوان، وشعر بالغيظ يفور في صدره، لقد كانت فرسه المفضلة، أراد أحمد علوان أن يتنازل عن مستحقاته كلّها مقابل الفرس، لكنّه رفض أن يقايض بها أموال الدّنيا. الفرس حرنت بعد سفر سائسها، وأضربت عن الطّعام، ونفقت خلال أيام، قرّر في ذلك الوقت أنّه لو تعثّر يوماً بأحمد علوان، فسوف يخنقه بيديه.

لم يمرّ وقت طويل حتّى رأته فريدة خارجاً من مكتبه كعاصفة، وقد حطّم زجاج المكتب والباب والنّافذة، وهو يسأل عن نسمة. تمالك على كرسيٍ بجانبه، وهو ينتفض من الغضب. تساءل بغيظ "أين ذهبت تلك الـ...؟". لم تردّ فريدة، جلست في كرسيها، وسرحت نظراتها عبر النّافذة، لم تكن تعلم حقّاً ما يجري، كلُّ ما تعلمه أنّ نسمة ودّعتها، وقالت كلاماً يعني أنّها لن تعود!. لم تهتم، لم يتغيّر شيء بالنسبة لها، منذ فقدت أولادها الثّلاثة، لم يعد العالم يعنيها، فقد خلقت لها عالماً لا يطؤه إلاّ أحباؤها الّذين رحلوا، ترى أم مصطفى تحدّثها عن جدها عبد المعطي عندما قادوه إلى السّفر بر، وترى أمّها هاجر تعاني آلام الولادة، وتصرخ "افتحوا النّوافذ" وترى حمزة وأحمد وأيمن، يتوسطون غابة كثيفة من أشجار اللوز، يتضاحكون، ويتسامرون، ولكنّهم لا يلتفتون إليها أبداً. ولا تعرف ما معنى وجود هذا الرجل

المجـــنون قربها في هذه الغرفة! تتساءل أحياناً من يكون؟ ولا تجد إجابة مقنعة.

هـــزها مـــن كتفيها برفق، بعد أن هدأت أعصابه، وقال بصوت خافت:

- ألا تعـــرفين أين نسمة؟ ألم تخبرك أنّها ستتزوج المثنى ابن أحمد علوان؟

نظـــرت فـــريدة في وجهـــه بذهول، ولم ترد، كانت تبحث في ذاكرتها الخربة عن تلك الأسماء الّتي نطق بها، وتمتم لسانها بخوف:

- مَنْ؟... مَنْ أحمد علوان هذا؟

ارتخت يداه، وابتعد عنها، وهو يقول: "لا حول ولا قوة إلاّ بالله، ماذا حدث لعقلها؟".

* * *

بعـــد عـــودته من حلب، أغلق عليه باب المكتب، ولم يخرج إلاّ لقـــضاء حاجته، لم يكن من السّهل أن يستوعب ما جاء في مذكرات المثنى الّتي أعطاه إياها "أبو فراس". حاول أن يجد منفذاً يُخرج منه ابنته من هذه الورطة، حاول أكثر أن يقنع نفسه أنّ المثنى يتخيّل فقط، وأنّه لا يمكـــن لنـــسمة أن تفعل ذلك. وضع الأوراق أمامه على المكتب، فـــردها، وراح يفتش في ثنايا السّطور عن حجة واضحة تبرئ ابنته من تهمة علاقتها بهذا الشّخص القذر. كانت كلمات المثنى واضحة لا لبس فـــيها، مـــؤرخة بالأيام، ومحددة بالأسماء. أحاط رأسه بيديه، وصرخ: لماذا؟ لماذا فعلتِ ذلك بـــي يا نسمة؟ ألم يبقَ في العالم رجلٌ سوى ابن أحمد علوان؟

حـــدّق في الـــورقة الأولى، حـــدّق في الخـــط النّاعم المرتعش، وزفر"اللعنة". في رأس الصّفحة كتب المثنى.

- إلى نسمة الرّوح، ستبقين في القلب دائماً، وإن فرّقتنا الأيام.
- أرجو أن تصلك هذه الأوراق بعد موتي.
- لا تظنّي أبداً، أنّني يمكن أن أؤذيك مهما فعلتِ بـــي.

1979/11/15

لقد جادت عليّ الدّنيا بالحبّ، جادت عليّ بنسمة، روحي تحلّق في الفضاء الرّحب، عدت إنساناً من جديد، في اليوم الذي قبلت فيه نسمة أن تجلـــس معـــي في مقـــصف الكلية، شعرت أنّ الدّنيا ضحكت أخيراً في وجهي، وأنّني سأقطف النّجوم بيدي، وأجعلها تسجد أمام بهائها. فاجأتني حـــين قالت إنّ ماهر الصّياد والدها، زال انـــزعاجي حينها من توجهات نسمة الشّيوعية، فقد أيقنت أنّها مجرد طفرة، وستعود إلى أصلها، لا يمكن لابـــنة مجاهـــد مثله أن تنحاز إلى الكفّار الملحدين، من واجبـــي أولاً أن أعيـــنها علـــى نسيان شمس، إنّه العقبة الوحيدة في طريق حبـــي لها، وفي طـــريق انتمائها، لولا وجوده ما قرأتْ نسمة كتاباً واحداً من تلك الكتب القذرة، لكنّي بعون الله سأنسيها كلّ شيء.

1980/2/15

زارت نسمة خربة الورد، كنت أضع يدي على قلبـــي خوفاً من تلـــك الزيارة، لكن لا بدّ لي من معرفة رأيها في المكان الذي ستسكن فـــيه، أعـــرف أنّ الزيارة قد لا تكون في صالحي، لكنّ نسمة واضحة وصريحة، وسيكون لتلك الزيارة أثرها في نفسها.

تـــوقعت موقـــف أمّي المعارض، وقد حضّرت نفسي لمواجهتها بالحجـــة، ما لم أتوقعه إصرار أمّي على الرفض، وامتقاع وجهها حين عرفت ابنة من تكون الفتاة الّتي زارتها.

ريـــحُ كـــراهية عنيفة خرجت من فمها، وهي تشتمني بألفاظ لم أسمعها منها من قبل.

قالتها بوضوح: "ابنة ماهر الصيّاد؟ هذا اللي كان ناقصني، والله ما بتتزوجها وأنا حية".

حاولت أن أعرف منها السّبب، رفضت أن تقول كلمة واحدة.

...3/4

هددت أمّي أن أترك البيت، وألاّ أريها وجهي ثانية إن أصرّت على موقفها، فلم تتزحزح، هددتها بالانتحار، فتحت فمها بيأس، وقالت:

- أتعرف من يكون ماهر الصّياد؟

قلت:

- نعم، وهذا ما شجعني على الارتباط بها.

قالت:

- أنت لا تعرف شيئاً، إنّه السّبب في وجودنا هنا في هذه القرية، إنّه السّبب في فقرنا وذلنا، إنّه السّبب في سجن والدك.

صعقني كلامها، أعرف أنّ أبي كان سجيناً، لكنّه هرب من السّجن منذ زمن طويل، وحمل السّلاح في وجه السّلطة، ما علاقة ماهر الصيّاد بذلك، وهما من حزب واحد؟ لم أقتنع بكلام أمّي الّتي استندت على الإشاعات، لم تكن لديها الحجة الكافية، لكن ما قالته عن طرد ماهر الصيّاد لأبي من عمله، وحرمانه من مستحقاته وأجره، حزّ في نفسي، وهزّ الصّورة الجميلة الّتي رسمتها في مخيلتي للرجل العظيم الذي أريد أن أناسبه. مع هذا تغاضيت عن الحقيقة من أجل نسمة، وأقنعت نفسي أنّ الزمن تغيّر، وأنّ الرجل أصيل، وربّما يكون لديه سبب مقنع - على الأقل بالنسبة له - لفعلته.

...4/6

قتلتني نسمة، آخر ما كنت أتصوره أن تكون حمقاء ولا مبالية إلى هـــذا الحدّ، أعرف أنّها مزاجية، لكن ليس إلى درجة أن تقول ما قالته، كيف تجرؤ على تحطيمي بتلك البساطة؟

طيلة عمري أكره التّطرف، وأسعى أن أختلف عن أبـــي في خط ســـيره، ولهـــذا رفضت دعوات زملائي المتكررة لحضور اجتماعاتهم السّرية، لكنّ نسمة استطاعت أن تفعل ما عجزوا عنه، قذفتني في أتون الجحيم، كنت أظن لفترة ليست بالقصيرة أنّ حمل السّلاح خطأ يرتكبه الـــبعض منا، وأنّ الحل لا يكون إلاّ في الحوار، كم سخروا مني! الآن أذهـــب إليهم طائعاً، أريد أن أصبّ نقمتي على أحد ما، لم أستطع أن أؤذي نـــسمة، كان بإمكاني سكب ماء النّار على جسدي، ولا أتركه يلمس ثوبها، يا إلهي أيُّ شيطان يسكنني؟

...4/10

لا أدري لَمَ تتكالب الخيبات على روحي؟ ما الذي يحدث؟

لم أتوقـــع أن ينتهي اجتماعنا اليوم بهذه الصّورة المخزية، لا زال عـــرق العـــار يغسلني، وحمى الانكسار تأكل جسدي، وصوت "أبو الفـــداء" يطرق دماغي بقسوة: "لم يعد مناسباً أن تنضمّ إلينا، هذا قرار اتّخذناه بالإجماع". قرروا فصلي من الحزب، للسبب ذاته الذي أردت مـــن أجلـــه حمل السّلاح! واجهني "أبو الفداء" بكلّ صفاقة: "لا نريد جواســـيس بينـــنا". لم يستطع قهري أن يقنعه، ولم تستطع خيبتي أن تخـــرجني سليم النّفس من تلك المهزلة، ماذا أفعل؟ أيمكن أن أصدّق ما قالـــه؟ لم أتـــصوّر أبداً أن يكون نذلاً إلى درجة اتّهامها بتلك التّهمة الحقيرة. نسمة أشرف منه ومن أمّه، لكن...لا دخان من دون نار! من أيـــن جاءته تلك الفكرة الخبيثة؟ كيف تصوّر أنّها على علاقة بـــ "أبو فراس"؟ لا بدّ أنّ هناك التباس، سوء فهم، أيّ شيء، إلاّ أن تكون تلك

حقيقة، لا يمكن، لا يمكن أن تكون لها علاقة بذلك الحقير، آخر شيء يمكنني تصديقه عنها، حتّى ولو كانت عاهرة كما وصفها "أبو الفداء".

* * *

...4/15
خمسة عشر جرحاً في صدري
خمسة عشر نصلاً
سودٌ مقابضها
وقلبـــي لم يزل يخفق
قلبـــي لم يزل يخفق

* * *

خمسة عشر جرحاً في صدري
ومن جراحي الخمسة عشر
سطعت خمس عشرة شعلة
لقد ظنّوا أنّ قلبـــي لن يخفق بعد اليوم
لكنّ قلبـــي لم يزل يخفق
كراية يخفق
وسيظل،
يخفق
يخفـــ
يخـــ...[1].

لا أستطيع مراقبة النّجوم، ولا استنشاق الهواء، أعدُّ الأيام المنقضية كأنّهـــا جثث قتلى، إنّهم يقتلون تباعاً، وأنا قابع كالجرذ في هذا الجحر

(1) القصيدة لناظم حكمت.

الخرب! منذ قُبض على مجموعتي بعد آخر اجتماع لنا، وأمّي تمنعني من مغـــادرة هـــذا المكان، تخشى أن ألقى مصير أبـــي، فتقضي عمرها في انـــتظار الموت الذي سيجمعها بنا، قالت لي: "لا أحد يعود، كلُّ من يدخل هناك، يموت في أذهان النّاس، يأكله دود الأرض ببطء، ولا يبقى مـــنه إلاّ لعـــنة تلاحق من بقي حياً". أمّي على بساطتها، فهمت اللعبة مبكراً، ربّما بسبب مصير أبـــي، الذي تركني طفلاً، ومضى من دون أن يـــستطيع إرسال خبر طيلة تلك الأعوام الّتي قضاها داخل السّجن وخارجـــه، كـــلّ غياب، تجلس فوق التّل، تنتظر خبراً من مجهول يمرُّ بالقـــرية طالـــباً جـــرعة ماء، لكنَّ الحكايات تبقى زوادة ليالي الشّتاء الطويلة، ولا يمكنها أن تتحوّل إلى واقع.

* * *

أخبار الأيام

(1)

لم يكن من الصعب أن أجده، بمجرد أن وضعت الفأرة على محرك البحث "جوجل"، ظهرت صفحات كثيرة على شاشة الكمبيوتر أضاء فيها اسمه "شمس بن علي المناخيلي، أستاذ في جامعة الملك فيصل سابقاً، يقوم حالياً بالإشراف على..." لمعت الفكرة في ذهني، وضعتُ القرص المدمج في الكمبيوتر، وبحثت عن رقم هاتفه، لكنّي توقفت فجأة، ماذا لـــو ردّ علـــيّ شخصٌ آخر؟ أردت الحصول على رقم هاتفه الجوّال، قررت أن أكتب له، فتحت البريد، وأرسلت له رسالة، لم أنتظر سوى دقائـــق حتّى أضاءت الشّاشة بالردّ، فتحتُ الرّسالة وأصابعي ترتعش. الـــسّطور البائـــسة قالت: "أنا ابنة الدّكتور شمس، أبـــي لا يستخدم النت، أطلعته على رسالتك، وعد بأنّه سيردُّ عليك قريباً".

كتبت رسالة أخرى، تقول: "إذا أمكن أريد رقم هاتف الدّكتور، أنا طالبة أحضّر للدكتوراه، وأودُّ أن يشرف على أطروحتي".

أتاني الردّ بعد لحظات، وفيه رقم الهاتف!

السّرعة والسّهولة أخافتاني، حين تركني شمس كنت أتحرّق لرؤيته، وأنتظر المصادفة لتجمعني به في طريق، أو مقهى، أو في ردهات الكلية، بـــلا جدوى، ما أسهل أن أتّصل به الآن لأسمع صوته وكأنّه قربـــي! لكن كيف سأفعل؟ أخاف أن أسمع صوته، أخاف أن لا يكون هو!

تجـــرأتْ أصـــابعي، وطلبتْ الرقم، وصلني صوته عميقاً، بعيداً، التقطـــته مـــن الذاكرة، إنّه هو، كما أعرفه، النّبرة العميقة المبحوحة،

تتمطّـــى الكلمـــات، فأسمعها بالجرس نفسه "أهلاً، مَنْ معي؟" شعرتُ برعشة أربكتني، وتدفقَ الدّمُ إلى وجهي، وغصَّ حلقي بالكلمات.

قلت:

- مرحباً دكتور.

ردَّ بالطريقة ذاتها:

- أهلا وسهلاً! أمر؟

أخبرته بسرعة ما حفظته عن ظهر قلب، قال:

- تعالي إلى الكلية في السّاعة الحادية عشرة غداً.

قلت بلا تفكير:

- ألا يمكن أن أراك خارج الكلية؟

قال باستغراب:

- ما الدّاعي؟

قلت:

- عندي ظرف خاص، سأخبرك به حين أراك.

قال:

- يـــبدو لي أنَّ الموضوع لا يتعلّق برسالة أو بحث، هل تستطيعين الإيضاح؟

قلت بإلحاح:

- هل يمكن أن أقابلك دكتور؟ الشّرح على الهاتف قد يطول، إن لم يكـــن لديك مانع، سأكون في مقهى النّخيل في السّادسة، قد أتأخر بضع دقائق، حسب وصول القطار إلى محطة بغداد.

سألني باهتمام، تخيّلت معه أنّه اعتدل في جلسته، وتنحنح قليلاً:

- من أين تتكلمين؟

- من اللاذقية.

قال:

- حسناً، سأنتظرك، مهلاً، كيف سأعرفك؟

- أنا أعرفك دكتور.

صمت قليلاً، وقال بدهشة:

- مهلاً، يبدو لي أنّني أعرفك، الصّوت ليس غريباً عليّ، لكن لا أذكر بالضبط...

قاطعته:

- لا أظن دكتور، سأراك.

أغلقت الخط وقلبي يرتجف، خشيت أن يتذكّر، أو يتراجع عن قراره!

انتبهتُ إلى أمّ فاتح واقفة بباب الشّرفة، وفي عينيها دمعة، مسحتها على عجل، وقالت متلعثمة:

- ما قصدت أسمعك، كنت بدي أسألك سؤال، والله نسيت عن شو!

ارتباكها وسماعها لحديثي لم يزعجاني، طلبت منها فنجان قهوة، وغرقت في كرسي الخيزران الهزاز، استجمعتُ كلّ الصور المشرقة لعلاقتنا، وحاولت إقناع نفسي أنّ شيئاً لم ينته، وأنّ ذاك الزمن من البعد لا يعني شيئاً أمام لقائنا المنتظر، راقتني اللعبة، ورحت أتصوّر شكل اللقاء بين عاشقين فرّقت بينهما الأيام. عشرون مضت، أيعقل أن نبقى على حالنا؟ وتلك الانكسارات والخيبات الّتي حملتها في قلبي طيلة غربتي؟

داعبت أنفي رائحة القهوة، فتحت عينيّ فوجدت أمّ فاتح واقفة أمامي، تحدّق فيّ بلهفة، قالت:

- إن شاء الله على طول تضلي مبسوطة.

هل كان وجهي يفصح عن اختلاجات القلب وتبدّلاته؟ دعوت أم فـــاتح للجلوس، جلستْ على استحياء، واكتفت بالنّظر في وجهي. ســـألتها عن وليد، هكذا من دون مقدمات، لا أعرف ما الذي جعلني أتذكّـــره، تـــنهدت بحـــرقة، واكتفت عيناها بالدّمع، يهطل بغزارة، وجـــسدها يرتجّ بقوة، عرفت أنّي أثرت جرحاً في قلب المرأة الطّيبة، حاولت أن أعتذر، هدأتْ فجأة، وقالت:

- أنت مالك ذنب، هذه قسمتي من الدّنيا، وأنا راضية بها.

تحرّك فيّ الفضول، آخر ما أعرفه أنّ والدي استطاع أن يدبّر عقد عمـــل لوليد في الكويت، ليبتعد عن الجوّ المشحون في البلد، وكي لا تفقده أمّه كما فقدت أخويه. في عينيّ سؤال محدد فهمته أم فاتح، قبل أن أنطق، وردَّت عليه ببساطتها المعهودة:

- (كنت عم استناه يرجع، فكّرت أخطب له، يا حسرة قلبـــي علـــيه، ما تمنى بشبابه، آخر مرسال وصلني منه، قال لي "يا أمّي جمعت مهـــر العروس، وما رح أتأخر، رح أرجع بأقرب فرصة. وخبرت بعد أيـــام بالاجتياح، أو شو بيسموه؟ احتلال؟ والله ما بعرف، قالوا لي أنّه فُقد، يا حسرتي ما حدا تعرّف عليه، أبوكِ الله يوجه له الخير، ويشفيه، مـــا ترك وسيلة إلاّ وعملها، وسأل عنه في السّفارة، وسأل اللي رجعوا من الكويت، وما حدا عرف عنه شي.

نـــذرت أنّـــي حلّي البركة عند الشّيخ المُغْربـــي الله يرضى عنه. وأنّـــي أشحذ ثمن النّذر من نصراني، جارتنا مريم الله يطوّل عمرها، لما سمعـــت بـــنذري، راحت اشترت لي السّكر، والحلو، وإبريق جديد، وحلفـــت برأس المسيح لتطلع معي الدّرجات، ودعت الرب يردّه علي مـــثل مـــا ردّ يوسف على يعقوب. ورحنا سوا، وما وصلنا المقام إلاّ ونَفَـــسْنا انقطع، بس كلّه بيهون لعيون وليد، تجمّع حولنا خلق كتير،

شربوا مية البركة الحلوة، ودعوا لي يرجع بالسّلامة، بس يا حسرة، لا الحلـــو ردّه ولا شـــفاعة المُغْربـــي، بس ما فقدت الأمل، رحت لابن هـــيني[1]، ونذرت عنده شموع ما تنطفي شهر كامل، وكشفت راسي عـــند مقام الخضر عليه السّلام، كلّ الأولياء والصّالحين، ما رجّعوا لي الغايـــب. أكتر من عشر سنين مرّوا وأنا عم أستنى، وكلّ مرّة بشوفه واقـــف بالـــباب، وباخدو بين أيديّ، الله لا يوجع قلب ميمة[2] على ولدها يا بنتي، ما في أصعب من فقد الولد).

لم أتوقـــع أن يجرحني حديث أمّ فاتح إلى درجةِ تغلّب الدّموع علـــى مقاومتي. رأيت وليد وهو يدفع الأرجوحة بـــي، وأنا أحدّق بالسّماء الزرقاء، وأحثه أن يدفع بقوة أكبر، كلّما علت الأرجوحة، أحـــسّ أنّـــي أمتلك أجنحة تساعدني على الطّيران بعيداً عن حي الجميزة. أحببت أن أمازح أم فاتح لأخرج من حالة الكآبة المفاجئة تلك، قلت:

- لَمَ لا تذهـــبين لعند العصافيري الله يرضى عنه، وتغوصين بماء البحر، يمكن يمشي الحال.

ابتسمت أم فاتح رغماً عنها، وقالت ردّاً على مزاحي:

- بدّك أغرق؟ أنا بخاف من الماء، وبغرق بشبر ميه.

قـــضيت اللـــيل مسمّرة على الشّرفة، أغفو قليلاً على الكرسي، وأصـــحو لأبحـــث عن خيوط الفجر، وأعود إلى النّوم حين لا أجدها. حتّى وجدت نفسي في الموعد المحدد أركب القطار!

غادرت محطة بغداد، وأنا أتأمل التغييرات فيها،

---

(1) مـــسعود ابن هانئ، رأس ابن هانئ يقع على بعد 10 كيلو متر شمال اللاذقية، وتعود تسميته إلى الصحابي الجليل مسعود ابن هانئ الذي يقع ضريحه شمال شرق الموقع، ويسمى مقام ابن هانئ.

(2) أم.

صورة واحدة لم تفارق مخيلتي، صورته وهو يركض خلف القطار بكلّ قوته ليلحق بي، وأنا أمدُّ رأسي من إحدى النّوافذ وقلبي تتسارع دقاته، خشيت ألا يستطيع الوصول إلى الباب، لكنّه ظلَّ يركض، حتّى تسلّق الدّرجات، والقطار يسير! لم أنسَ يوماً ذلك الموقف، رعبي وارتباكي، وانتظاري ولهفتي، حتّى اللحظة الّتي وصل فيها إلى مقعدي، وأمسك يدي ليؤكد لي أنّه حي، و لم يحدث له شيء! لم أستطع السّيطرة على خفقات القلب، وارتعاش جسدي، لم أستوعب في ذلك الوقت، وإلى الآن لا أزال أستغرب تلك الجرأة الّتي امتلكها! تمنيت لو يعود الزمن إلى الوراء، وأراه مجدداً يلحق بقطاري ولا يتوقف أبداً.

لمحته من خلال زجاج المقهى، توقفت قليلاً لألتقط أنفاسي، وأتمالك أعصابي، تأملته لأرى ماذا فعل الزمن به، ربما امتلأ جسده قليلاً، وقلّت كثافة شعره! لا يبدو لي أنّ هناك تغييراً ما، عرفته فوراً، لم أحتج للتّدقيق والبحث عنه بين رواد المقهى. دخلت بخطى ثابتة، واقتربت من طاولته، تأملني ملياً، وبقي على جلسته، مددت يدي، وقلت بصوت خافت:

- أرجو ألا تكون قد انتظرتني طويلاً.

حدّق فيّ بذهول وأنا أجلس، وأضع نظارتي على الطاولة، نطق بشرود:

- مضى زمن طويل!

قلت بخبث:

- وأنت تنتظرني؟

قال و لم يتمالك نفسه بعد:

- وأنا أنتظرك.

فاجأني الجواب، وقلت منبّهة إياه من ذهوله:

- يبدو أنّك لم تعرفني مباشرة.

قال:

- تغيّرت كثيراً، لا أكاد أصدّق أنّك أنت. نسمة، أنت، صوتك تغيّر أيضاً، شككت أنّي سمعته من قبل، لكن لم أتوقع أن تكوني أنت! إنّه فخ، أوقعتني فيه بسهوله.

قلت غامزة:

- لم أتعـــوّد نصب الفخاخ يا دكتور، وإلاّ ما كنّا أنا وأنت الآن نجلس هنا.

قال وكأنّما ليهرب من الردّ:

- أطلب لك قهوة اكسبريس كالعادة؟

وافقـــت بإيماءة من رأسي وأنا أشعل سيجارتي، وأراقب الأطفال في الحديقـــة المقابلة، وهم يتأرجحون، ويصرخون، ويتزحلقون، هبّت مـــن الماضي روائح مطر بعيد، ويدي تشبك يده، ونحن نراقب أطفالاً آخـــرين، ونرســـم ملامـــح أطفالنا القادمين! هل كنّا أحمقين؟ عدت بنظـــراتي إلى الطّاولة، أحقّاً هذا شمس؟ شمس الذي عشت معه جدلية الـــسّجن والحريّة، الحبّ والكراهية! أهو شمس الذي احتضنت يده وأنا أصافحه لأقيس وضع النبض المحبوس في القلب بعد هذا الفراق الطّويل؟ هـــو شمس بعينه، عيناه ما زالتا تحتفظان بالابتسامة المغرية ذاتها، حدّق فيّ، لم يهتـــز القلـــب كما فعل حين وقفت قبالته أوّل مرّة في مدرّج الجـــاحظ، والـــشّمس تنعكس داخل عينيه فتضيئان الكون من حولي. لكنّي امتلكت اليقين أنّي لا زلت أحبّه، ولا زال يحبني.

تـــناولت الفنجان السّاخن من النّادل، وضعت قطعتي سكر بحكم العادة! نسيت أنّي أشربها مرّة! ابتسم وهو يقول:

- لم تغيري عادتك في شرب القهوة.

قلت بشرود:

- ما زلتَ تذكر؟

قال بتأكيد:

- وهل نسيت؟

تنهدت بحرقة:

- اعـــتقدتُ أنّك نسيت كلّ شيء، وخشيتُ أن ترفض لقائي، لهذا لم أخبرك من أكون، ما أعرفه أنّك لا تطيق حتّى أن يذكرني أحدٌ أمامك.

قال بسرعة:

- ولا زلت لا أطيق ذلك.

أحســـست بطعـــنة أصـــابتني في القلب، تدفق الدّم إلى وجهي، وأحسست بعروقي تشتعل، على الرغم من محاولاتي إخفاء ما بـــي، إلاّ أنّه لاحظ كلّ شيء، قال وهو يبتسم:

- توقعت أن تسأليني، لماذا لا أطيق أن يذكرك أحدٌ أمامي؟

قلت ببرود:

- اعتبرني سألتك.

قال وهو يداري انفعاله بإشعال سيجارته:

- لا أطـــيق مـــا يـــتقوّل به الآخرون عنك، كما أنّ هناك سبباً أحتفظ به لنفسي، هل لي أن أسألك من قال لك ذلك؟

قلت بلا مبالاة:

- المثنى رحمه الله.

وكأنّما صعق بما قلت، سألني بغصة:

- هل تعنين قولك؟

قلت وأنا أنفخ الدّخان بلا مبالاة:

- مات في السّجن منذ عشرين عاماً، ألا تعرف ذلك؟

- ومن أين لي أن أعرف؟

قلت بسخرية خفية:

- ألم تكونا صديقين؟

قال متغاضياً عن لهجتي:

- نعم، كنّا، ولكن ليس إلى الدّرجة الّتي تتصورينها، لم يكن بيننا شيءٌ مشترك، لا فكرياً ولا اجتماعياً، كنت أرتاح له كشخص طيب وبسيط، لكن حين عرفت توجهاته السّياسية اختلفنا، وافترقنا.

قلت بغصة:

- خلافكما فكريٌ فقط؟

قال متهرّباً من الإجابة:

- تعلمين، لا يمكن لماركسي أن يلتقي مع إسلاميٍ متطرف في فكره.

قلت:

- ومن قال لك إنّ المثنى كان متطرفاً؟ المثنى كان ضائعاً ومشتتاً، وقد دفع به حظه الأسود وتاريخ والده، ليدخل خن المتطرفين.

وكأنّه كان ينتظر دفاعي ذاك، ليمسك بخناقي، قال بضيق:

- لا زلتِ تحنين لتلك الأيام!

اندفعت كعادتي:

- كما ترى، لا أستطيع التّخلي عن عاداتي السّيئة.

ثانيةً، رسمتُ الخطَّ الفاصل بحدّة، ونثرت حوله الرماد، واستسلمت لتلك المؤامرة الّتي لا تنتهي حول عواطفي، قبل أن أنبس

بكلمـــة، رنّ هاتفي، أضاءت الشاشة لأرى رقماً غريباً، فتحت الخط، جاءني صوتٌ غريب يقول:

- أرجـــو أن أراك يـــا آنسة، أنا طبيب والدك، أعتقد أنّ حالته تستدعي نقله إلى المستشفى بأقصى سرعة.

أغلقت الخط، وأنا أرتجف، لماذا؟ وفي هذا التّوقيت! نهضت على عجـــل، بدا واضحاً أنّ شمس لم يفهم من كلماتي العشوائية شيئاً، و لم أســـتطع الانتظار حتّى أفسّر له، وأخبره بالمزيد من التّفاصيل، أوقفت سيارة أجرة، وطلبت من السّائق التّوجه إلى اللاذقية، تردد قليلاً، وهو يخبرني أنّ ذلك سيجعله يخالف، وأنّ خطه داخل المدينة وأنّ... ثمّ وافق حين رآني أفتح باب السّيارة وأحاول النـــزول من دون كلمة.

خـــلال الـــسّاعات الثّلاث التي قضيتها على الطّريق بلا توقف، تـــبدلت مشاعري حدّ الخوف من فقده! تدفقت تلك المشاعر الطفلة، ورأيتني في حضنه صغيرةً غضة، يطعمني حلوى، غير عابئ بنظرات أمّي المعترضـــة. رأيته يرفعني عالياً، وهو يضحك"كم تشبهين جدتك!" لم أحبّ يوماً أن يشبّهني أحدٌ بجدتي. حتّى لون عينيّ بزرقته الغامقة كنت أكـــرهه، وقـــد سعدت بتحوّل لونهما مع الأيام إلى لون لا ينتمي إلى الأزرق ولا إلى الأخضر، ويقع بينهما متوسطاً، ويصبح رمادياً أحياناً! لأنهـــي ذلـــك التّاريخ الذي يذكّرني بانتمائي إليهم، حوّلت اللون إلى عـــسلي باستخدام العدسات، كنت أراهم عائلة من القتلة، قتلوا أمّي وأخـــوتي. في هـــذه اللحظة أرى جدتي الجميلة بغطاء رأسها الأبيض، وهـــي ترمي حبات القمح لدجاجاتها، وتقطف عناقيد العنب من دالية البيت، وتقف وراء التّنور، تخرج الأرغفة السّاخنة، أراها تسجد طويلاً علـــى سجادتها الزرقاء، وبيدها مسبحتها العقيق، أحنُّ حتّى لندائها لي "بسمة"، وتعليلها للأمر بأنّ وجهي صبوح، وأنّي دائمة الابتسام، كم

هـــي جمـــيلة! أفكّر الآن بطريقة مختلفة، لو أنّ أخوتي لم يُفقدوا بتلك الطريقة المتوحشة، هل كنت سأكره أبـــي يوماً؟ أعتقد أنّني بما جبلت علـــيه من أفكار، سأكره انتمائي إلى عائلة أمّي ذات الأصول التّركية! ولـــن أفكّـــر يوماً بأن أكون نسخة عن فريدة خانم، ببشرتها البيضاء واتّـــساع عينيها السوداوين، وشعرها الأسود المحيط بوجهها البيضاوي ناعماً مسترسلاً على كتفيها كخيمة الليل. آه كم أشتاق لزرقة عينيّ!

الـــصمت المخيّم على البيت أخافني، على الرغم من وجوده منذ اللحظة الّتي عدت فيها. لكنّي أحسّ أنّه يحمل الآن طعماً آخر. صعدت الـــدّرجات بـــسرعة صحبها قلبـــي بدقاته السّريعة الّتي جعلتني ألهث. تماســـكت قليلاً، وأنا ألتقط أنفاسي، وأنظر إليه، لازال كلّ شيء كما هو، رفعت أم فاتح رأسها، وقالت هامسة:

- رفض أن نأخذه إلى المستشفى، قال الطبيب، القرار لك.

أخذت يده بين كفيّ، لم أشعر بوجود نبض، مجرد أنفاس تتلاحق في صدره، عيناه مغمضتان، وكلُّ عضو في جسده ينبئ بالموت.

غـــصت في الكرســـي الكـــبير مقابل الكمبيوتر، تأملتُ أشجار الحديقة عبر النّافذة المغلقة، تدحرجت دمعات على خدي، وهبطت في حضني، لماذا؟ لماذا عليّ أن أراقب رحيله؟ لم يعد قلبـــي يحتمل، أخشى مـــن انفجـــار المشاعر داخلي، لماذا عدت؟ كان الموت داخلي، هادئاً طـــيعاً، ومريحاً. صار أمامي بأقسى صوره، لا يمكن أن أتمنّى موته، لا، مـــستحيل أن أكون أنا. التفت صوبه، أنفاسه انتظمت قليلاً. امتدت يدي بتلقائية إلى الكمبيوتر، فتحت الملفات الخاصة به، تأملت العناوين مطـــولاً، لم يكن بـــي رغبة لعمل أيّ شيء، وبلا رغبة أيضاً وجدت أصابعي تنقر على ملف المثنى، وتكرُّ الصفحات أمام عينيّ، تكرُّ الأيام، الوجـــوه باهـــتة الملامح، لا تعني لي أكثر من كونها كلمات بلا روح،

اســـم شمـــس فقط ينبض باللون الأخضر على الشّاشة فيجعل الدّماء تـــسري في عروقي، وتتفتح الرّوح ببطء، أشمّ عبق أيامنا قريبة، قريبة. وكأنّـــي سمعـــته يهمـــس في أذني! لم أكن مخطئة، سمعت صوت عبد الـــوهاب من جهاز هاتفي النّقال يهمس"يا ترى يا نسمة ح تقولي لي إيـــه؟". فـــتحت الخط بلهفة "لا أعرف بالضبط ما سأقوله لك" قال: "ماذا حدث؟ كيف حال أبيك؟" قلت: "كما هو". قال: "لم تتركي لي فرصـــة للكـــلام، تمنيت لو ذهبت معك". قلت بحياد: "لطفٌ منك، أشكرك، لا أريد أن أتعبك معي". لم أنتظر منه المزيد، من الواضح أنّه يكلّمني من الشّارع، أو من مكان عام، والأمر لا يحتاج شرحاً!

عدت للبحث في الملفات، توقفت أصابعي عند ملف "أبو فراس"، كلمـــات المثنى لا زالت تثير الصّداع في رأسي، منذ رأيته للمرّة الأولى شعرت بما يريب، لم أرتح له، وانقبض قلبـــي لكلماته، لكنّي لم أكن قد نضجت بما يكفي لأفهم مرامه. أعتقد أنّي كنت ساذجة أيضاً، وقد ظـــنّ "أبـــو فراس" أنّ بإمكانه أن يستغل غبائي بتجنيدي بطريقة ما، لأنقل له أخبار زملائي، من كلّ الاتجاهات السّياسية، الظروف وحدها هي الّتي أنقذتني من ذلك الفخ، لتوقعني بمصيدة أكبر!

* * *

سفر الخروج

(1)

ابتسم بخبث وهو ينظر إليّ نظرة تعرّيني، قال من دون مواربة:

- هل عرفت ما قصده الشّاعر؟

حاولت أن أجمع شتات أفكاري لأفهم قصده، التفّ حول طاولته، ووقف قبالتي، حدّق في وجهي، وقال:

- معقول! كلّ هذه السّنوات في الجامعة و لم تجرّبي؟

حاولت إخفاء رعشة أربكتني، وأنا أفتش في ذاكرتي عما يقصده.

أضحكتني تلك الحادثة الّتي مرّت في ذاكرتي خطفاً، تذكّرت، كنت وقتها على أعتاب الجامعة، حين سألني: "في أيِّ كلية سجّلت". رددتُ مفاخرة: "الآداب". فقال غامزاً: "أتعرفين ماذا يقصد الشاعر بقوله:

بعيدةُ مهوى القرط صافية الطلا... بديعةُ حسنٍ كالنّجوم الزواهر"؟

أحسست بالخجل لضآلة ما أعرفه، لم أكن قد سمعت ببيت الشّعر ذاك من قبل، وحصرت تفكيري في قصد الشّاعر، ولاحظت أنّ زوجته حدّقت فيَّ مبتسمة، وتطلّعت إلى زوجها بطريقة غريبة، ثمّ صرفته عن بيت الشّعر بحديث آخر يخص زيارتهم لبيت أهلها! وقتها أحسست بالارتياح لأنّي خرجت من المأزق، من دون أن أضطر لتفسير البيت، وأخطئ فيه. لكنَّ "أبو فراس" التفت إليَّ فجأة، وهو ينظر إلى نقطة محددة في جسدي، ويقول: "يقصد من الصّفة الأولى أنّ عنقها جميل وطويل، فكّري بالثّانية!".

وأكمل حديثه مع زوجته، وكأنّه لم يقل شيئاً!

الطّـــرفة أنّـــي لم أفهم تلك الإشارة في ذلك الوقت، لأنّ زوجته المبتـــسمة دائمـــاً، لم تترك لي مجالاً للتّفكير، فقد اعتذرت مني لأنّهما مرتبطان بموعد!

خرجتُ إلى الشّارع بسرعة، وتنفست الصّعداء، لم أكن مسرورة بـــذلك اللقاء، ولم أعرف لماذا أرسلني والدي إلى بيت صديقه، مادام يستطيع الاتّصال به هاتفياً ليدبّر لي غرفة أسكنها في المدينة الجامعية؟

ابـــتعد فجأة، ولم أنتبه أنّ ذلك بسبب نقرات خفيفة على الباب، دخـــل علـــى إثرها مجند، وضع صينية الشّاي، أدّى التّحيّة بقوة، وهو يضربُ الأرضَ بقدمه، رأيته يقترب منه محاولاً أن لا أسمع ما يقال.

التفت إليَّ:

- اشربـــي الشّاي، سأعود بعد دقائق.

امـــتدت الدّقائق لتصبح ساعات أربع، قضيتها محاصرة في مكتبه، على الباب مجندٌ يبدو لي بلا روح، كأنّه صنع من صخر، لم يجرؤ على التّحرّك داخل الغرفة أو خارجها.

اقتربت منه، وقلت بصوت خفيض:

- متى سيرجع "أبو فراس"؟

نظـــر بطـــرف عيـــنه صوبـــي، وحرّك رأسه دلالة عدم معرفته للجواب، استفزتني طريقته في الردّ، قلت بحدّة:

- هل أنت أخرس؟

تدلّى فكّه بدهشة، وحدّق بـــي، وكأنّه لم يرني من قبل، وقال:

- ممنوع أن نتحدّث مع المعتقلين.

كـــدت أصرخ بوجهه، "لست معتقلة، لا بدّ أنّ في الأمر التباس، ســـيأتي "أبـــو فـــراس" وينكشف كلّ شيء". لكن ما الذي دعاهم

لإحضاري بتلك الطريقة، إن لم أكن معتقلة؟ لا بدّ أنّ هذا المجند على حق، لقد رآهم وهم يرافقونني حتّى باب الغرفة، حراسٌ أشداء وجوههم رمادية محايدة، لم أستطع أن أجعل أحدهم يتحدّث معي في الطّريق لأفهم السّبب الّذي جاء بي إلى هنا، لو أراد أبو فراس أن يتحدّث إليّ، لأرسل في طلبي كما يفعل عادة عن طريق أبي! لا بدّ أنّ الأمر مختلف هذه المرّة. يا إلهي أيّة ورطة هذه؟

دفعني توتري للنّهوض بلا وعي، حاولت الخروج من الغرفة والعسكري واقف في الباب، لم أهتم كثيراً لذهوله، ولسلاحه وارتباكه، وقبل أن يتّخذ أيّة مبادرة، مرقت من المكان الضيّق لفتحة الباب، وواجهتني وجوه كالحة في الممر الطّويل، وجوهٌ هلامية، حدّقت بي بتواطؤ غريب على إخافتي، النّظرات الرّصاصية سمّرتني مكاني، ورأيت أحدهم يومئ لي "أن اقتربي"، سرت منومة إلى باب الغرفة الّتي وقف أمامها بلباس مدني أنيق، تفوح منه رائحة عطر قوية. أشار لي ثانية لأدخل، وأجلس على كرسي أمام مكتبه، عرفت حينها أنّي أمام النّقيب علي، الذي سبقه صيته إليّ، كان البعبع الذي يخيف به الجنودُ المعتقلينَ، لم أكن قد تعلّمت الخوف بعد، نظرت في وجه النّقيب بلا مبالاة، أنتظر أسئلته، لكنّي أخطأت التّقدير على ما يبدو، فقد كان وجهه سميك الجلد، لا يفصح عن أيِّ شيء، أكاد أجزم أنّه لا يمكن أن تسيل منه قطرة دم واحدة لو استطعت خدشه بأظافري، تجمّدت في مقعدي محافظة على بلاهتي، وراق لي أن ألعب بعيداً عن الميدان، كما كنت أفعل مع أبي، لم أسمع كلمة واحدة مما قاله النّقيب، و لم أفقه شيئاً من أسئلته، بل كنت أكرر سؤالاً يتيماً ردّاً على أسئلته: (متى سيعود"أبو فراس"). ويبدو أنّ النّقيب بعد أسئلة طويلة ومداورات، حاول من خلالها جعلي أحدّثه بطريقة ما عن التّنظيم الذي أنتمي إليه،

أو علـــى الأقل أن أخبره بمعلومات عن المثنى! لم أكن أعرف شيئاً عن المـــثنى! كلّ ما أعرفه أنّه يحبني، وأنّه ابن أحمد علوان السائس، وأنّني لم أره منذ مدّة طويلة! مع هذا لم أقل شيئاً، لعلمي المسبق أنّها معلومات لا قـــيمة لهـــا، وأنّهـــم يبحثون عن أشياء أخرى لا تعنيني من بعيد أو قـــريب. لاحظت أنّ العتمة قد بدأت تتسرّب من خلال زجاج النّافذة وراء ظهر النّقيب. انقضى النّهار!

يـــبدو أنّ النّقيب علي نفد صبره، فقد زفر بهدوء، وضرب جرساً أمامـــه، فانفـــتح الـــباب بسرعة ليدخل "عنصر"بلباس مدني، خلت لضخامته أنّ رأسه سيرتطم بحاجب الباب، لفت انتباهي شكل شاربيه، ضـــخامتهما غـــير المعتادة، والتفافهما على الجانبين ذكّراني بشاربـــي طـــوني حـــنا[1]، كدت أضحك، لكنّي أطرقت إلى الأرض في محاولة لإخفاء وجهي عنه.

شـــعرت بيده تمسك ذراعي، قبل أن أرفع وجهي لأستوعب ما يجـــري، وللمرّة الأولى انتبهت إلى أنّ وجه النّقيب ليس ميتاً، فقد لمحت نظـــرته إلى "العنصر" الذي ترك ذراعي بسرعة، وأشار لي، فنهضت، وسرت أمامه، دفعني إلى غرفة فيها ثلاثة جنود، وقال لهم: "احتفظوا بها مؤقـــتاً". لم تفاجئني نظراتهم، كان عليّ التّصرف بسرعة، فصرخت: "مـــنذ الـــصباح لم أذق الطعـــام، أريد شطيرة، وكأس شاي". ابتسم أحـــدهم، ونظـــر إلى زميليه، فنهض أحدهما، وغاب في غرفة داخلية، ورفع الآخر كتفيه، وقال: "ليس لديّ نقود فائضة أضيّف أحداً بها، قلة ذوق صـــحيح". أخـــرجت خمس ليرات من حقيبتي، وناولته إياها من دون أن أنـــبس بكلمة. بقيت مع المجند المبتسم، سألته بلا هدف: "هل أنت متزوج؟". قال: "ومن يستطيع أن يتزوج في هذه الأيام؟".

(1) مغني لبناني، اشتهر في الثمانينات من القرن الماضي.

انتبه فجأة إلى أنه تكلّم أكثر من اللازم، وربّما أكثر من المسموح به، نظر إليّ كالمعتذر، وكأنّه يطلب ألاّ أتفوه بشيءٍ أمام رفيقيه.

قبل أن أرشف من كأس البابونج الرّشفة الأخيرة، فُتح الباب بقوة، ودخل "العنصر" كعاصفة، قال بلهجة جافة خشنة: "اهضي".

مشى بجانبي وعيناه تراقباني بحذر.

دخت لكثرة الانعطافات، والأدراج والممرات. شعرت أنّ الأوكسجين قد قلّ، ومن بين صف طويل من الزنزانات، فَتحَ أحد الأبواب، وقال: "اخلعي حذاءك". دفعني إلى الدّاخل، وأغلق الباب. لم أتخيّل كما فعلتْ - بلقيس ملكة سبأ - أنّها لجة، فقد خضت في الماء فعلاً، و لم أرفع طرف ثوبي!

حتّى تلك اللحظة الّتي أُغلق فيها باب الزنزانة، لم أفهم ما يجري، انكمش جسدي في العتمة، تسرّبت الرّطوبة إلى صدري، فاجأتني موجةُ سعال، أغمضت عينيّ في محاولة لاستعادة تلك اللعبة السّخيفة في التّحايل على مشاعري، خلف الجفن المغمض، رأيت فطينة خانم معلّمتي في الصّف الأوّل الابتدائي، ترفع عصاها في وجهي، وتهددني بالحبس في "جب الفار" إن نسيت إحضار كتابي مرّة أخرى. في ذلك الزمان، كنت أخاف الاقتراب من الحمّامات، لأنّ رفيقتي همست بأذني، إنّ جب الفئران في الدّاخل، وقد سحبتني مرّة من يدي، لتريني فوهته الكبيرة المعتمة، الّتي تُصدر أصواتاً مخيفة، فصرت أرى نفسي في المنام، أهوي في العتمة السّحيقة، وأسنان الفئران الحادّة تقرض ملابسي ويديّ وساقيّ، وأصحو مذعورة لأجد يدي قد تيبست. احتجت لزمن طويل كي أستطيع التخلّص من آثار ذلك الحلم المرعب، حتّى بعد أن نقلونا من مدرستنا، دار "أبو البحرين". فهل أفتح عينيّ الآن لأجد يدي متيبسة من أثر الحلم؟!

أسنان الوقت تقرض روحي ببطء، وتمضغ ما تبقى من تماسكي، وترمي بـــي خارج اللعبة. لم أعد أستطيع متابعة لعبة التّخيّل تلك، لأنّ الـــبرد المـــصحوب بالرّطوبة قد تسلّل من مؤخرتي إلى أسفل ظهري، فتيـــبس هـــو الآخر، واضطررت إلى الوقوف. معطفي لم يعد صالحاً لتدفئتي ثانية، بعد أن طويته وجلست عليه. تصطك عظامي، وترتعش أطرافي، الدّم يتمدّد في أصابع قدميّ، تتضخّمان، وتثيران شهية الحك. حاولـــت تدفئتهما بفركهما قليلاً بأصابعي. لا جدوى من كلّ ما أقوم به، "البرد، البرد" أصرخ متوجعة، لا أسمع صدىً، تغلبني دموعي، ربّما لأوّل مـــرّة أسمع صوت الدّمع، يخرج من مسامات جلدي كلّها، ويملأ فضاء الزنـــزانة، يتضخّم، ليصبح عويلاً مرّاً، أهي أنا الّتي تبكي؟ وقفت على ساق واحدة، وحاولت تدفئة الأخرى برفعها قليلاً، لم أستطع أن أتوازن طويلاً، غلبني الضحك، كثيراً ما كانت أمّي تعاقبنا ونحن صغار، بوقوفـــنا على ساق واحدة، ووجهنا للجدار! أغمض عينيّ علّني أجلب مـــن الذّاكرة وجه أمّي، ضحكاتها، دفء بيتنا، والجدار الأبيض الذي حوّلـــتُه برسومي إلى خريطة، كنت أنال العقاب تلو العقاب بالوقوف علـــى ساق واحدة، وتأمله أحيانا لمدّة تطول، وتصل إلى ساعات، هذا مـــا كنت أتخيّله، في الواقع لم تكن أمّي تعاقبنا أكثر من دقائق، مخيلتي الـــصّغيرة، تخترع خلالها قصصاً وأحاديث، فأجدني أكلّم الجّدار، أكلّم أصـــدقاء يقـــبعون هناك. حاولت استحضارهم، فلم أفلح!. غامرت بالجلـــوس ثانـــية، أردت الـــتّغلب على نفسي، وقهر الألم باستحضار صـــورته، أغلقت عينيّ بقوة، أشرقت شمسه داخلي، استطعت اقتناص ابتـــسامة من شفتيه، اقترب حتّى التصق بـــي، لم أشعر بالدّفء! قبّلني بقـــوة، تخـــدرت شفتاي، و لم أشعر بالدّفء، كانت ضلوعي ترتجف، وصـــوت العـــويل لم يفارق جدران الزنـــزانة، اختلط بصوت صرير،

وصـــريف أســـنان، وطقطقة غريبة تصدر عن الجّدران. لم أستطع بعد ساعات من الإصرار على النّوم أن أميّز طبيعة الأصوات الّتي حولي، ولا الـــرّوائح النّتـــنة الّـــتي تخترقني، رأسي يكاد ينفجر، أحسّ بثقله يزيد عجـــزي، ويوتّرني، تحوّل الألم في قدميّ إلى وخز عنيف يشوبه الخدر، كانـــتا متورمـــتين بـــشكل غريب، لم أستوعب سببه، أعرف أنّهما تتحســـسان من البرد، ويتحوّل لونهما إلى أحمر قانٍ، لكن لم أرَهما بهذا المنظر المرعب من قبل. تحوّلت ببصري إلى الطّاقة العالية، كان النّهار قد طلع، وصار رأسي الثّقيل يسقط على صدري للحظات، فأرفعه فزعة، وأدعـــك عـــينيّ خشية أن أنام. فجأة صرّ الحديد الصّدئ، وفُتح باب الزنـــــزانة بـــبطء، وظهر وجه "العنصر" الرمادي من فتحة الباب. لم أتـــبين ملامحـــه جيداً، لكنّي عرفته، القامة الضّخمة الطّويلة ذاتها. قال بجفاف: "النقيب علي يطلبك". لم أستطع النّهوض، كلّ ما في جسدي قد تيبس تماماً، سحبني بقوة خارج الزنـــزانة. منظرٌ غريب لا يمكن أن أنـــساه، حذائـــي كان قابعاً هناك على الباب، يمدُّ لسانه هازئاً! كدت أسمعـــه يـــتكلّم، نظـــرت إلى قدميّ المتورمتين، وسرت لا مبالية أمام "العنصر". سميته هكذا لأنّي لم أعرف له اسماً، ولم أجد تسمية تليق به.

النّقـــيب علـــي كان منكباً على أوراق أمامه، لم يرفع رأسه، ولم يطلب مني الجلوس، بل حمل فنجان قهوته السّاخن، ورشف منه وكأنّه لا يـــراني، لا أعـــرف كم مرَّ من الزمن وأنا واقفة على تلك الحال، ثمّ سمعـــت صـــوته الخافت يصل إلى أذني من مكان بعيد، عميق جداً، لم أفهـــم مـــا قاله، كرر كلماته عدّة مرّات، فعرفت أنّه يسألني ثانية عن المثنى. لم أقل شيئاً، هويت فجأة على الكرسي أمامي، وأنا أقاوم دواراً عنـــيفاً. جـــاءني الحاجب بعد دقائق بكأس شاي ساخن، خشيت أن ألمـــسه، أشـــار إليّ النّقيب بأن أشرب. قرّبته من فمي، البخار الدّافئ،

أشعل فيّ رغبة غريبة في النّوم، قاومتها، شربت قليلاً من الشّاي، وأعدت الكأس إلى الطّاولة. قال النّقيب من دون مقدمات: "هل أنت عذراء؟". دوارٌ آخر حملني بعيداً، ورأيت رأسي يرتطم بالجدران، أقفال تلو أخرى، وغرف داخل غرف، وزنازين باردة، ووجهٌ رماديٌ بشارب كث، يقترب مني، فيلتصق بجسدي المطروح أرضاً، لم أعرف متى استعدت وعيي، لكنّ النّقيب علي لم يفارقني، كان فوق رأسي حين فتحت عيني، قال ببروده المعتاد: "إلى هذا الحدّ أخافك الأمر؟ كيف نمت مع المثنى ليلة في بيته، ولا تعرفين شيئاً؟". أدركتُ في لحظات ما يعنيه النّقيب، وما ينتظرني، لكنّي لم أكن أملك أيّة معلومات، من أيّ نوع. تساءلت بمرارة: "ماذا لو كنت أعرف، هل أبوح لهم بما يريدون؟".

السّؤال فتح طاقة من البياض في دماغي، وشعرت أنّ أطرافي تسترخي، وتتخدّر، وبرقت الإجابة، لا يمكن أن أبوح بأيّ شيء، إذن فليذهب هو وتهديداته إلى الجّحيم. ما الذي سيفعله؟ اللعبة الخبيثة الّتي يمارسها على أعصابي لن تهزني، انسحبت إلى قوقعتي، ورحت أتصوّر أنّي أركض بذراعين مفتوحين في حقول من شقائق النّعمان، انعكس نوره على السّهول، غمرني بدفئه، وتدحرجنا معاً فوق العشب.

أنا والنّقيب علي، كنّا نتسابق في لعبة غير متكافئة، كلٌّ طرف يحاول أن يشدّ الآخر بكلّ قوته، كنت أخشى أن يستخدم خطة أخرى، أعرف جيداً، أنّها ستجعلني أتكلّم حتّى بما لا أعرفه! لكنّه زفر أخيراً، وأومأ "للعنصر"، فسحبني هذه المرّة من دون أن يعترض النّقيب، تأبط ذراعي بقوة، بدأت تتراخى حين هبطنا آخر الأدراج، وسرنا في الممر الطّويل الّذي تصطف الزنازين على جانبيه، ثمّ أفلت يدي، وتركني أسير إلى زنزانتي بمفردي، استغربت تصرفه، وشغلت ذهني

زمناً في تفسير موقفه، بعد كلّ ذلك العنف الّذي قابلني به أمام النّقيب! بعـــد ساعات لم أعرف كم بالضبط، لكنّي قدّرت أنّ المساء قد أقبل، سمعـــت صـــوت حذائه يقرع بلاط الممر، ويرجع صداه، توقف قرب زنـــــزانة أخـــرى، أعتقد أنّها تبعد مترين عن زنـــزانتي، وسمعت صوت صـــرخات فظيعة، وشتائم، "يا أبو صبيح يا حقير، يا أخو الشـــ... يا ابن الـــقـــ... لو ما كانت أمّك نامت تحت البغل أبو... ما كنت أنت...".

و... كانت إحدى المعتقلات تشتم بألفاظ بذيئة، تشبه تلك الّتي يتـــبادلها الأولاد في الشّوارع، خدشت أذني، ولكنّي أرهفت السّمع، غلـــبني فـــضولي، من تكون هذه السّيدة؟ وما الذي يجعلها تتكلّم بهذه الطـــريقة؟ لم يتـــركني صـــوت الحذاء أكمل تساؤلاتي، فقد صرّ باب الزنـــزانة، ودُفع إلى داخلها صحناً، لم أتبين ماذا يحوي، وأغلق الباب بالطّريقة ذاتها. ترددت في الاقتراب منه، تركته على حاله، على الرّغم من تقلصات معدتي، الّتي وصَلتْها رائحة العدس السّاخن، صحن مليء حتّـــى الحافـــة، مـــن دون ملعقة، تصورت نفسي منكبة عليه كقطة، قاومت ساعات أخرى، لكنّي لم أعد أتحمّل ألم معدتي، ولم أفكّر سوى بإســـكاتها حـــين خطفت الصّحن، وكأنّ أحداً سيسرقه مني، لم أحتر كثيراً في طريقة تناوله، شربت من طرفه، ودلقت على ملابسي! حينها أحســـست أنّ عيني فريدة خانم توبخانني، ولم أجد حضن جدتي قريباً لأختبـــئ فـــيه! لم أجـــد ما أمسح به بلوزتي، أزلت ما علق بأصابعي ومـــسحتها بالجّدار، اكتشفت أنّ أصابعي صارت أقذر بعد مسحها، ومالت إلى السّواد. لكنّ ذلك لم يزعجني، الطّعم المالح للعدس، هو ما بدأ يقلقني، وأنا أشعر بحنجرتي تتشقق، والسّعال يخنقني، حلقي النّاشف مـــنعني من الصّراخ، فرحت أدقُّ باب الزنـــزانة بقوة، تضاءلت حتّى تلاشت، ولم يرد أحد عليّ!

معـــدتي بـــدأت بالتّقلص، ورحت أتلوّى على أرض الزنـــزانة الباردة، وأنا أصيح بصوتي الضّعيف علّ أحداً يغيثني، لكن... لا أحد.

لم أعـــد أستطيع السّيطرة على مثانتي، وشعرت بارتياح نسبـــي، والـــبول الدّافـــئ يغرق بنطالي، تحوّل الارتياح خلال دقائق إلى حكة فظيعة في ساقيّ، تلتها موجات جديدة من التقلّصات في معدتي، البرد، بـــرد، بـــرد... كلُّ ما فيّ يصطك، وأصواتٌ بعيدة تناديني، وحقول شقائق النّعمان، انقلبت إلى بحيرات بول وغائط، وأنا أغوص، وأختنق، وأصيح... ولا صدى! صوتي لا يصل أذنيّ، وتدريجياً لم أعد أسمع حتّى صوتَ أنفاسي.

ما أعرفه أنّي حين أفقت من الغيبوبة، رفض الطّبيب أن يردّ على أيّ ســـؤال خـــرج من حلقي المذبوح، لم يكن ملحاً ذاك الموضوع في العـــدس، صرت على ثقة من ذلك، لم أعرف المادّة الّتي خُلط بها الملح، ووضعت في العدس، لكنّه انتقامٌ رهيب ذاك الذي قام به النّقيب، انتقام من صلابتي وبرودي ولا مبالاتي، ربّما صار النّقيب على ثقة أنّي أعرف أشـــياء كثيرة، بعد صمتي اللامبالي ذاك، ومن يدري، ربّما ظنّ أنّي من ضمن العصابة الّتي يبحث عنها!

أغرب ما حدث أنّ "أبو صبيح" العنصر المكلف بمراقبتي، قد أدار وجهـــه صـــوب الجـــدار حين أمرني بتغيير ملابسي! والسّير أمامه إلى الزنـــزانة! كان ذلك بعد أن خرج الطّبيب من الغرفة الواسعة الفارغة إلاّ من سرير كنت مستلقية عليه.

كانـــت الملابس ضيقة وقصيرة وباهتة الألوان، أخافتني فكرة أن تكـــون لمعتقلة ماتت هنا في السّجن، وإلاّ من أين أتوا لي بهذه الملابس الّـــتي لا تناسبني! عرفت فيما بعد أنّ الطبيب قام بعمل غسيل لمعدتي، وأنّي تناولت مادّة سامة بقصد الانتحار! هذا ما قاله لي النّقيب في اليوم

الخـــامس لوجودي في هذا المكان، حين استدعاني وكلّه أملٌ أن أكون قد عدت لعقلي بعد تجربة الموت الّتي تعرّضت لها، لكنّه فوجئ بطلبـــي "أريـــد رؤية - أبو فراس" حينها طلب من "العنصر أبو صبيح" إعادتي إلى الزنـــزانة.

رفـــضت أن أتناول الطّعام، ورفضت حتّى الماء، وخارت قواي، واستلقيت في أرض الزنـــزانة بلا حراك، سمعت آخر الليل صوت حذاء "أبـــو صبيح" يقرع البلاط بقوة، وهو يركض في الممر، حين فتح باب الزنـــزانة، أبقيت عينيّ مغمضتين، لم أكن أستطيع فتحهما، ولم أجرؤ على النّظر إلى مصيرٍ قاتم حدست أنّه قادمٌ على يديه! لكنّ "أبو صبيح" دخـــل إلى الزنـــزانة، ورمى على الأرض بطانيتين، وسحب جسدي بـــرفق فوقهما، وغطّاني ببطانيتين، وأقسمُ أنّي خلال ذهولي، لمحت ظلّ دمـــع في عينيه، وهو يتمتم "الحمد لله أنّك بخير، نامي جيداً". ومضى مـــسرعاً، أحسست بباب الزنـــزانة يرتعش، وخفقات قلبـــي تزداد، فأسمعهـــا بـــأذني تـــضرب بقوة، حتّى احتلّت رأسي غماماتٌ بيضاء، وغططتُ في نوم عميق.

اســـتيقظت على يد "أبو صبيح" تهزّني برفق، وهو يقول: "أبو فـــراس، يطلبك". لا أعرف كيف قفزت من مكاني، وكأنّ الفرج جاء بمجرد نطق "أبو صبيح" اسم "أبو فراس". لأوّل مرّة أدرك ماذا يعـــني وجود هذا الرجل بالنّسبة لي! همس لي "أبو صبيح" ونحن في طـــريقنا: "أرجـــو ألاّ تذكري للمقدّم ما حصل معك، سأحملها أنا صـــدّقيني، سيقولون إنّي أردت قتلك، لن يصدّق "أبو فراس" أنّك أردتِ الانـــتحار". التفتُّ إليه بحدّة، وقلت بصوت محشرج: "ماذا؟ هل تعتقد أنّي انتحرت؟ ومن أين آتي بتلك المادّة؟ ألم تفتشوني قبل دخـــولي إلى الزنـــــزانة؟ لقد أخذتم كلّ شيء، حقيبتي، وساعتي،

وحتّـــى حذائي!". همس ثانية: "أرجوك لا ترفعي صوتك، النّقيب علي قال ذلك، وأنا لا أستطيع تكذيب من هم أعلى رتبةً مني، هل تفهمين؟".

بالتّأكيد أفهم، كلُّ شيء واضح. دخلت غرفة "أبو فراس". الذي نهـــض فوراً من وراء طاولته لاستقبالي، أمسك بيدي، وأجلسني على الكرسي قريباً من المكتب، وجلس مقابلي. قال بصوتٍ خافت:

أنـــا آســـف لما جرى، استدعيتُ لأمرٍ عاجل، لم أكن أتوقع أن يحـــصل ما حصل، في الواقع عناصري لا يعرفون شيئاً، وقد حدث كلّ ذلـــك بـــسبب خطأ، لكنّ الخطأ تطوّر إلى ما لا تحمد عقباه، ولم يعد أمامـــي كي أتلافى نتائجه، سوى أنْ أدبّر سفرك خارج البلاد، أظنّك تستوعبين الوضع، تحدّثت مع أبيك، وأفهمته ألاّ يأتي أحدٌ لوداعك في المطـــار، ستخرجين من هنا بأسرع وقت ممكن، هل تفهمين؟ سأتحمّل وحدي مسؤولية خروجك من هنا.

صمت قليلاً وهو يتأملني، حدّق بوجهي، وقال بذهول:

- يا إلهي ماذا جرى لك؟ هل عذبوك؟

هززت رأسي نفياً، لم أكن قادرة على الكلام، تحدّرت دمعة من عـــيني، مـــدَّ يده، ومسحها برفق، نهض من كرسيه، واتكأ على مسند مقعدي، أحاط كتفي بذراعيه، وقبّلني بسرعة، قال هامساً:

- ضننت على هذا الجمال أن يقبر في بيت فقير لمجرم، إلى الآن لا أعـــرف ما الذي ورّطك مع ابن أحمد علوان؟ لكن لم يعد الكلام ينفع الآن، لم يعـــد ينفع، كلانا سيخرج من المعركة صفر اليدين، سترحلين في الغـــد، صباحاً يكون جواز سفرك جاهزاً قبل أن يصدر قرارٌ بمنعك مـــن السّفر، سأرسلك إلى أقصى الشّمال، أرجو أن يبقى قلبك فارغاً ريثما أستطيع المجيء إليك.

هكذا إذن! أبو فراس يعتبرني معركته الّتي يجب ألا يخسرها، والمثنى غـــريمه! آه لـــو يعرف! أفزعني الخاطر، ماذا لو عرف؟ ماذا سيحصل لـــشمس وقتها؟ نفضت الخاطر من رأسي، وتأملت "أبو فراس" الذي فكّ حصاره عن جسدي، حين سمع قرعاً خفيفاً على الباب، دخل على إثره مجندٌ يحمل صينية طعام مغطاة بقماش، وضعها على الطّاولة، وأدّى التّحية، وخرج.

أخافتني الرّوائح الزكية للطعام، فانكمشت في المقعد، ورفضت أن أتـــناول أيّ شيء، لم يفهم أبو فراس موقفي، وأصرّ أن يطعمني بيده، لقيمات، أصابتني بالغثيان، فنهضت مسرعة أطلب الحمّام. حين عدت، كان قد أحضر لي كأس بابونج، أصرّ أن أشربه، وأتدثر بغطاء سميك، قال: "لاشكّ أنّه البرد، برد نيسان لا يُحتمل هذا العام".

الـــبرد، هو البرد الذي نخر عظامي، وجمّد عواطفي، وأذلّني، كم كـــنت أشتهيه حين يحضر شمس، لأنّه يجعلني اندسُّ في حضنه، وألتمس الـــدّفء مـــن صـــدره، كـــم أكرهه في هذه اللحظة الّتي أضطر فيها للـــسكوت ويـــدا أبو فراس تمسح شعري، وتكفكف دمعي، وتحيط بكتفي، وتدفع اللقمة إلى حلقي!

لماذا عليّ أن أصمت؟ وهل أملك غير هذا؟ حتّى الصّراخ، حتّى الكـــلام، أبـــو فراس يثرثر مجدداً، وأنا لا أسمع سوى نبضات قلبـــي، يحـــاول أن يـــستميلني باعتذار جديد عما حصل، وتوضيح عن العمل الّـــذي قـــام به في الأيام الماضية، ثمّ نبّهني ألاّ أبوح لأحدٍ بما قاله "هي أسرار دولة" !

هـــل يعقـــل أن يبوح "أبو فراس" لي بأسرار الدولة؟ أم هي مجرد مـــناورة ليـــستحوذ عليّ بإشراكي في أسراره؟ خطته فاشلة، أرى من موقعي البعيد، وأنا أراقب ما يجري في الغرفة، أنّه لا يجيد اللعب، ربّما

يفلح مع المعتقلين، لكن معي؟ وأنا الطّفلة الّتي وضعها يوماً في حضنه، وقـبّلها بطـريقة لا تبرأ من الشّهوة. أنا الصّبية الّتي تحسس يدها وهو يصافحها، وضغطها بقوة لا تتناسب مع مكانته كصديق لأبيها! أنا الّتي اشـتهى عنقها ورضابها بصراحة منذ سنوات وأمام زوجته من خلال تلمـيح وتلـويح ببيت شعر! كيف يفوتني أنّ كلّ هذا مخطط له منذ البداية ليبدو أبو فراس الحبيب والمنقذ والبطل؟ هل أصدّق "أبو صبيح"، وأرمي كلّ شيء على ظهر النّقيب علي؟

ذهني الصافي في هذه اللحظة يرفض الأمر برمته، ويفهم أنّ الذئب لا يمكن أن يتحوّل إلى حَمَلْ!

(2)

وصلت مطار **آرلاندة** في الثّامنة مساءً، ذلك الخليط العجيب من البشر عمّق إحساسي بالكآبة، وأربكني عدم معرفتي باللغة السّويدية، حتّى لغتي الإنكليزية، كانت ركيكة، ولا تصلح للتّفاهم مع الموظفين في المطار. دوّختني الإجراءات الكثيرة الّتي لم أفهم منها شيئاً، حتّى أشار لي أحد الموظفين مُرحِّباً بي. خرجت من قاعة المطار، العتمة الشفافة تبدو كصفحة فجر فضي، مع أنّ السّاعة لم تتجاوز التاسعة والنّصف بعد! الأضواء الكثيفة تعكس شفق مساءٍ لم يرحل بعد، وقد اكتظت مواقف السّيارات الكثيرة بالحركة. وقفتُ مدهوشة وحائرة، ها أنا قد وصلت استكهولم كما خطط لي "أبو فراس" ماذا سأفعل الآن؟ قبل أن أدخل الطائرة، رميت تلك الورقة الصّغيرة الّتي سجّل فيها رقم هاتف أحد معارفه، لا أريد شيئاً من رائحة ذلك الماضي الّذي رميته وراء ظهري، لا أنكر أنّي شعرت ببعض الرّاحة، لارتباكي وحيرتي، ووجودي في مكان لا يعرفني فيه إنسان. صحوت على وجودي في جزيرة خالية على الرغم من انتماء الوجوه إلى قارات العالم أجمع. نبّهني الهواء القارس إلى وجوب إيجاد مأوى لي في هذه الليلة، ريثما أدبّر أموري.

لم أجد مكاناً يصلح للنّوم أفضل من قطار الأنفاق، أوقفت سيارة أجرة، ولم أجد صعوبة في التّفاهم مع السّائق. على أوّل مقعد فارغ في المحطة رميت جسدي، ومددت ساقيّ المتعبتين، واستندت على حقيبتي،

لمست أطراف المعطف حول جسدي، وخبّأت رأسي في ياقته العالية، لحظات... وغفوت. كانت السّاعة الثّالثة صباحاً حين فتحت عينيّ، وتفقدت المكان، عرفت أنّ قطار الليل قد فاتني، لكنّي لم آسف لذلك، دفء المحطة، والوجوه العابرة الغريبة، أشعراني بالارتياح. ها أنا حرّة ووحيدة وسط عالم مكتظ بالبشر، أحد هؤلاء البشر كان قريباً على المقعد نفسه، ابتسم لي، وقال: "لاشكّ أنّ استكهولم مدينة مثيرة، تجعل الغرباء يدمنون استقلالهم وحريتهم المنفتحة على أفق بحجم المحيط. ألا تعتقدين ذلك يا نسمة؟". صعقتني نبرة الصّوت، خفوتها، ولكنتها المميزة، يا إلهي! كيف عرف اسمي...

تابع مستمتعاً بدهشتي: "أنا على يقين أنّك تتساءلين كيف عرفت هويتك؟ وربّما تتساءلين من أين خرجت لك؟". ضحك ضحكة مجلجلة، وهمس: "بالتّأكيد لست علاء الدّين، ولا أملك مصباحه، ولا حتّى مصباح ديوجين. لكنّي أملك عينين". ضحك ثانية وهو يشير إلى حقيبتي، وانتقلت عدوى الضحك إليّ، كانت حقيبتي تحمل ختم مطار دمشق، وعليها اسمي! هكذا بكلّ بساطة، يمكن لأيّ عربي أن يعرف من أكون! دمعت عيناي، إذن هذه هي الجزيرة الخالية من البشر الّتي حلمت أنّي سأبدأ حياتي فيها من الصّفر!. أوّل شخص يقابلني في الغربة عربي! انقبض قلبي للمصادفة، أيعقل أنْ يكون؟... أبعدت الخاطر المزعج من مخيلتي، وحدّقت بوجهه، فوجئت أنّ في عينيه شيئاً جذّاباً، سحبني كمغنطيس، فتشبثت بحقيبتي! لم تكن عيناه فقط، خيّل لي تحت الأضواء الخافتة للمحطة، أنّ في وجهه شيئاً يشدّني إلى حقول عباد شمس بعيدة، صحيح أنّ اللون بدا لي مختلفاً، والربيع بعيداً، لكنّ الرائحة انغمست في أعصابي، مدّ يده بسيجارة، أخذتها بيد مرتعشة، وحين استقرّت بين شفتي، لمحت تلك النّظرة الشّهوانية تمطرني بوابل من الرعشة، أيعقل أن...

لم أتردد، قبلت دعوته على فنجان قهوة، حمل حقيبتي، ومدّ ذراعه، حيـــنها فقط أحسست بأنّي دخلت فخ مغامرة قد لا أحسن الخروج منه وقتما أشاء، مع هذا قبلت الدّعوة بكلّ بساطة، وتأبطت ذراعه.

ركبنا سيارة أجرة، السّماء كانت قريبة، وبلا نجوم! وأنفي يتلقّى لسعات البرد القاسية بمزيد من الحساسية. أحاط كتفي بذراعه والسّيارة تقطع مسافاتها من دون أن تعبأ بوجيب قلبـــي. كان يشرح لي "هذه حديقـــة... هذا شارع الملكة، هنا متحف الكاتب سترنبيرغ، فيه آثاره ولـــوحاته. أقـــيم المتحف عام. 1960، وأضاف مازحاً، سترينبرغ فيه عـــرق عربـــي فقد تزوج ثلاث مرّات! لم أضحك، كنت أشمُّ بعمق رائحة الغابات، رائحة ممزوجة بروحي، قلت هامسة: "ما أروع المكان، كأنّـــي في جزيرة فعلاً، هل الطّريق إلى منـــزلك يمرُّ بالغابات، أم هو خـــارج المدينـــة؟ قال ضاحكاً وهو يضغط كتفي: "هناك الكثير من الحدائـــق العامة، وستوكهولم معروفة بغاباتها ضمن كلّ منطقة وحي، هـــناك الكثير من البحيرات الّتي تعانق الغابات، والّتي هي بمثابة حدائق للمتنـــــزهين، في المناطق الّتي يوجد فيها أجانب من الشّرق الأوسط، كأحياء: شارلهولم، فيتيا...

قلـــت: "كفى، لا أملك ذاكرة تعينني على الحفظ السّريع، ثمّ لا يهمني في هذه السّاعة أن أعرف الأسماء، أمامي وقتٌ طويل لأكتشف المدينة، وأتعرّف على أحيائها، وأحفظ أسماءها". ضحك بصوتٍ جعل السّائق يلتفت إلينا خطفاً، ثمّ يراقبنا من خلال المرآة.

قال لي هامساً: "هذا السّائق عربـــي، لا يوجد أجنبـــي يهتم بما يفعل راكبين مجنونين قرب الفجر...

قلت مازحة: "وكيف عرفت أنّي مجنونة؟". قال ضاحكاً: "يكفي أنّك قبلت دعوة مجنون مثلي، أم ماذا؟". هززت رأسي موافقة، ورحت

أراقب الطّريق من النّافذة بصمت، أكثر ما أثار انتباهي أنّ السّيارة لم ترتفع، وترتطم بأيّ مطب، و لم تنحرف عن أشياء تعيقها بشكل مفاجئ، بقي رأسي متكئاً على المسند بهدوء، السّائق يتوقف عند إشارات المرور بهدوء، لم أسمع صوت العجلات على الإسفلت، هدوءٌ يخيّم على الليل، والسّماء قريبة بلا نجوم!

سمعته يقول "نحن الآن في منطقة رينكبي، هذا شارع ميلان بيبلان، لقد وصلنا". اختلست النظر إلى وجهه وأنا أنزل من السيارة، يبدو لي أنه تجاوز الثلاثين، ملامحه فيها حدة تفتقدها كلماته، عيناه بنيتان كلون تربة خصبة، واللون الأسمر يعطي الليل ذلك الطعم الذي تمنحه آلهة الشرق لبلد غارق في ثلجه! لاحظت حين تأبط ذراعي أنّه يناهزني في الطول قليلاً، على الرغم من أنّه يبدو لي الآن وهو أمامي أطول مني بكثير! أفسح لي الطريق لأصعد أمامه الدّرج، احمرّ وجهي وأنا أقول: "اصعد أنت". ضحك بصوت خافت وهو يتأملني بعينين تطفحان ألفة، وغمز بعينه قائلاً "تفضلي سيدتي، لن تمسّ عيناي شيئاً من مفاتنك". صعدنا الدّرج إلى شقة مؤلفة من غرفتين وصالة، وضع حقيبتي في الدّاخل، ودعاني لأستريح، ودخل المطبخ.

أنهيت الفنجان الثاني، وأنا أتأمل المكان، اللوحات على الجدران، الأريكة المريحة، المكتب، وفوضى الكتب! قلت بفضول: "لمن اللوحات هذه؟". قال مبتسماً: "أعجبتك؟". قلت: "ليس هذا سبب سؤالي". قال: "حسناً، لا يهم إذاً من رسمها". رفعتُ كتفيَّ بلامبالاة، ونهضتُ أتأملها عن قرب. الألوان أقرب إلى الفرح، سهول وسنابل صفراء، وفراشات ملونة، و...

قلت أستفزه: "لا شكّ أنّ من رسمها فلاح". عقد حاجبيه متصنعاً الضيق، وقال: "وكيف عرفت ذلك؟ بنباهتك؟". قلت ساخرة: "من

نباهتكَ أنت، واضحٌ أنّك صاحب هذه اللوحات". قال باهتمام: "بجد؟ كيف عرفت؟". قلت بلا اهتمام: "نظرة واحدة إلى غرفتك هذه، يدرك المـــرء أنّ فيها خصوصية شاملة، كلّ شيء ينتمي إلى شخص واحد هو أنت، ولا تسألني كيف عرفت، ربّما هو حدس، لا يخضع الأمر لمنطق معين". قال وهو يجلس على طرف الأريكة: "هل تتعاملين مع حدسك دائماً؟". قلت: "ليس دائماً، في الغالب أؤمن بما يقوله القلب، وأحياناً أميل لتكذيبه وتصديق عقلي، حسب الظرف، والمعطيات العامة".

قـــال: "والآن، أيّ بوصـــلة تتبعين؟". قلت: "لم يحدث ما يحتاج لأســـتفتي قلبـــي ولا عقلي". قال: "لنقل إنّه سيحدث، مثلاً، ستنامين اللـــيلة هـــنا، ألم تفكري بالشّخص الّذي يشاركك الشّقة؟ قد أكون ذئباً". ضحكت، وقلت: "هيئتك تقول، إنّك لست كذلك". شاركني الضحك، وقال: "أبدو ذئباً متحضراً مثلاً؟". قلت بمنتهى البرود: "تبدو إنساناً". أهي صدمة الجواب الّتي جعلته يبتعد إلى أقصى الصّالة؟ ليجلس علـــى كرســـي هزاز، ويغمض عينيه، ويتأرجح بهدوء، ثمّ يفتح عينيه ليـــتأمل مـــن خلال زجاج النّافذة خيوط النّهار القادم. كانت ملامحه غارقة في سكون مريب، لم أستطع من خلاله معرفة الخطوة القادمة الّتي سيقوم بها، وعلى الرغم من مظهري الحيادي، ارتعشت مما قد يحدث، هـــل يعقـــل أن أقبل دعوة شخص لا أعرفه إلى بيته في أوّل ليلة لي في الغربة؟ أبهذه السّرعة أنغمس بأخلاقيات لا تمت لي بصلة؟ أهو الصّفر؟ الحياة الجديدة المختلفة؟ قلت له ببساطة: "أريد أن أنام، أنا متعبة، هل ستستـــضيفني؟ أم سترافقني إلى فندق؟". ابتسم: "معك نقود؟" قلت: "بـــصراحة؟ لا، بـــصراحة أكبر، معي بضعة دولارات، وبضعة ليرات ســـورية، تـــساوي مئتي كرونة على ما أعتقد. ماذا أقول؟ في الحقيقة، هناك شخص كان من المفروض أن أتّصل به حين وصولي، ليأخذني من

المطـــار، وهـــو سيقوم بتأمين السّكن لي، وكلّ ما يلزمني ريثما أجد عمـــلاً". قـــال مستنكراً: "عمل؟ وما حاجتك للعمل؟ ثمّ من هو ذاك الـــشّخص؟ قـــد أعرفه، أعرف معظم الجالية السّورية هنا". قلت: "لا أعـــرف، ربّمـــا لا يكون من سورية، ولا أعرف اسمه". قال مستغرباً: "كيف ذلك، معقول! تأتين إلى بلد غريب، ولا تعرفين لغة، ولا تعرفين أحداً، وليس معك نقود، لو لم ألتقيك ماذا كنت ستفعلين؟". "بالتأكيد كنت سأنام في فندق ريثما أجد شخصاً يشبهك" قلت ذلك بمرارة، ثمّ شـــرحت له كلّ شي، فهم السّبب الّذي جعلني أتجاهل اسم الشخص الذي أرسلت إليه. حكيت له عن "أبو فراس"وأبـــي وأمّي، وكلّ ذلك الماضـــي الذي رميته وراء ظهري، لكنّي لم أبح بشيء عن شمس، أبقيته داخـــل القلـــب، ممزوجاً بنبضه، أتنفسه ببطء، أستحم بنوره، فأحسُّ بالارتـــياح. لم أشـــأ أن أخـــبره عن الأمر الوحيد الحقيقي في حياتي، إحساسي بحاجتي إليه في هذه اللحظة، كان أكبر من أيّ وقت مضى، أهو البرد؟

دخـــل غـــرفة النّوم، أحضر بطانية، وأشار إليّ لأنام في الدّاخل، وبقي صامتاً.

صـــحوت بعـــد الظّهر بساعتين، شعرت أنّ جسدي كلّه محطمٌ تماماً، سحبتني روائحُ زكية - قرصتْ معدتي - إلى الصّالة، كان هناك، يرتّب المائدة، هيئته أثارت ضحكي، ابتسم، وقبّلني وهو يقول: "صباح الخير، حضّرت الطعام، ما رأيك؟". طبع على خدي قبلة سريعة، وهو يـــسحب لي الكرسي لأجلس، قلت: "يبدو أنّك تأقلمت مع عادات البلد". قال: "من عاشر القوم أربعين يوماً". ضحكت: "طبعاً، سيصبح مـــنهم وفيهم، خاصة إن كان الأمر يتعلّق بتقبيل امرأة جميلة، على حدّ تعـــبيرك". قـــال مغتاظاً: "ليتها كانت جميلة فقط، المشكلة أنّها مثيرة،

وتريدني أن أكون ناسكاً، فلا أشتهي كلّ هذه الفتنة". قلت: "يمكنك أن تشتهي، لكن من بعيد". وضع صحون الطّعام على المائدة، ساعدته، وأنـــا أشعر بنظراته تلسع جسدي، وتعريه، قال بلا مواربة: "أتمنى أن تـــصبحي من القوم، حتّى قبل أن تعاشريهم، من الصّعب أن تعيشي في مجتمع بهذا الانفتاح، وتحافظي على عقليتك الشّرقية تلك". قلت بلهجة غير قاطعة: "حالياً على الأقل، لا أفكّر أن أصبح منهم، لكنّي سأستمتع بتـــناول البامـــية والأرز، وأتجوّل في المدينة، ثمّ أفكّر بطريقة جدية فيما ســـأفعله بعـــد ذلك، أودُّ الآن، أن تحدّثني عن نفسك، ألم تلاحظ أنّنا تعارفنا من طرف واحد فقط؟". قال: "ليس لديّ الكثير لأقوله، كنت الـــبارحة أودّ السّفر لرؤية أحد أصدقائي، فوصلت متأخراً عن القطار، وفاجـــأني القدر بأحلى مصادفة، وجدت بنتاً وحيدة، تحتاج لمساعدتي، فعدلت عن السّفر، وحمدت الرب على نعمه!. لم تقنعني كلماته القليلة، تناولـــنا الـــشاي بهدوء، ونحن صامتين، وشعرت بعدها بخدر لذيذ في جـــسدي، جعلني أتكاسل، وأستلقي على الأريكة، وأغمض عيني. لا أدري إن كنت غفوت، لكن لا شكّ أنّي غرقت في صمتي وأفكاري، فلـــم أنتـــبه إليه ينسحب من الصالة، ويعود ومعه فنجان قهوة، وضعه قربـــــي، وقـــال: "يبدو أنّك لا تريدين الخروج من البيت، اشربـــي القهـــوة". نهـــضت نـــشطة، ونفيت عدم رغبتي في الخروج، غسلت وجهـــي، وغيّـــرت ملابسي، وأعطيته ذراعي. البرد في الخارج جعل جسدي ينكمش مع أول نسمة لسعت وجهي، كنت أسمع حديثه عن الأمـــاكن الّتي نمرُّ بها وأنا صامتة، عيناي تستكشفان الأمكنة بدهشة. أحسست ونحن ندخل المدينة القديمة gamla stan بالإلفة، روح الشرق كانـــت حاضـــرة بقوة، إشبيلية وغرناطة، وسحبتني الأحلام من يدي بعيداً، وعيناي تحتفظان بتفاصيل الجدران وأشكال الأبنية والأزقة، حتّى

بـــلاط الـــزقاق الناعم كان يعزف أنغامه تحت كعب حذائي بجرس لا يمكن لإذني أن تخطئ حميميته. دخلنا مقهى old street café. وكأنّني خـــارج الـــزمان، المقهى قطعة من العصور الوسطى، بديكوره وأثاثه، اخـــتار لي المكـــان، وسألني ماذا أشرب "قهوة بالحليب أم نسكافيه أم قهـــوة سويدية؟". ترددت، فأنا لا أعرف القهوة السويدية، لكنّه طلبها لي لأذوقهـــا مـــع قطعة "كاتو" حين أحضرها النادل، أنعشتني الأبخرة الدافـــئة، لكنّـــي لم أستسغ لونها، أنا أحبّ القهوة ثقيلة، وهذه خفيفة شـــفافة! ضـــحك وهـــو يـــتأملني كيف أشربها بحذر، قلت: "تشبه الاكسبريس، لكن قهوتنا أطيب". تنهد بحرقة، وقال: "كلّ شيء عندنا أجمل.

سألته ثانية عن سبب هجرته، قال: "قد لا يختلف سبب وجودي هـــنا عن سبب وجودك، فقد اخترت أن أهاجر بحثاً عن حياة آمنة، لا أخفـــيك أنّـــي اخترت السّويد لأنّها توفر للمهاجر كلّ أسباب الحياة الكـــريمة حتّـــى من دون تعب، هنا تستطيعين الحصول على راتب من الدّولـــة طالمـــا أنّك لا تعملين، لا فقر، لا قهر، باختصار الجوّ مناسب جداً لعاشق للحياة والكتابة، يريد أن يفتح ذراعيه ليحضن الكون".

قلـــت بـــسخرية مبطنة: "لعلّ الكون الذي تعنيه تختصره امرأة". ضحك مقهقهاً، وقال: "وحياة ربـــي لم أقابل من هي بذكائك" وأخذ يدي بين كفيه، ساعات ونحن نحكي عنا خارج الزمن.

ســـحبت يدي من كفيه، وقلت: "دعنا نذهب". طوال الطريق وهـــو يحـــدثني عن شوارع بغداد، وليل دجلة، وأمّه، والزمن الأسود، ووجـــدنا أنفسنا ننحرف بالحديث صوب الانقلابات في بلدينا، ونشأة حزب البعث، حتّى انتبهنا إلى روعة الصّمت بعد الثرثرة، ونحن ندخل الـــشقّة الهادئـــة، جلسنا في العتمة على ضوء شمعة، كلٌ منا انكفئ إلى

داخله باحثاً عن زمن لن يعود! أحسست بثقل الصمت، فنظرت إليه، تلاقت نظراتنا بتواطؤ غريب على إرباكنا. نهضت إلى النّافذة، وقفت طويلاً، والصّمت يغويني بدخول صمت الغواية، أجدني على باب وجده، ألمس خشبه بأناملي، فيشتعل الحريق في أرجاء المكان. كيف لي أن أجتاز نيران العشق في جوانحي، وأطفئ اللهيب بالكلام؟. اقترب مني، رفع بأصابعه وجهي، فتلاقت نظراتنا.شفتاي تتّقدان بجمر أنامله، همس قريباً من أذني: "مبللٌ بكِ مني". ارتعشت أطرافي، وخرست الكلمات على لساني، ابتعدت مسرعة، و لم أجب، جلس قربي على الأريكة، وأشعل سيجارة، وأسند رأسه إلى الوسادة.

تحايلت على ما بي بتوجيه دفة الحديث حول إقامتي وسكني، فأخبرني أن ذلك صعب الآن، وأنّي سأبقى في ضيافته. وماذا بعد؟ كنت أؤجل الإجابة على هذا السّؤال، لأنّي لا أريد مواجهة نفسي بتكهنات، قد تربكني، وتنغص عليّ ساعات الهدوء الّتي أعيشها. ماذا سأعمل حقّاً؟ ليس من المعقول أن أقضي وقتي في شقته. أخبرني أنّ عليّ في البداية أن أتعلّم اللغة السّويدية، وأن أفكّر بالخيار الوحيد أمامي للحصول على الإقامة إن اتّخذت قراري بالبقاء هنا، والخيار ذاك هو الزواج، إذ ليس من الممكن أن أطلب اللجوء، وقد خرجت من بلدي بشكل نظامي وبجواز سفر صحيح! استهجنت الحل المطروح، لكنّه أخبرني بمنتهى الجدية أنّه لا خيار أمامي، لكن بإمكاني أن أتخلّص من الزوج بعد حصولي على الإقامة!

وأضاف مازحاً: "أستطيع المجازفة لأجل خاطرك".

لم آخذ الموضوع على محمل المزاح، بل فكّرت بجدية أنّه شخص مناسب، ما دمت لا أملك خياراً آخر. حدّقت فيه ملياً، لا أنكر أنّ شيئاً جذّاباً في ابتسامته ساعدني على الاقتناع بالفكرة، وجدت نفسي

أقول: "ما رأيك أن تعرّفني على المدينة؟ ربّما أقتنع بفكرتك إن رشوتني بسهرة جميلة".

نظر إليّ بهدوء، اقترب، أخذ يدي، وقبّلني. هذه المرّة لم تكن قبلة ترحيب، بدا مفتوناً بطيف ساحر، لا أظنّه جسدي، بل امرأة تسكن مقلتيه، بوضوح رأيت ذلك الوله، الّذي لا يمكن أن يخلق هكذا فجأةً، ولا يمكن أن تولّده علاقة عابرة. همس بحرارة قرب أذني: "أنت فاتنة". قلت: "بل هي". ابتعد عني، وهو يرتجف، حدّق فيّ طويلاً، قبل أن يجلس على كرسيه الهزاز، ويفك أزرار قميصه، ويقول بضيق: "لا يمكن أن تكوني سوى جنية، كيف عرفتِ؟". قلت: "تصورت أنّ هجرتك طلباً للحريّة ولأفقٍ أزرق لا حدود له وراءه امرأة فاتنة، أحلامها أكبر من الارتباط برسام فوضوي، لا يكفيه راتبه من التّدريس حتّى منتصف الشّهر، المسألة لا تحتاج إلى ذكاء، ولا إلى عرّافة، المنطق يقول ذلك. حين رأيتُ أنّ كلماتي زادت توتره، وهو يشعل سيجارة، ويتناول كأساً من البار الصّغير في الصّالة، ويجلس صامتاً. اقتربت منه معتذرة، حاولت أن أجد مخرجاً للموقف الحرج الذي وجدت فيه نفسي. لمست يده برفق، وقبّلت جبينه، أشعلت سيجارة، وتناولت بيد مرتعشة من يده الكأس، وضعتها على الطّاولة، ولم أستطع أن أقول كلمة. فجأة قال بضيق: "قد يكون الأمر كما تقولين، لكنّه مختلف قليلاً.

لا أنكر أنّي شعرت بوخزة في صدري، لكنّي بقيت صامتة، أيقنت أنّي لا أستطيع الارتباط به، وأنّ عليّ البحث عن مخرج آخر. نهض من مكانه، سكب كأس بيرة، وناولني إياه، ترددت في قبوله، وهاهو الآن يضع اسطوانة، ويطلبني للرقص. اعتذرت بأنّي لا أعرف، قال بثقة: "لا يوجد فتاة لا تعرف الرقص، أعلّمك إن كنتِ حقّاً لا تعرفين".

أخذني بين ذراعيه، تعثرت خطواتي في البداية، ثمّ شدّني الحلم على أجنحته، أعادتني أغنية خوليو لتلك الأيام، وأشعلت في القلب أحزانه. لم أعـد أشعر إلاّ بدغدغة خفيفة في القلب، وخدر في أطرافي، تسرّب إلى رأسي، فاتكأت على صدره، الشّموع وحدها كانت ترسل ضوءها الخافت منذرةً بغياب الشّمس!

حـين استلقيت في السّرير وأنا أشعر بالصّداع والتّعب، قال وهو يجلس قربـي: "بودي لو نمت معك، لكنّي لا أريدك أن تشعري بأنّي أسـتغل الوضع، تصبحين على خير". غادر الغرفة، وأغلق الباب وراءه بهدوء!

في الـصّباح لم أجـده في المنـزل، ولم أنتظر حتّى أفكّر بالأمر، ارتـديت ملابـسي، وخرجت إلى الشّارع، أردت أن أعانق حريتي، بالمـشي وحيدة في الشّوارع الماطرة، تحولت ساعات، في حديقة الحي، جلـست أراقـب البحيرة، أراقب العجائز، والنّساء الوحيدات مثلي، وبعض المتسكعين.

اخترت مكاناً قريباً من الماء، وجلست. أردت أن أسأل الشّمس عـن مـوعد حضورها، لكن السّماء بدت كئيبة بغيومها، ودموعها الهاطلـة ببطء، تتناثر فوق رؤوس العابرين. دقائق وخَلَتْ الحديقة من الـرّواد، وبقيت وحدي قرب الماء. من الواضح أنّ النّاس هنا يتمتعون بعقولهم تمتعهم بحريّتهم، وأنّي الوحيدة خارج السّرب، أضعت بوصلتي، وصفاء ذهني، واحترت كيف أتعامل مع واقعي. ماذا بعد المطر؟ نظرت إليّ سيدة عجوز باستغراب، وحثت خطاها إلى الشّارع! قبل أن أخطو خـارج سور الحديقة، لمحته! توقفتُ قليلاً، حدَّقتُ فيه، وقد استنفرت ذاكـرتي كلّ قواها، ليس وهماً، إنّه هو، شوقي، أستاذي، على كرسي متحـرّك، يدفعـه بفـتور، وقد تبلّلت ملابسه بالمطر. سرت صوبه،

واعترضـــت طريقه، حاولتُ جاهدةً أن أضبطَ انفعالي، لكنّ الكلمات خرجت متعثرةً باضطرابـــي "لا شكَّ أنّك لا تذكرني، أنا نسمة، كنت تلميذتك في السّنة الثانية". نظر إليّ فزعاً، أربكتني نظراته، لم أستوعب في الـــبداية أن يكـــون للمفاجأة هذا الأثر السّيئ عليه. أدرت ظهري وتابعـــت سيري، سمعته يقول: "توقفي، إلى أين؟ ادفعي الكرسي". لم أعتـــرض، وجدت نفسي أنصاع لطلبه، دلّني على الطريق. كان البيت يقـــع في بدايـــة شارع **"ميلان بيبلان"**. حين أوصلته إلى الباب، قال "بإمكانـــك قـــبول دعـــوتي إلى فنجان قهوة". لم أعترض، أدخلته إلى الشّقة، صنعتها بنفسي، وجلست أرتشفها بصمت، أجبت على أسئلته باقتضاب، وتجنبت أن أذكر سبب مجيئي إلى السّويد، ومكان إقامتي، لا أعـــرف السّبب الذي جعلني أكذب عليه، وأدّعي أنّها زيارة للسّياحة، عـــرفت أنّه لم يصدّقني، فقد اخترقتني نظرته الرّصاصية بعنف، حاول مزجه بابتسامة مفتعلة، وقال "لا شكّ أنّ أباك ينعم بجولة حول العالم". قلـــت بانفعال: "أنا هنا وحدي، في الواقع لست في زيارة سياحية، بل اضـــطررت لمغادرة البلاد". قال بقسوة، لم يستطع إخفاءها: "هل أفهم من كلامك أنّك مطاردة أيضاً؟". وتابع بسخرية "أو لعلّك مطلوبة من قِـــبَلِ أبيك". فاجأتني دموعي، ونهضت أريد المغادرة، فاعترض طريقي قـــائلاً بـــصوت خافت: "أرجو المعذرة، ما رأيته منهم، يجعلني لا أثق بأحـــدٍ من طرفهم". نـــزل كلامه على رأسي كصاعقة، فهمت فجأة كلّ شيء. في البداية خيّل إليّ أنّه مجرد حادث مرور، أو أيَّ شيء آخر، لم يخطر ببالي أن يكون هذا الذي أراه من فعلهم "أبـــي، وأبو فراس!".

مسحت دموعي، وتمالكت على أقرب كرسي، وأنا أروي له ما حدث معي، قال محاولاً أن يُكسِب صوته الهدوء:

- ما الذي يجعلني أصدّقك؟

لم أحتمل المزيد، فتحت الباب، وركضت تحت المطر، حتّى تبللت عظامي، واكتشفت فجأة أنّي أضعت الطّريق! احتجت إلى ساعة أخرى قبل أن أستدل على طريق العودة. وحين نقرت الباب بإصبعي، انفتح مباشرة، ووجدته أمامي يسأل بلهفة: "أين ذهبت؟ خشيت عليك، هل حدث لكِ مكروه؟ لماذا تبكين؟". اعتذرت منه، وركضت إلى غرفة النّوم، أقفلت الباب، وغيّرت ملابسي، واندسست في الفراش.

مرّت ساعات طويلة، وأنا أحدّق في السّقف، وأتساءل عن طبيعة الجريمة الّتي ارتكبت بحقّ هذا الرّجل، أذكر أوّل مرّة التقيت به في القطار الذّاهب إلى حلب، تصادف جلوسنا على مقعدين متقابلين، كنت قد رأيته مرّات قليلة في ردهات الكلية، ولم يلفت انتباهي، وسمعت أنّه سيدرّسنا مادّة الأدب العباسي. انكمشت في مقعدي، وقضيت الوقت كلّه وأنا أراقب الطّريق، خشية أن تلتقي نظراتنا، أو أضطر للحديث معه، وحين رآني في المقعد الأوّل أمامه في قاعة سامي الدّهان، ابتسم بود، ولم تفارقه الابتسامة طيلة ساعة! كنت أحسّها موجهة إليّ، صحيح أنّه لم يخاطبني بشكل مباشر أثناء المحاضرة، إلاّ أنّي فهمت تلميحاته، وهو يقرأ القصائد الغزلية، ويسهب في الشّرح، حتّى أنّ شمس لكزني بمرفقه بقوة، عندما التفت إلى السّبورة ليكتب شيئاً ما.

لماذا يواجهني الآن بهذه القسوة؟

تقلّبت في فراشي، ألتمس النّوم بلا جدوى، لم أشأ أن أخرج من الغرفة على الرغم من إلحاح حسين عليّ لأخرج، وأتناول الغداء. لا أستطيع أن أجزم إن كان ذلك حلم يقظة، أم اقتنصني النّوم للحظات، رأيت نفسي خلاله داخل غرفة معتمة، بلا شبابيك، سقفها واطئ، تنبعث روائح رطوبة نتنة من جدرانها، فُتِحَتْ أقفال

أبـــوابها الحديدية الصّدئة، ودخل إليها بعدّة هيئات، من كلّ باب، تقـــدّم مـــني وبيده خنجر، رأيته بوضوح، صرخت فزعة "أبـــي". سمعت ضحكة "أبو فراس" تجلجل في المكان، كان يحث أبـــي على الـــتقدّم واغتصابـــي! صرخت بصوتٍ أحرس! ونهضت من الفراش فزعة، يغسلني العرق.

فـــتحتُ الباب وأنا أرتجف، تلقفني حسين بين ذراعيه، ضمَّني إلى صـــدره بقوة، لم أستطع معها الإفلات من عناقه، همسَ قريباً من أذني "مـــاذا قررت؟". قلت "لا يمكنني أن اتّخذ قراري بهذه السّرعة، نحن لم نعـــرف بعضنا جيداً، بصراحة أنت متهور، كما أنّي أشمّ رائحة غدر قـــادم. أثارتك لعبة الزواج، لأنّها لن تُلزمك بالبقاء معي بعد حصولي على الجنسية، مجرد لعبة، تبدو لي قذرة". حين رأيت ملامحه المكفهرة، قلت: "بصراحة ليس هذا السّبب الحقيقي، أنا لا أريد أن أفقدك، هذا كلُ ما في الأمر، أودُّ أن أبقى في دائرة الحلم الملغى، دائرة زينب، عندما ستصل إلى جسدي، ويصبح كلّ شيء فيّ معروفاً لك، سأصبح خارج الحلـــم، وتعـــود ثانية للتفكير بزينب، الّتي ترتدي هالة القمر، ويضيء جـــسدها الكون من حولها. دقق جيداً فيما نثرتْه ألوانك من خفايا هنا في اللوحة" نحن نقتل الحلم حين نحوّله إلى واقع!. قال بإصرار: "من أين أتيت بهذه الأفكار؟ بل الحلم يكون أكثر جمالاً حين يتحوّل إلى واقع، وعـــندها لـــن يمـــوت أبداً" قلت: "هل تعني أن زينب ماتت!؟" تنهد بـــصوت مكـــتوم، ودخل المطبخ. في الواقع كنت أغالط نفسي بتلك العبارة المراوغة، أنا من كان يعيش الحلم الملغى، فقد تجلّى شمس كدفقة نور، غمرت قلبـــي بسلامٍ عجيب، حجبت عنّي ابتسامة عينيه – الّتي اعتقلـــتني في غفلـــة مني – كلّ ما جذبني إلى حسين. خدّرت حواسي كلّهـــا، فلـــم أعد أبصر داخل الرّوح وخارج الجسد سوى صورته،

وجهـــه، ضـــحكته الّتي تنسكب على حقول العمر القاحلة، فتخضرُّ بآلاف السّنابل، وزهور عبّاد الشّمس!

دقائـــق، ودعاني حسين للغداء، أكلنا صامتين، حاولت أن أحدّثه عن شوقي، لكنّ لساني تحجّر في حلقي، ورفض النّطق، حملنا الصّحون معـــاً، نظّفـــنا الطّاولة، أشعل شموعاً، أحضر كأساً، وجلس في زاويته، وفتح كتاباً، وفعلت مثله، من دون أن أرفع عينيّ عن الكتاب الذي بين يـــدي، عرفت أنّه يراقبني، وقد أغلق الكتاب، وشعرت بخطواته الهادئة تقتـــرب مـــن الأريكة، ويده الّتي أحاطت عنقي، وأصابعه الّتي رفعت وجهـــي قسراً، ونظراته الّتي التهمتني، وأنا مغمضة العينين، لجأت لتلك الخدعـــة السّخيفة للتّحايل على مشاعري، لجأت إليها لأقنع نفسي أنّي لا أريـــده، لا أرغـــب فيه كما يرغب بـــي. قلت: "أرجوك، اتركني أفكـــر، حتماً قبل أن تمضي المدّة، سأقرر". قال، وأنفاسه تحرق عنقي: "والحلـــم الملغى؟". قلت بحسرة: "في القلب أحلام كثيرة ملغاة، الحلم الحقيقـــي فيها، يحتاج إلى زلزال يغيّر ملامح الكون، ومع هذا فهو غير قابل للتّحقق"!

مـــرّت الأيـــام بسرعة الضوء، استسلمت خلالها لكسل الجسد، وتهويم الرّوح في سطور أكتبها، وأمزقها، وأعيد صياغتها، ولا تعجبني! حتّـــى جاء الصيف، في الثالث والعشرين من حزيران، استيقظت على نغم كانت جدتي تحبّه، أذكر تماماً أنّها كانت تدندن هذه الأغنية لناظم الغزالي حين تخلو إلى نفسها، وحين رأتني أنصت إليها يوماً، حذّرتني أن أبـــوح لأحـــد بذلك السّر! شعرت بنبرة صوتها تغريني - على صغر ســـني - بحمـــل الـــسّر في قلبـــي كما يفعل الكبار، فحافظت عليه، وأحسست وقتها أنّ مكانتي عند جدتي أصبحت مميزة. رأيت كفه من وراء زجـــاج الـــباب مستنداً عليه، أيتردد في إيقاظي؟ سمعته يهمس:

"أزيحي السّتائر، وانهضي، سنحتفل بمناسبة جميلة" فتحت الباب بتثاقل، وأنـــا أستفسر عن المناسبة، قال: "ستسبقينني إلى متحف سكانسن[1]، أظنّك صرت تعرفين الطريق، سألحق بك" رفض الإفصاح عن وجهته، وتـــركني لتخميـــنات كـــثيرة، منها أنّه سيحتفل معي بعيد ميلاده أو ربّما... أبعدت الخاطر عن مخيلتي بسرعة. ارتديت ملابسي على مهل، ونـــزلت إلى الشارع.

كانـــت السويد غارقة بلياليها البيضاء، حيث يتصل النّهار بالنّهار من دون ليل، وتتسابق النباتات لترتوي بضوء الشّمس قبل حلول الليل الاســـكندينافي الطويل. كنّا في نهاية الأسبوع. وأعرف أنّ أمامي ثلاثة أيام لن أرى العتمة فيها! أذكر الاحتفال الذي حضرناه في الثلاثين من نيـــسان بقدوم الربيع، بقينا يومها حتّى منتصف الليل حول شعلة نار ضخمة، النّاس يرقصون ويغنون، ويلقون الخطابات. الموسيقى تعلو في الفضاء، وهو يدور بين أصدقائه محاولاً جذبـــي إلى الحلبة بلا جدوى، لم أستطع يومها، ولا استطاع الربيع والورد الذي أحاطني به، أن يسلخ الكآبـــة من نفسي، بل أدخلني في دوّامة العبير الّتي تنفثها ذكرياتي مع شمـــس من جلدي، فيغسلني حضوره، حتّى في الغياب! منذ أيام أخذني إلى سكانـــسن، في عـــيد العلـــم[2] يومها عمّدني بالورد، نثره حولي،

---

(1) مـــتحف سكانسن مقام على جزيرة اسمها يورغوردن "حديقة الحيوان" أسسه أرتور هاســـيلوس عـــام 1891. يجمع التراث الشعبي السويدي والاسكندينافي، وكذلك كل حـــيوانات ونباتات السويد في متحف واحد مكشوف، وفي بيئة طبيعية خلابة، ولهذا الغـــرض أحـــضر إلـــى الجزيرة 150 من البيوت الريفية من مختلف أنحاء السويد بكامـــل أجـــزائها وأثاثهـــا، يعـــود معظمها إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ويـــرتدي العاملـــون في المتحف الملابس الخاصة بكل منطقة من المناطق السويدية حسب المعرض الذي يعملون فيه، ويقومون بالأشغال الاعتيادية من زراعة ومزاولة الحرف، ويعتبر سكانسن متحفاً حياً، ومعنى الاسم "الحصن الصغير".

(2) عـــيد غوستاف، اسم غوستاف، اسم حمله كثير من ملوك السويد، وأصبح هذا اليوم العيد الوطني السويدي منذ عام 1983 في السادس من حزيران.

وجعلني أحضن عمود الزهر، وأرقص رغماً عني، جاريته قليلاً، واعتذرت، كان من الصّعب أن أنسجم مع اللحن الشعبي السّريع، شعرت بدوار بعد بضع حركات، وجلست على العشب قريباً، استلقى بجانبي، وهو يتأمل السّماء، وقال: "إنّه الربيع، عيد الخصب، هل لسيدتي عشتار أن تأخذ بيدي لتنتشلني من عالمي السّفلي.

عرفت حزنه منذ اليوم الأوّل لتعارفنا، حدّثني عن فقده لأخوته وأخواله، عن الموت الذي تربص به زمناً في الشوارع، وفي غرف التحقيق، عن زينب، عن أمّه وطفولته، عن بغداد قبل أن يدوسها الحكم الفاشي على حدّ تعبيره، لا أنكر أنّي لم أتماهى مع حزنه كما يجدر بهاربة من قسوة مشابهة، بل أخذت الأمر بمزاح حين قارنت بين بعثنا وبعثهم، فلعنني - مازحاً - أنا وميشيل عفلق الذي أصبح أحمداً في رمل العراق! عرفت وقتها أنّ مشكلته مشكلتي، إنّها في المدن الّتي تسكننا، لا تلك الّتي نسكنها!

يومها زرنا قصر الكونت برنادوت، الذي ذكّرني بروايات الكسندر دوماس الّتي قرأتها في مراهقتي، وكنت أتخيّل فارساً يخطفني على حصان أبيض، ولأنّي رأيت يومها الخيول الاسكندينافية القصيرة الشقراء وسط بياض الثلج الشاسع، والبرد يرقص في عظامي، ويترك أطرافي ترتجف، فقد انهارت صورة الفروسية تلك، ولم أعد أحلم بقصور العصور الوسطى، ولا الفرسان الأقوياء على صهوة الجياد. فدلفت حي سودرمالم[1]، ربّما لأنّي بطبعي أميل لكلّ ما هو قديم، تفوح منه رائحة الزمن العتيق. ليس أجمل من إحساس المرء أنّ الزمن يعود به إلى قرون مضت، لم يكن من صنع خيالي ما عشته هذه المرّة،

(1) هو حي من أحياء استكهولم، هدمته البلدية لتبني شققاً حديثة بين عامي 1926-1933. ونقل بكامله كما كان إلى المتحف الحي.

فقد جلست على كرسي واطئ، أراقب نافخي الزجاج[1]، وهم يحولون بمهارة تلك المادة المصهورة في الأفران إلى مزهريات وأواني تشفُّ كما الرّوح، وتزدهي بألوانها وأشكالها. يومها اشترى لي مزهرية، وحذّرني "إياكِ أن تحبسي فيها روحك" ضحكت من قلبي، فقد ردّد كثيراً على مسامعي، أنّي باقة ورد على شكل امرأة، وأنّي أمنح الورد عطره. وحين وصلنا المطبعة، أمسك يدي، وهمس "سيدتي، ادخلي بقدمك اليمين، فهنا حرم الجمال، الذي يسرق من بهائك حروفه". لا أنكر أنّ قلبي كان يخفق بشدّة، وأنّي لم أميّز إن كانت دقاته بفعل سحر كلماته، أم سحر المكان؟ راحت أناملي تلمس برفق خشب البلوط، وتمسح عليه بحنان، وهو يشرح لي عن الطريقة الّتي يصنعون بها "الحبر" وكيف يغلون النيلج في زيت الكتان. ولم تكن ورش النّجارة بأدواتها البسيطة أقلّ سحراً، أحسست أنّي أخرج من العالم، ولا أريد العودة إلى الحاضر أبداً!

كانت رائحة القرفة القوية الوحيدة القادرة على إخراجي من الحلم، حين وصلنا المخبز، وكأنّي لم أذق طعاماً منذ دهر! حرقت أصابعي بالخبز السّاخن. فتناول الأرغفة مني، وقبّل أناملي، وقال: "سيدتي، لا يجدر بأناملك أن تلمس سوى الورد، تعالي لتدخلي الجنة". حدائق زهور، لا يستطيع خيالي أن يتصورها، جلبت أبنيتها من أنحاء مختلفة، لكنّها كلّها لم تجعل القلب يرتعش، وحدها حديقة الورد الدمشقي[2]، الجوري بأنواع لم أرها في حياتي، هنا توقفت، ورفضت

(1) في المتحف محال للحرفيين، والصيدلية، ودائرة البريد، بالإضافة إلى ورشة ميكانيكية بسيطة أسست 1889، وورشة نافخي الزجاج من العلامات البارزة في المتحف.

(2) يطلق عليها اسم روسنغوردن، زرعت عام 1964، فيها خمسون نوعاً من الورد الجوري.

أن أمشي. لم يعد بإمكاني أن أتحرّك، كيف لي أن أغادر كلّ هذا الجمال، وأنزع من رئتيّ كلّ هذه الروائح الفذة؟. لكنّه لم يتركني، كان علينا المغادرة في الوقت الذي تغلق الحديقة أبوابها، لنعود إلى البيت، وعلى الرغم من متعة امتطاء صهوة الماء في سفينة قديمة، وعلى الرغم من الورد الذي أحاط به سريري، إلاّ أنّ الكآبة لم تفارقني. شعرت أنّي تركت روحي هناك.

اليوم طلب مني أن أنتظره في حديقة الحيوان. الواقعة في أعلى بقعة من الجزيرة، ولأنّي لا أحبّ الحيوانات الضخمة، وأميل دائماً إلى ما يربطني بطفولتي، دخلت "سكانسن الصغيرة" وتجولت بين الحيوانات الداجنة الطليقة، كنت أراني في البراري المحيطة ببلدتنا أيام الطفولة، وأنا أركض وراء أغنام عابرة، لألمس صوفها بدهشة، كان لذلك الملمس في ذاكرتي ملمس غيمة، فكثيراً ما كنت أستلقي على ظهري فوق العشب لأنظر إلى السّماء وأراقب خرافها البيضاء، وألمسها بيدي! لم أكن أشعر بفرق كبير بينهما! لم أنتبه إلى يده في البداية وهي تحط على كتفي برفق، كنت غارقة في الحلم، أتابع ألعاب الأطفال، وكأنّي لم أبرح طفولتي، نظر في عينيّ، وهمس "تعالي، لن يكون ذلك محرجاً" لكنّي رفضت بشدّة، ركبني العناد، وخطوت صوب البرج البني المبني من الآجر، صعدت طبقاته السّت بسرعة، جعلت قلبي يخفق بشدّة، دلفت المقهى، واخترت الجلوس قرب شبّاك يطلُّ على الجزيرة، في زاوية لا أرى منها سوى الماء، شعرت أنّي داخل فنار يحيط بي البحر من كلّ جانب، لم أشأ أن أتكلّم، دخلت بوابة الصمت، واتكأت على خفقات قلبي، أردت أن أغفو داخل حلمي، لكنّه أصرّ أن يخرجني إلى حيث هو. كنت أحضن هديته، باقة جارديني مذهلة البياض، زرعها في أصص على شرفة بيته، أحضرها لي كلّها! نهض من مكانه،

وجلس على كرسي بجانبي، حدّق فيّ، فأدرت وجهي صوب النافذة. قال بنبرة حارّة أشعلت جسدي: "نسمة". رددت هامسة من دون أن ألتفت، بل حاولت إخفاء وجهي بباقة الورد"عيوني". قال: "ألن تسعديني بموافقتك؟" كنت على وشك أن أخبره بقراري، لكنّي فوجئت بعجزي عن ذلك. حدّثتني نفسي "يا مجنونة، أيعقل أن تتركيه؟".

في العاشرة عدنا، كنت أودّ لو وصلت النّهار بالنّهار كما الليالي البيضاء، وبقيت وسط الشّمس، تلسعني بذكرياتي، وتبللني بعرقي، كان يهمس لي من أعماقي "وهل نعرف أهمية الشمس بغيابها؟ بل نعرفها بإشراقها وضوئها ووجودها". صرخت مساماتي كلّها "ولكنّي أدركها وهي غائبة"! ضحك عميقاً، وقال: "أتتوهمين؟ من قال إنّها غائبة وأنت تحيين بها؟".

توقفت آهة حارّة في حلقي، وكدت أصرخ "آخ" بوجع، كما يفعل حسين حين يغني، كنت أودُّ لو تغيب الشمس إلى الأبد، لأبقى بين ذراعيه هكذا زهرة جاردينيا تمنح الليل – الفضي كفجر قريب من حولنا – نبضاً مختلفاً، لكنّ شمس استكهولم تأبى أن تغيب، تأبى أن تتركني أشعر بنسمة باردة، تجلبها كلمات حسين، لتبرد روحي!

سألني: "ماذا قررت؟".

لم أعِ مباشرةً أنّ تأجيلي للموافقة كان بسبب أستاذي الذي فتح جرحاً غائراً في روحي، اعتقدت في البداية أنّها الشّفقة، ثمّ أحسست أنّ الأمر يرتبط بيقين، تسرّب في غفلة مني إلى عقلي، يحرّضني على الانتقام له، ولي، لا أعرف كيف تبلورت الفكرة في ذهني بسرعة عجيبة، ووجدتني أذهب إلى الحديقة في الصّباح للبحث عنه، ولما لم أجده، أنّبني ضميري، وحمّلت نفسي مسؤولية أيّ شيء يمكن أن يحدث

لـــه. تكـــرّر حضوري، وتكرّر غيابه! فقررت المجازفة وزيارته في بيته، فاجأني وجه ممرضة فتحت لي الباب، وابتسمت لي، وأخبرتني بكلمات قليلة أنّه مريض.

لم أتردد، قررت البقاء إلى جانبه، مرّ يومان وأنا أعتني به من دون أن أفكّـــر بالاعتذار من حسين، أو الذّهاب إليه. كنت أطعمه، وأسهر إلى جانبه، وأناوله الدّواء في مواعيده. وفي اليوم الثّالث، وبينما كنت في المطـــبخ، شعرت بحركة غريبة في الصّالة، ركضت إليها، فوجدته هناك علـــى كرسيه، وقد مشّط شعره، وتعطّر، اقترب مني وهو يبتسم، قال بـــود: "لقـــد أتعبتِ نفسك، أنا ممتن لك، اجلسي". لاحظت أن طلبه رافقـــته غـــصة، استصعب أن ينظر إليّ من كرسيه، فأبدو بعيدة جداً. جلـــست قـــريباً مـــنه، تقدّم، وتناول يدي، قبّلها، وقال غامزاً "متى ستحصلين على الإقامة؟".

(3)

مرّت سنواتٌ وأنا أحاول التّأقلم مع وضعي بلا جدوى، لم يكن جلوسي قرب النّافذة، أتأمل الشّارع، وأنتظر مجهولاً قادماً بخبر يغيّر مجرى حياتي، يشبه انتظار عاشقة، حاولت أن أنعش ذاكرتي دائماً باستحضار صورته، كي لا تموت حواسي إلى الأبد، مع هذا تضاءل حجم الذّكريات، وزادت الهوة بيني وبين الماضي اتّساعاً. يربكني حضوره المفاجئ أحياناً، فأخفي وجهي في حجري متصنّعة النّوم، خشية أن يلتقط زوجي تلك الأحاسيس بقربي استشعاره المتحفزين دائماً لإدانتي، والهزء مني، أو اتّهامي! ينتشلني صوته غالباً من قاع البحيرة الرّاكدة لأفكاري، أهز رأسي قليلاً، وأعاود النّظر في جريدة، لا أرى فيها سوى سطور، تغص بأحرف هلامية، تتحوّل إلى أشكال غريبة مع الوقت. أترك الجريدة، أتناول قهوتي، فأجدها باردة كالعادة. أفتح الكمبيوتر، أتنقّل بين مواقع الإنترنت، أحاول أن أغوص في عالم افتراضي، يبعدني عما أعيش فيه زمناً.

يناديني من داخلي: "أن تعيشي لأجل لا شيء ذلك هو الموت، إلى متى ستبقين على هذه الحال البائسة؟". نعم سأعيش لأجل شيء ما، سأقضي على هذه الرتابة الّتي تأكل أعصابي، وهل لي سوى الكلمات؟

أسمع زوجي يقول:

- تعلمين؟ منذ رأيتك قرب سريري تلك الليلة، عرفت أنّك ستكونين لي، قد تعتبرينه غروراً، لكنّها ثقة مطلقة بالنّفس، أعرف أنّ

ظروفك ساعدت في إتمام أمر الزواج، لكن، ما أنا على يقين منه أكثر، أنّ الحبّ فتح باب قلبك، وإن بقي مواراباً قليلاً بسبب وضعي الصّحي، لكن كلّ ذلك سيتغير، أنا على ثقة أنّ ذلك سيحدث.

استمعت إليه بفتور، وأنا أتأمل تلك الهشاشة في الجسد، الّتي يغطيها بصلابة مفتعلة في الرّوح، وقسوة في التّصرفات. تساءلت "كيف ارتبطت به؟ أين كانت بصيرتي، بل أين بصري؟" نعم الآن أرى بوضوح، لم يعد للروح معنىً، ولا للأفكار، ولا للمبادئ، تبدّى جسده أمامي فارغاً معطوباً، ويفتقد إلى الوسامة، وعيت خيبتي جيداً، فلا أنا طلت بلح اليمن ولا عنب الشام!

يداي تعبثان بمفاتيح الكيبورد، ومن دون أن أرفع نظري عن الشاشة. قلت لأحرف الحديث عن مسار التّبجح الذي سئمته:

- لا شكّ أنّ ظروف السّجن القاسية هي الّتي أصابتك بالعجز.

ردَّ بحنق:

- ليست ظروف السّجن بل التّعذيب تحديداً، أصبت بالشّلل منذ السّاعة الأولى لاعتقالي، بسبب الكرسي الألماني المعروف بهذا الاسم على نطاق دولي German chair، واسمه مشتق من الغستابو النّازي الذي ابتدعها على يد هملر رئيس الاستخبارات النّازية، ثم استوردها الأنظمة الإرهابية والديكتاتورية في العالم العربي وفي شرق أوروبا، وألحقوا بها تطويرات خاصة، كرسي التّعذيب الموجود في الفرع، هو السّبب في العطب الذي أصاب جسدي، أمّا عطب الرّوح فسببه هؤلاء الأوغاد الذين قاموا بتعذيبي.

قلت:

- احمد ربّك أنّك لا زلت على قيد الحياة.

قال بضيق:

– لو كان هناك إله، لما استطاعوا أن يفعلوا بـــي ذلك. طيلة فترة ســـجني، كنت أفكّر بهذه المسألة، لكنّي لم أصل إلى قناعة، على الرغم من نظرات المساجين المتدينين إليّ.

قلت باستغراب:

– مـــساجين متديـــنين؟ كيف؟ ألم تقل إنّك كنت في زنـــزانة منفردة في فرع فلسطين؟

قال:

– هـــذا قـــبل أن ينقلوني إلى سجن تدمر، هناك قضيت فترة بين محكـــومين من الأخوان المسلمين، لا أظنّك سمعت بسجن تدمر. ومن أين لمثلك أن يعرف ما يجري في العالم.

احمـــرّ وجهي غيظاً وخجلاً، وآثرت الصّمت. قال من دون أن يلتفت إليّ:

– يـــبدو أنّ كلامي جرحك، لكن ما رأيك بما عرفته هناك من معلـــومات؟ لا يمكنك أن تتصوري ما يقوم به الاستعمار الدّاخلي من تخريب داخل البلاد.

قلت بحذر:

– لا ينبغي أن تؤثر مصائبنا الشّخصية في مواقفنا الوطنية.

كاد يصرخ في وجهي، لكنّه ضبط صوته قليلاً، وقال بحنق:

– وهـــل أنا الذي تسببت بالعجز لنفسي؟ أنا الذي رميت نفسي من سيارة مسرعة إلى شارع عام، وبقيت أكثر من عشر ساعات فاقداً الوعي؟ لقد رموني ككيس زبالة قرفوا من رائحته، ولم يفعلوا ذلك إلاّ بعـــد ضغوط خارجية. نعم أفرجوا عني لأنّي شخصية اعتبارية، طالبت مـــنظمات حقوق الإنسان الحكومة بذلك، لكنّهم حتّى عندما أفرجوا عني، لم يتخلوا عن حقارتهم، أرادوا أن أموت على الطّريق العام خارج

العاصمة، و لم يخطر ببالهم أن يستطيع جسدي المقاومة، كانوا يتوقعون أن أموت قبل أن يمر إنسان في المكان.

عشت حياتي محاصراً بعيون جواسيسهم، لدرجة أنّي لم أستطع الارتباط بامرأة طيلة حياتي، هل تفهمين معنى ذلك؟

تنفّس بعمق، وتابع بهدوء "لا أريد أن أؤذي مشاعرك بالحديث عما رأيته في السّجن، لا أودُّ أن أجرحك أكثر، أنت رقيقةٌ ولا تحتملين. تعلمين؟ منذ بداية الأحداث، عشت حياتي محاصراً، لم يمرّ يومٌ حمل لي الفرح، صرت أخشى الجلوس في المقهى، أخشى المشاركة في حديث يتناول الأوضاع، في الكلية أتجنب الاحتكاك بالطلاب، أسئلتهم صارت أفخاخاً تطبق على عنقي، معظمهم كانوا مخبرين! في الشّارع أحاذر السّير في الأماكن المزدحمة، حتّى أنّي صرت أعود إلى منزلي قبل المغرب، عملت لنفسي حظر تجول، لا أخرج مهما كانت الظّروف، التزمت خطة دفاع، كنت أخشى بشدّة أن يأخذوا عليّ أيّ تصرف غير مقصود.

حتّى قصتي مع شاهينة، آه... يا لتلك المرأة!

لا أنسى حين زرتها في يوم شديد البرودة، كانت ترتجف حين فتحت لي الباب، قالت: "رح أتجمّد، الله يخرب بيوتهم، قضيت اليوم أمام الكازيّة، وما قدرت أحصل على لتر مازوت، النّاس عم تقتل بعضها، ما عاد في رحمة". أضحكني كلامها، قلت: "انتظري ريثما تأتي الكهرباء، استعملي مجفف الشّعر، دعيه ينام معك في الفراش". غمزت بعينها، وقالت: "لا أحتاج مجفف شعر، وين رحت أنت؟". ضحكنا معاً، احتضنتها، واندسسنا في الفراش. بكت شاهينة بحرقة، وأنا أفرك أصابعها، وأضمُّها إلى قلبي لتشعر بالدّفء، وقالت: "ما تتركني، أنا خائفة، والله غصب عني، كلّ شيء حصل غصب عني".

في تلك اللحظة طقت في عقلي، وقررت أن أتزوجها. فهمتُ ما لم تفهمه شاهينة، وعرفت عنها، أكثر مما تعرفه، تلك المرأة البسيطة الّتي أرادت أن تتجمّل أمامي بالكذب، كي لا أرى بشاعة الحقيقة، لكنّها أخطأت، وامتلكتُ القدرة على الصّفح عن أخطائها وكذبها. وعلى الرّغم من عدم إيماني بالأديان كلّها، إلاّ أنّي كنت معجباً بمقولة المسيح: "من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر".

ليلتها سهرت لأكتب لها أجمل قصيدة كتبتها على الإطلاق، كانت شاهينة أرضاً خصبة، اغتصبها من يملكون مصائر البشر، ورموها بعد أن ملّوها، تجلّت قريحتي، فأفضت في وصف مفاتنها، القمح المرسل في شعرها، آبار العطاء والحنان في جسدها، أنهار الدّفء. رأيت فيها وطناً كاملاً، وطناً تمرّد على من اغتصبوه وقمعوه، وداسوا كرامته بأحذيتهم! وطمح لحياة أجمل، حياة كما في الحلم، سهلة المنال، منصفة، وكريمة. هل تلام شاهينة لأنّها طمعت في الزواج مني؟ وإن استخدمت طرقاً ملتوية للوصول إلى غايتها، فهي ليست مسؤولة عن ذلك، المجتمع من حولها، فرض عليها طريقة التّعامل تلك. أليس من حقّها أن تشعر بإنسانيتها؟

حين قرأ أحد زملائي القصيدة، فتح عينيه دهشة وقال: "أتقصد أنّ ثورةً قادمة ستقضي على الظّواهر السّلبية في الحكم؟". صعقني التّفسير، فخطفت القصيدة من يده، ومزّقت الأوراق بسرعة، وأنا أرتجف. أيّة ثورة تلك؟ أنا أصف امرأة أعشقها. قال ببرود: "نعم، لكنّك ترمز بها للوطن، ذلك واضح، تراه العين المجردة، من دون حاجة للتّحليل". ثمّ أردف مازحاً: "قصيدة كهذه، تدخلك السّجن، سيتهمونك حتماً بالتّحريض على الثّورة".

تلك الليلة، ضننت على أفكار القصيدة أن تذهب أدراج الرّياح، فأعدت كتابتها، غيّرت وبدّلت العبارات، ثمّ أعدت القراءة، فالتاث

عقلـــي، هكـــذا يمكن أن تفسّر بطريقة أشنع! مزّقت الأوراق وأعدت الكـــتابة! قـــضيت الليل على تلك الحالة، وفي الصّباح جمعت الأوراق كلّهـــا في الـــشّرفة، وأحرقتها. وقررت هجر الشّعر نهائياً، خشية أيّ تفـــسير قـــد يلجأ إليه مخبر قذر، يكتب تقريراً، فيدخلني إلى حيث لا أخرج إلاّ إلى القبر. لم أعد أعرف كيف أمشي في الشّارع من دون أن ألـــتفت ورائي في كلّ لحظة، حتّى أنّي صرت أخشى لقاء شاهينة، هل يعقل أن تكون هي الأخرى...؟

كـــلّ تلك الإجراءات والاحتياطات، لم تنفعني في شيء، فالحذر لا ينجي من القدر، كما يقولون. أوقعتني مصادفة قاتلة في المحظور، لا يذهبنّ تفكـــيرك بعـــيداً، لقد اعتقلوني على الشّبهة، كنت في أحد الأحياء حين سمعـــت طلقـــات رصـــاص، فسارت قدماي بغريزة الخوف، ولجأت إلى مـــدخل بناية قريبة، و لم أشعر إلاّ والمكان يحاصر، وتدخل قوة لتقبض على بعـــض الشّبان الذين تمترسوا على سطح البناية، واعتقلت معهم. لم يصدق أحـــدٌ أنّـــه لا علاقـــة لي بالأمر، ظنّوا أنّي معهم، و لم يكتشفوا أنّي من طائفـــتهم، إلاّ بعـــد تحقـــيقات طويلة، لم يقتنعوا بهويتي الشّخصية، ولا بمعارفي، انظري السّخرية، أنا أعتقل على أنّي من الأخوان المسلمين، وهم السّبب في مقتل أخ لي كان في مدرسة المدفعية!. بعد أن تأكدوا من صدق كلامي، لم يشاؤوا أن يكونوا على خطأ، فألصقوا بـــي تهمة الشّيوعية، لا أنكـــر أنّـــي أعتنق فكر لينين وماركس، وأنّ معظم أصدقائي من حزب العمل، لكن لا شأن لي بهم، لم أكن يوماً ما فاعلاً في أيّ حزب كان.

لا شـــكّ أنّـــك تتساءلين عن مصير شاهينة؟ حتماً عرفتِ أنّنا لم نتزوج، أمّا مصيرها؟ فلا أعلم عنه شيئاً!

لم تـــسأليني عـــن الأسرار الخطيرة الّتي اكتشفتها أثناء إقامتي في سجن تدمر؟ أعرف أنّ لا شيء يعنيك، ولا شيء يمكن أن يحرّك فيك

حس الدّهشة، لكن هذا الأمر أظنّه سيحوذ اهتمامك، إنّه يخص صديق والـــدك "أبـــو فراس"، أدرك أنّه لا يفارق ذاكرتك، لا أحد يمكنه أن ينسى جلاّده. أم أنّك نسيت؟

(رموني في الصّحراء، حين أفقت من الغيبوبة، لم أرَ سوى رمال، وقمر مضيء.

زحفـــت صوب ضوء ينوس في البعيد، تخيّلت أنّه خيمة لبدوي، وقد صح ظني، فقد نهض من باب الخيمة، رجلٌ، يحمل في يده قنديلاً، أســـرع نحـــوي، ونـــادى على آخرين، ساعدوه في حملي إلى الخيمة، مـــدَّدوني على فراش مريح، وأحضروا لي طعاماً وشراباً، واستدعوا لي طبيباً، اعتنى بجراحي، من دون أن يسألني شيئاً.

في الـــيوم الـــثّالث، وعلى عادة أهل البادية، سألني أبو محمّد عن غايتي في اللجوء إلى قريتهم، ظنّاً منه أنّي كنت أقصد القرية القريبة من الخـــيام. حتّى ذلك الوقت لم أكن أعرف أنّي في منطقة "الباردة" الّتي تبعد عن تدمر 110 كيلو متراً.

حـــدّثت أبـــا محمد مضيفي عمّ حلّ بـــي، وما لاقيته من أهوال حتّـــى ساعة وصولي إلى باب خيمته. كان عليّ أن أجد تبريراً لحالتي، لكنّي خشيت أن يعرف البدوي أنّي أكذب عليه، فيطردني من خيمته، وحـــالتي لا تحتمل مغادرة المكان. حينها صارحتُ أبا محمد بأنّي كنت ســـجيناً، وذكرت أمامه في معرض حديثي اسم الذي اعتقلني. نظر إليّ بـــريبة، ولم يعلّـــق! اســـتنتجت أنّ أبا محمّد لم يصدّقني، بل زاد شكّه واستغرابه، مع أنّه لم يفصح عن شيء. تشاغل بصنع القهوة، وتقديمها لي، وتدفّـــق أقاربـــه ليسلّموا عليّ. كانت نظراتهم المرتابة تزيد قلقي وتوتـــري، وتضاءل كلامهم، وصاروا ينسحبون تباعاً، حتّى بقيت مع مضيفي الّذي اعتذر مني، وتمنّى لي ليلة هادئة، ودخل إلى زوجته.

في الليل سمعتهما يتهامسان، وصلني بوضوح قوله: "ليته يرحل بسرعة، لا أريد مشاكل مع أقربائي من أجله". ردَّت زوجته: "هل أنت متأكد من أنّه جاسوس؟ ولماذا يرسلون إليك جاسوساً مشلولاً؟". قال وقد فقد سيطرته على همسه: "لأنّهم يريدون خداعي، حتّى لا يمكنني أن أشكَّ به، لكنّه فضح نفسه، ذكر اسم "أبو فراس" أمامي من دون أن ينتبه، هذا الاسم المرعب، الاسم الذي سمعت العمال الّذين دفنوا النّفايات يتحدّثون عنه، هل أنا قد المخابرات لأصطدم بهم؟". قالت زوجته بغيظ: "ملعونة تلك السّاعة الّتي ذهبت تبحث عن غنمك فيها. يا رجل، كنت اتركه يفطس، أفضل من هذه الورطة الّتي علقنا فيها".

لم أستطع النّوم حتّى الصّباح. حينها لمحت مضيفي يدخل عليّ، ووجهه محتقن، وعيناه متورمتان، وعرفت أنّه هو الآخر لم يستطع النّوم. فما كان مني إلاّ أن بادرته: "يا أبا محمّد، لا تخش مني شيئاً، لقد كنتُ سجيناً، وأحتاج مساعدتك لدخول الأراضي الأردنية، أريد أن أخرج من البلاد، وصدّقني لن يعرف أحدٌ شيئاً عن الذي سمعته منك. انخطف لون بشرته، ولم يستطع أن يرد. قلت له، إنّي سمعت حديثه، وأنّي لا أستطيع المغادرة ما لم يساعدني، وهو بكلّ بساطة يستطيع قتلي، ودفني في الرّمال، من دون أن يسأله أحدٌ عما فعل، فلا أهل يبحثون عني، ولا زوجة، ولا صديق.

اطْمَئَنَّ أبو محمّد قليلاً، ووعدني أنّه سيبحث عن طريقة، يهرّبني فيها إلى العراق، أو لبنان أو أيِّ بلد يستطيع معارفه من البدو الوصول إليه، المهم أولاً أن يستطيع تأمين جواز سفر مزوّر يساعدني على الهرب خارج البلاد.

لا يمكنني معرفة الدّافع الأساسي الذي جعل أبا محمّد يساعدني، وهو يعرف أنّه سيتعرض للمساءلة، وربّما يشكّل عمله ذاك خطراً على حياته، ولم أنسب ذلك إلاّ إلى شهامة البدوي وأصالته.

لم يمـــض زمن طويل، حتّى كنت خارج البلاد، وأعترف أنّ أبا محمّد أنقذ حياتي، لكنّي لم أستطع بالمقابل أن أسأل عنه، وأطمئن عليه، خشية أن أتسبب له بالضرر).

لا أنكـــر أنّ حكاياته تثير دهشتي أحياناً، وتثير استغرابـــي غالباً، خاصـــة وأنّه يجد في كلّ مرّة حكاية جديدة يقصُّها علي!. وكانت في الماضي تثير عطفي وشفقتي. يبدو أنّه بدأ يشعر بعدم اهتمامي بما يقول، فأخـــذ يـــتحوّل تدريجـــياً إلى إنسان شرس وعصبـــي، يغضب لأتفه الأســـباب، ويحطّم كلّ ما تصلُ إليه يداه، وحين يهدأ، يبكي، ويعتذر كطفـــل صـــغير، ويـــرجوني ألاّ أتركه. لا أعرف كيف وصله ذلك الإحـــساس، وكـــيف داخلـــه اليقين أنّي سأتركه منذ حصولي على الإقامـــة!. لكنّـــي كنت دائماً أضطر لإثبات العكس، فأحتمل جنونه وعـــصبيته، وكلّ ما يفعله، وأتقبّل حياتي معه بأعصاب باردة، فيزداد اشتعالاً، ومع الأيام صار يخرج من البيت وحيداً، ويرفض مرافقتي له.

ســـاعات طوالاً أمضيها بين نافذتين،الأولى أراقب منها الشّارع، والـــشّجر، وأنتظر الفراغ الّذي يتراكم يوماً بعد يوم، فتتسع الهوة بين الـــرّوح والعقـــل، أحـــاول أن أخرج إلى العالم من حولي، فأفشل في الانسجام مع تلك التّفاصيل الّتي بتُّ أكرهها بشدّة، مواعيد الاستيقاظ وأعمال البيت والنّوم والذّهاب إلى الحديقة، حتّى التّسكع في الشّوارع! كـــلُّ ما أفعله أصبح ممجوجاً، وكريهاً، لم يعد بـــي رغبة لممارسة أيّ فعل من أيّ نوع، والثانية افتراضية، أتحدّث من خلالها مع أشخاص لا أعرف عنهم سوى أسماء لا تعني شيئاً.

ما لم أنتبه إليه وأنا غارقة في ذهولي من روحي الّتي غاصت بعيداً عـــني، أنّ زوجـــي أصبح في حالة لا تطاق، وأنه لا يصحو من سكرة حتّـــى يـــدخل أخرى، وراح يحاصرني باتهاماته، وكلماته السّامة. وقد

جعلتني كلماته الأخيرة أرتبك، وأحاسيسي تنتفض، هل يعقل أن يفعل ذلك؟ صحيح أنّ الأمر لم يعد يعنيني، لكنّه قصد جرح كرامتي واستفزازي بمنتهى الصّفاقة، لماذا أسكت على إهاناته المتكررة؟ هل أدمن جسدي خموله، ولم تعد الكلمات تؤثر فيه؟ نهضت من مكاني قرب النّافذة، صنعت فنجان قهوة، وجلست في الصّالة الواسعة، ورحت أقلّب صفحات مجلات قديمة، الوجوه المغبرّة ذاتها، والصّحف الّتي يحتفظ بها لا لغاية محددة، أو لغاية لا أدركها. الفوضى الّتي تعمُّ البيت من حولي، تشعرني أنّي في مكان يشبه إلى حدّ كبير زريبة للحيوانات، على الرّغم من صراخي وتوتر أعصابي، إلاّ أنّه يرفض أن أعمل أيّ تغييرات في "بيته". تكراره لتلك الكلمة بات يوتّرني، ويضغط على أعصابي. وقد تفاقم الخلاف حتّى وصل طريقاً مسدوداً، لم أتّخذ قراري بتركه في تلك اللحظة، كي لا أبدو أمام نفسي مستغلة وأنانية، لكن، ألا تكفي تلك السّنوات الّتي قضيتها مع إنسان معقد وعاجز، ومشوّه الرّوح؟ رفض مراراً أن يذهب إلى الطّبيب، مع يقينه أنّ بإمكانه إيجاد علاج لوضعه، لماذا يفعل ذلك بي؟ لم أكن مترددة في اتّخاذ قرار بشأن حياتي كما أنا الآن، خلال الأيام الماضية، كنت أستغل ساعات غيابه خارج البيت، وأرتّب أشيائي، اتصلت بحسين ليؤمن لي سكناً، وعندما صار كلّ شيء جاهزاً، انتابني العجز عن المغادرة، ها أنا مرّة أخرى أمام الشّاشة، أغوص في كم هائل من المواقع والمعلومات، وأتعرّف على المزيد من الأرقام البشرية، ولا تعنيني عودته!

ها أنا ثانية أستجدي نافذته الافتراضية اهتماماً من نوع خاص. يخاطبني بعتب كلّما تأخرت عليه، فتسري في العروق رعشة أحاول ضبطها، وتجاهلها.

لم تكـــتمل فـــرحتي بقراءة الرسالة، إذ لمحتُ عيني شوقي ترمقان الهاتف ووجهي بريبة، لكنّه لم ينطق بحرف واحد، دخل المطبخ، وبعد لحظات سمعت صوت تحطم الصحون، وبقيت جالسة في مكاني.

في الفترة الأخيرة، صار يرفض أن أخرج معه إلى الحديقة، يرفض أن أســـاعده في اعتلاء السّرير، أو أقضي له أياً من حاجاته الشّخصية، هل هو إحساسه بأنّي سأغادر؟يجب أن أترك المنـــزل، لم يعد يربطني به ســـوى إحـــساسي بالـــسّنوات الّتي هدرتها في خدمته، وتحمّل عقده وتبجحه. لم تعد الجدران تعني لي السّتر ولا الحماية. منذ البداية اتكأت علـــى جدار هش، قابل للانهيار في أيّ لحظة. لا أريد تأنيب نفسي ولا لومها، فلم أعد بحاجة لمزيد من الألم.

أراحـــني في الـــبداية تصرفه ذاك، صرت أشعر بالهدوء يخيّم على البـــيت، وامتلكتُ صفاء ذهني في تلك السّاعات، فرحت أفكّر بتركه فعلاً، والبحث عن عمل أحتك من خلاله بالنّاس، وأستعيد نبض الحياة في عروقي، وقد ساعدني على اتّخاذ القرار مجموعةُ تصرفاتٍ قام بها في الفترة الأخيرة، اكتشفتُ أنّه يخرج من البيت ليراقبني! وأنّه صار يضيّق عليّ الخناق أكثر من أيّ وقت مضى. تعمّق إحساسه بفقدي إلى درجة أخافـــتني من تصرف أحمق، يقدم عليه، ليمنعني من الارتباط بشخص آخر. و لم أجد سبيلاً لإقناعه أنّي لا أفكر بالارتباط برجل، وأنّ الرجال كلّهم لم يعودوا يعنون لي شيئاً. لكنَّ إقناعه كان أمراً مستحيلاً، خاصة بعـــد أن واجهني باتّصالاتي بحسين! صرخ بصوتٍ مبحوح: "تعتقدين أنّـــي مغفل، أليس كذلك؟ منذ البداية عرفت أنّ بينكما علاقة مريبة، لكـــن لم أتصوّر أن تصل بك الجرأة إلى خيانتي علناً، لست أحمق كما تتـــصورين، أعرف أنّكما تلتقيان من وراء ظهري، رأيتكما منذ أيام، كـــنتِ مطمئـــنة إلى عجزي وغبائي، لم يخطر لك أنّي أذكى من أن

تطعـــنني امـــرأة". قلـــت بهدوء: "أنت واهم، ما الذي يدفعني للخيانة والخـــيارات مفتوحة أمامي؟ ما الذي يدعوني لرؤيته من وراء ظهرك، وأنـــا أســـتطيع حزم حقيبتي والذّهاب إليه في هذه اللحظة؟ يبدو أنّك خـــرّفت حقّـــاً". لم أره في مثل هذه الحالة منذ عرفته، جلس يبكي، ويتوســـل إليّ، ثم ثارت ثائرته، حطّم التّماثيل الصّغيرة في زوايا الصّالة وكلّ ما وصلت إليه يداه من أواني المطبخ، لكنّي لم أتحرّك، تركته يفعل ما يريد. صنعت قهوة، وجلست قرب النّافذة في مكاني المفضل. اقترب مـــني، أخـــذ يـــدي، قبّلها، دعك أصابعي برفق، وتلعثم وهو يقول: "أرجـــوك، أعطني فرصة، لن أضايقك بعد الآن، أنا لا أستطيع العيش بـــدونك". توســـلاته لم تـــصل أذني، التزمت الصّمت تجاه دموعه، وارتباكه، وانكساره، فقد سئمت كلّ ذلك، و لم أعد أجد جدوى من العـــيش مـــع إنسان مشوّه الرّوح إلى هذا الحدّ، أعمته غيرته وأنانيته، أعتقد أنّ الزمن الذي عشته معه يكفي كفّارة عن كلّ الذنوب الّتي لم أقترفها، بل تركها أبـــي إرثاً، ودِيناً في رقبتي.

أراحتني تلك القناعة الّتي توصلت إليها، و لم أعد أتمسك بمراضاته، أو جبر خاطره على حساب راحتي وسلامي النّفسي.

(4)

فتحت حقيبتي، وتأملت محتوياتها، هل نسيت شيئاً؟ شيءٌ واحد، ترددت طويلاً في أخذه، لكنّي عدت، ونبشت الجرائد القديمة، وتحمّلت الغبار المتصاعد منها، سحبت ذلك الدّفتر الأزرق، الذي يشبه دفاتر الوطن، جوانبه المهترئة توحي بعدد السّنوات القابعة في الدّاخل، وربّما الأسفار والتّنقلات الّتي جعلت صفحاته باهتة، كنت أراه بين الحين والآخر، ولا يثير فضولي، على الرغم من أنّي أعجبت بالكثير من قصائده الّتي أسمعنا إياها على مدرّجات الجامعة، وبين ردهاتها، وفي غرفته الصّغيرة في الطّابق الثّاني. مع هذا أحببت أن أسرق ماضيه، ربّما رغبة مني في معرفة الحقيقة؟ لم أره يوماً يهتم بالكتابة، أو يخرج هذا الدّفتر من ركام الجرائد، ليمسح عنه غبار الماضي، ويقرأ لي ولو قصيدة غزلية من قصائده، الّتي هامت بها طالباته في زمنه الذّهبي الذي يفخر به دائماً. قضيت على ترددي، ودسسته بين ملابسي، لم أنظر خلفي، ولم أدع الجدران تذكّرني بشيء، وأنا أصفق باب البيت، وأغادره إلى الأبد. قطعت الشّارع، كان حسين ينتظرني في سيارته على الطّرف الآخر، تناول الحقيبة، ووضعها في السّيارة، وفتح لي الباب الأمامي. حين أسندت رأسي على المقعد، وأغمضت عيني، كنت أبحث عن وسيلة تنسيني كلّ ما فات.

الشّقة الهادئة، البسيطة الأساس، والنّظيفة، أدخلتني عالماً جديداً، يشبهني إلى حد ما، لا تعقيد، ولا فوضى، ولا أشياء متراكمة لا تعرف متى يأتي دورها في الاستخدام.

رتّبت ملابسي في الخزانة الصّغيرة، ووضعت دفتر أشعاره بجانب سريري على الطّاولة. ورميت جسدي بقوة على السّرير، نهضت، ورميت نفسي مراراً، أردت أن أصرخ، أن أكلّم نفسي بصوت مرتفع، أريد أن يسمعني الكون بأسره "أنا حرة". لماذا إذاً أحتفظ بهذا الدّفتر التّعس؟ وماذا يهمني من أشعاره؟ وما قيمتها أصلاً؟

تناولته بسرعة، وأردت تمزيقه، أن أمزّق فيه ذلك الجزء المعتم من حياتي، لكنّي لم أجرؤ على فعل ذلك، أحسست أنّي أقوم بعمل قذر لا يليق بي، لا يليق بطبيعتي وتفكيري، يجب أن أعيده إليه، وأنهي تلك الصّفحة من حياتي بحياد تام، من دون ثارات سخيفة لا معنى لها. وضعته برفق على الطّاولة، وارتديت ملابسي، وخرجت.

قضيت ساعات طويلة وأنا أدور في الأسواق، اشتريت أشياء كثيرة تلزمني، وأشياء لا تلزمني! أغرمت بركوة قهوة صغيرة، لا تتسع إلاّ لفنجانين، لم أكد أصل البيت، حتّى صنعت قهوة، قبل أن أرتّب الأغراض الأخرى، سكبت له في فنجان أصفر مزيّن بزهوره، وجلست مقابله أرشفها على مهل، طعمها كان مختلفاً، رائحتها مختلفة، كلّ شيء بدا لي مبتسماً، وفي صفحتها السّوداء أشرقت عيناه بضحكة، وهمس لي "أحبّك".

اندسست في السّرير، تابعت شرب قهوتي، وأنا ألتمس الدّفء من الغطاء، عاودتني شهوة القراءة، أغمضت عينيّ على صفاء ذهني في ذلك الزمن الجميل قبل أن أعبر المحيطات إلى غربتي. لا شكّ أن كلّ شيء بدا بعيداً وساذجاً، لكنّه مليء بالعفوية والجمال، إشراق الشّمس في الصّباح وهي تملأ سريري، شجرة التّفاح في بيتنا الصيفي، زهور الأنكي دنيا في شتائنا الدافئ، زهور العسل الّتي تعرّش على الشّرفة في الربيع مجدولة بالنفنوفة والياسمين الأصفر، ياسمينٌ بلا رائحة، لكنّ أطواقه

حـــول عنقي تأسرني. لمستُ الغطاء حول ساقيّ، وأحكمت لفّ الشّال الوحيد الذي صنعته بيديّ منذ حلولي في استكهولم، الشّال البنفسجي ذي الزغب الدّافئ. كلُّ الأشياء من حولي اكتسبت لوناً من الفرح.

تـــوقفت نظراتي على دفتره القابع قربـــي على الطّاولة، ورحت أراقبه، وكأنّي أراقب عفريتاً طلع إليّ من الماضي، ضحكت من نفسي، ألهذا الحد بات منظر زهور عبّاد الشّمس يرعبني؟. تناولته مرّة أخرى، ورحـــت أقلّب الصّفحات ثانية. في الصفحة الأولى كتب مقدمة يقول فـــيها "لا أعرف ما الذي جعلني أشتري هذا الدّفتر! توقفت بالصدفة أمـــام مكتـــبة، طالعت عناوين الكتب، وهبّ من داخلي حنين، حرّك أصـــابعي، فـــشعرت بتنميل أسفل رقبتي وكتفيّ، لم يخفني الأمر، فقد كانت تلك حالة قديمة تدفعني إلى الدّوران حول نفسي، وفتح النّوافذ، والتّـــنفس بعمـــق، قبل أن يرتعش القلب، وتزهر الصّفحات بقصيدة! دخلـــت المكتبة، وبحثت عن دفتر أشمّ فيه رائحة الوطن، لكنّ الدّفاتر المصفرّة الصّفحات، المهترئة الحواف، لا وجود لها إلاّ في الذاكرة. لماذا اختـــرتُ هـــذا الدّفتر؟ مع أنّي لا أحبُّ زهور عبّاد الشّمس لارتباطها بذهني بلوحات فان كوخ وأذنه المقطوعة والمصح العقلي! أقنعت نفسي أنّهـــا شهوة للشمس الدّائمة، وللدفء، ولشاهينة، المرأة الممتلئة بكلّ مـــسببات الوجود ابتداء بالحبّ وانتهاءً ببذل النّفس رخيصة لقاء كلمة طيبة".

في الخلف كتب: "وصلت ليل السبت، وتركت للسائق أن يختار لي مكانـــاً أبات فيه، فاختار فندق movimpick في وسط المدينة، لم أحتج لوقت طويل كي أنام، لم أكن أهتم سوى بالدفء الذي منحتني إياه الجدران. في الصباح أيقظني طرق خفيف على الباب، فاضطررت لفـــتحه، علـــى الرغم من ارتعاد جسدي للاستيقاظ المفاجئ. على

مقبض الباب علّقت ورقة مذهبة كتب عليها "Sunny day Sunday" لم أستوعب معنى تلك الورقة في البداية.

فاتصلت مستفسراً من موظفة الاستقبال، فقالت بأدب: "اليوم يوم أحد مشمس" وهو شيء نادر في هذه الفترة من العام. لم أكن لأهتم بالشمس الّتي يتحدّثون عنها، مع هذا تحاملت على نفسي، وتجولت في المدينة، في درجة حرارة تصل إلى أربعة تحت الصفر! ما معنى الشمس إذن؟ سرت على طول الطريق الموازي للفندق لدقائق، وأنا أدير بصري في الأبنية العالية اللامعة من حولي! كل شيء جميل ومنظم، حتّى الهواء تحس بأنّ نسبة الأوكسجين فيه مرتفعة. خلال إقامتي في استكهولم، لفت نظري الهدوء الذي يتمتع به سكانها، وأيقنت أن الثقافة سلوك حضاري قبل كلّ شيء. فهم يمشون بهدوء، ويتكلّمون بهدوء، ويتعاملون مع الآخرين بمنتهى الهدوء! الأناقة كانت أكثر لفتاً لنظري، في البنايات والشوارع ولباس النّاس البسيط الهادئ الألوان، حركاتهم وطريقة تناولهم للطعام ومعاملة رجالهم لنسائهم في الأماكن العامة، حتّى طريقة تصفيف النساء لشعرهن!".

في الصّفحة الثانية كتب في الهامش "من دفاتر الوطن". قرأت قصيدة يبدو أنّها تعود إلى فترة المراهقة، كانت في وصف حبيبة ما، جاء وصفها حسياً صرفاً بكلمات موزونة على بحور الخليل، غلب عليها السّجع، رسَمَتْ ابتسامة خفيفة على شفتيّ! في الصّفحة الثّالثة، جاءت القصيدة بثوب مختلف، تحدّثت عن صبية يقتنصون الوقت في اللعب داخل الغابات، يختلفون من أجل "الدحل" يتشاجرون من أجل فرخ دجاجة، ومع هذا يجمعهم حبٌّ استثنائي، يربط مصيرهم بحبل متين، لا يستطيعون الفكاك منه.لا يستطيع القارئ أن يلتقط ملامح خاصة لأحدهم، وكأنّهم نسخ عديدة لشخص واحد، يرهقه حذاء

ثقيل مثقوب في الشتاء، يعشق طين القرية وأمطارها، فيحتفظ بها داخله، نفس المعطف المجهول النّسب، التّفاصيل اليومية الصغيرة، الألعاب نفسها، والأحلام!. كتب في هامشها "مع أنّي أتألم، إلاّ أنّ عليّ أن أعترف، هذه القصيدة له، لصديق الطفولة والمراهقة، غريمي، وعدوي فيما بعد، عبد الفتّاح".

في الصّفحة الرابعة، فاجأني مستوى الصّور الشّعرية، تخلّى عن النّظم، وكتب القصيدة باحتراف، تخيلت أنّ زمناً طويلاً يفصل بين القصيدتين، فعدت إلى الصّفحة الأولى لكنّ التاريخ فاجأني أيضاً، أيعقل أنّ أدواته تطوّرت بهذه السّرعة المذهلة؟. غرقت في القراءة، ولم أنتبه للوقت، كانت المفاجآت تعترضني، فتصدمني حيناً، وترسم ابتسامة على شفتي حيناً، إلى أن وصلت إلى صفحة مطوية، أهى بها قسم القصائد. قلّبت الصّفحات بسرعة، فوجدت أنّها مذكرات، كُتبت بشكل متقطع، لم تُعنَ بتأريخ الصفحات، فقد قبعت تواريخ الأحداث داخلها. تبدأ تلك المذكرات من مرحلة مبكرة من حياته، قبل مغادرته لضيعته "عين الجرب" في أوائل الستينات.

(أنا وعبد الفتّاح كنّا صديقين، منذ نشأتنا في بيتين متجاورين، وحتّى اللحظة الّتي سطا فيها على عمري ومستقبلي.

في المدرسة لم يكن بيننا أيّ تنافس، دأب هو على الهرب وملاحقة الحيوانات البريّة، ثمّ تطورت هوايته في القنص والصّيد إلى ملاحقة الجميلات، والتّفاخر بعلاقاته الّتي لا تحصى بأجمل فتيات الضيعة. وحرصت أنا على دراستي والالتزام بالحصول على علامات جيدة. وقد ظهرت موهبتي في كتابة الشّعر في وقت مبكر، فالتفّ حولي رفاقي في الإعدادية، لأكتب لهم قصائد لحبيباتهم مقابل رغيف خبز، أو فاكهة طازجة من بساتينهم، أو حتّى بعض الخضار من حاكورة البيت. في

المـــرحلة الـــثّانوية، كنت ألتهم الكتب التهاماً، واكتفى هو بفتوحاته النّسائية. وفجأة جاء يخبرني أنّه قرر الالتحاق بالجيش، "مالي وللدّراسة يا رجل، كلّها حكي فاضي". اعتقدت دوماً أنّه مخطئ، وأنّ العلم هو النّافذة الوحيدة للعقل البشري على التّقدّم والتّطوّر. حاولت إقناعه أنّ الجـــيش ســـيحدد آلية تفكيره، ويحجّم عقله. سخر مني ومن دراستي، وقـــال: "الأيـــام بيننا، وستعرف من منا المخطئ". ثقته بنفسه في ذلك الوقت أثارت ريبتي، وفكّرت ملياً "هل يعقل أن يكون عقلي قاصراً إلى درجة لا أفهم معها التّطورات الحاصلة في الحياة من حولي؟". اكتشفت فـــيما بعـــد، أنّ فهمي لم يكن قاصراً فقط، بل أثبت عبد الفتاح بما لا يقبل نقاشاً، أنّ الزمن زمنه هو، وأنّي كنت أصارع طواحين الهواء طيلة حياتي، من دون أن أدرك أن لا جدوى من الوقوف في وجه العاصفة، وانحنيت للريح كي تمرّ.

لا أنكر أنّ سفر عبد الفتّاح أثّر على نفسيتي، وأشعرني بغربة عن المكان. حين جاء أوّل إجازة، كان يوم عيد لنا، احتفلنا بمجيئه، عصبة من الشّباب، كنّا يوماً أطفالاً، نلهو في البراري، والغابات. سهرنا حتّى الـــصّباح، وكان نجم السّهرة بلا منازع، أدهشتنا حكاياته عن أجواء المدينـــة، أزقـــتها، حاراتهـــا، نسائها المميزات، وحين دخل في المناطق الحميمة في حديثه، فتحنا أفواهنا وآذاننا، واستمعنا بجوارحنا. وكأنّنا في أجواء ألف ليلة وليلة.

بعـــد تلك الليلة غاب سنة كاملة، وعاد في أوائل الصّيف، وقتها كـــنت أقتـــرب من تحقيق حلمي في الحصول على الشّهادة الجامعية، والارتـــباط بـــزميلتي هـــدى، الّتي عشت معها قصّة حبّ هادئة طيلة سنوات الدّراسة. ما لم يخطر لي على بال أن ألقاه في حديقة السّبيل في ذلـــك اليوم الصّيفي القائظ، كنت وإياها نحتفل بتخرّجنا، ونتفق على

الخطـــوة القادمة. شعرت بضربة على كتفي، سبقها صوته الجهوري: "أين أنت يا رجل؟ منذ متى لم نركَ" وتطلّع إليها قائلاً: "معكَ حق، من يكـــون بـــصحبة هذا الجمال، كيف يتذكّر أمثالنا؟". وقتها غصصت باللقمـــة، وأنا أرى نظراته الفاضحة إلى هدى، اعتذرتُ منه، وهضنا. لكـــنّ الغصّة لم تفارقني، حتّى أنّي لم أعد أعرف ماذا أقول لهدى، الّتي اســـتأذنتني، ومـــضت إلى منـــزلها. بضعة أيام مرّت لم تأتِ هدى إلى الكلـــية، ولا ردت علـــى رسائلي! وحين واجهت الأمر بزيارة بيتها، وطلب يدها، أصبت بمقتل.

بقـــيت معتـــزلاً أكثر من شهرين، وعلى الرغم من إحساسي بقسوة الغدر، ومضاء الطّعنة الّتي وجهها عبد الفتّاح إلى صدري، إلاّ أنّـــي قررت أن أتفوّق عليه، أن أثبت له، أنّ الدّراسة ليست حكياً فارغـــاً. لا أجـــد مـــبرراً لذكر تلك الأيام الّتي اعتكفت فيها على كتبـــي حتّى نلت درجة الدّكتوراه، فقد صار ذلك يسبب لي المزيد مـــن الألم بعـــد أن فشلت في المحافظة على المكتسبات الّتي حققتها بإرادتي.

الحـــدّ الفاصل بين ماضيّ وحاضري، هو اليوم الذي التقيت فيه هـــدى - بعـــد أن أضعتها عدّة مرّات في الزحام - وهي تغادر أحد المحـــلات التّجارية في المدينة، لم يحرّك صراخها فيّ ساكناً، ولم أنتبه إلى حماقتي، إلاّ عندما سحبتْ ذراعها بقوة من قبضتي، وهي تخفض صوتها: "مجـــنون". قـــبل أن يقترب رجلان، عرفت أنّهما يحرسانها من بعيد، ناولتهما الأغراض الّتي تحملها، وأشارت إليهما ليبتعدا صوب السّيارة. لا أدري إن كانت ساعتها قد تصرّفت بحكمة، لكنّني قلت لها: "يجب أن أراك، علـــيك أن توضـــحي لي، سأعمل لك فضيحة إن لم تأتي، سأنتظرك غداً في مثل هذا الوقت في حديقة السّبيل".

انتظرتها طويلاً، و لم تأت، وخطر لي أن أقوم بحماقة أكبر، وأذهب إليها في منزلها، إذ لم يفتني أن ألحقها، و لم أغادر حتّى أوصلها الحارسان مع الأغراض حتّى الباب الدّاخلي. المنزل قريب من الحديقة، لا يبعد عنها سوى بضع مئات من الأمتار، حيٌّ هادئ يناسب المكانة الّتي وصل إليها عبد الفتّاح في سلك المخابرات. ردَّدت بيني وبين نفسي عبارة شمشون "عليّ وعلى أعدائي". ونهضت من مكاني قاصداً باب المقصف. حين رأيتها قادمة، وهي تتلفت حولها. كدت أسمع نبضات قلبها وهي تسلّم عليّ، بل أنا على يقين، أنّ النبض بقي بين أصابعي مرتعشاً وممزوجاً ببقايا بنفسج، تلك الرّائحة الّتي كانت تفضّلها دائماً!. قلت "الحمد لله أنّك جئت، كدت أرتكب حماقة أخرى، وأذهب إلى منزلك". ارتجف صوتها وهي تقول: "أعرف أنّك مجنون، وتفعلها، لذا جئت، أرجوك، لا أستطيع أن أتأخر، قل لي، ماذا تريد؟

قلت: "يحق لي أن أجد تفسيراً لما حدث، لماذا غدرت بي، وتزوجت صاحبي؟" قالت بحذر: "أنا لم أعدك بشيء". قلت: "لكنّك كنت تحبينني، اتفقنا أن نكون لبعضنا إلى الأبد". قالت، وقد بدأت تطمئن لخلو المكان من الجواسيس: "لا أنكر، لكنّك لم تطلبني للزواج، هو سبقك، وأبي وافق". لم أنتبه إلى ارتفاع نبرة صوتي، وإلى وقوف النّادل قرب الطّاولة، وأنا أكيل لها الاتّهامات، حتّى رأيتها تشير إليه بالانصراف، وهي تقول لي: "اخفض صوتك، نحن في مكان عام، أنت لا تدرك مدى الأذى الذي سيلحق بك إذا رآنا أحد رجاله". تلاشى غضبي، وكأنّه لم يكن، أمسكتُ أطراف أصابعها، وأنا أهمس: "تخافين عليّ؟". قالت: "لست نذلة إلى درجة تركك لقمة سائغة لهم".

جلـــب النّادل الغداء، اقترحت عليها قدحاً من العرق، رفضت، وطلـــبت كـــأس بـــيرة، لم أشـــأ أن أكرر طلبـــي، أكلت لقيمات، واعتذرت بأنّها تعمل ريجيم لتحافظ على رشاقتها، شربتْ كأس البيرة على مهل، وأنا أراقبها، وأتناول طعامي. أنهت كأسها، وهي صامتة، ثمّ طلـــبت آخـــر، لم تمـــض دقائق، حتّى رأيتها تتنهد، وهي تمسح دمعة غلبـــتها، وكادت تفرّ من عينها، قالت كأنّما لتنفي أيّ تفسير عندي "طُـــرفت عيني على ما يبدو". ثمّ سكتت. سألتها، وكأنّي أتابع حديثاً ودّيـــاً بيننا "هل أنت سعيدة في حياتك معه؟". انقلبت ملامحها فجأة، واحتلّها اشمئزاز، حاولت أن تخفيه بابتسامة عابرة، قالت "ما معنى هذه المفـــردة؟ أنـــا أعيش معه، فقط". قلت: "ألا تحبينه؟". لم تجب، لكنّ عينيها قالتا الكثير، واكتفيت بتلك الاعترافات الصّامتة. احتضنتُ يدها بـــين كفيّ، وضغطتُ عليها، سَحَبَتْها بهدوء، وقالت: "أخشى عليك". تكـــرارها للعبارة استفزني، قلت ساخراً: "منذ متى؟". قالت، وصوتها يـــتلوّن بالحسرة: "منذ قبلت الزواج به، لقد همس بأذني عدّة كلمات حـــين رفضته، جعلتني أحدّق بوجه أبـــي، أتأمل وجوده بيننا، وأتخيّل فـــراغ البيت منه، إلى أين تمضي بنا الحياة؟ الصّمت هو كلُّ ما استطعت، وقفـــت الكلمات في حلقي، حينها قال منتصراً: "الصّمت علامة الرضا" وهكذا تزوجته. أكثر ما يؤلمني أنّي لم أشعر يوماً أنّه يعاملني كزوجة، ربّما جاريـــة، عشيقة، عاهرة، لا أعرف بالضبط، أحسُّ حين يضاجعني أنّه في معـــركة يريد أن يخرج منها منتصراً، أفتقد لمسة حانية، كلمة جميلة، مع هـــذا هـــناك أمـــرٌ غريب يحدث دائماً، أنّه سخيٌّ، كفه مثقوب كما يقولون، يعطيني ما أشاء، وبعد كلّ انتصار يعاملني كملكة!

لكنّ نقمته زادت في الفترة الأخيرة، لم يعد وجودي يعني له شيئاً، يـــبدو أنّـــه عشق من جديد". قلت: "هذا طبعه، منذ متى يستطيع أن

يخلص لامرأة يحبها؟ كان دوماً يتباهى بعدد اللواتي استطاع اصطيادهن، والأمـــر الآن بات مختلفاً، إنّه يشعر بتفوقه، ويمتلك المدينة بأسرها، من خـــلال امتلاك نسائها". قالت بغيظ: "نسيت أنّك كنت تساعده؟ ألم تكن تكتب له القصائد الغزلية الّتي يستميل بها قلوب الفتيات؟". تمكّن الضحك مني أخيراً، وانقلب مزاجي، قلت بلطف: "كنت أفعل هذا مع جميع أصدقائي، بصراحة، كانت القصائد تحقق لي مكسباً مادياً كبيراً، ومعـــنوياً بالتصاق رفاقي بـــي، أجد مكاناً للنّوم في بيوتهم، والسّهر، والمـــوائد عامرة دائماً...كانت أيام!". قالت: "نعم، كانت أيام، لكنّها ســـاهمت بشكل أو بآخر، في فراقنا. لست آسفة على شيء الآن، لا أحد يأخذ من الدّنيا أكثر من نصيبه، ما آسَفُ عليه حقّاً هو حاضري، اضطراري للعيش معه تحت سقف واحد، وأنا أعرف أنّه يعشق غيري، لـــو أنّ الأمـــر مقتـــصرٌ على نـــزواته العابرة لهان، لو أنّ الأمر متعلق بإحدى العاهرات اللواتي يتردد عليهن، لهان الأمر". قلت بفضول: "من تلك الّتي جعلته يعشقها بعدك؟". قالت: "ابنة صديقه ماهر الصيّاد، لا بدّ أنّك تعرفها، هي طالبة عندك في الكلية، كانت باطلة تلك الصّحبة بينهما، اللعنة على الاثنين". قلت مصدوماً: "لا أظنّك تعنين نسمة؟". قالت: "بل هي بعينها". قلت باستغراب: "كيف ذلك؟ نسمة! أعرف أنّها على علاقة بزميل لها، أراهما متلاصقين دائماً داخل قاعة المحاضرات وخارجهـــا، لا أعرف طبيعة العلاقة بينهما، لكن كنت ألمحهما معاً منذ زمـــن بعـــيد". قالت: "أتعني المثنى بن أحمد علوان؟". وقع الاسم على رأســـي وقوع صاعقة، قلت: "المثنى؟ طبعاً هذا من سابع المستحيلات، فمـــا أعـــرفه عـــن والده أنّه كان سائس خيل عند ماهر الصيّاد، وأنّه سجين هارب، ليس من المعقول أن تتورط نسمة بمثل هذه العلاقة؟ لا، لا أعتقد". ردّت بثقة: "عبد الفتّاح أخبرني بذلك، قال إنّها على علاقة

بالمثنى، وأنّه أخبر والدها بالأمر، وأنّه سيشدُّ أذنها بطريقته، كي تتربّى، ولا تتورّط بعلاقات خائبة مرّة ثانية، على حدِّ تعبيره". سألتها باهتمام: "يشدُّ أذنها؟ ماذا تعنين؟". قالت: "لا أعرف بالضبط ماذا يقصد، لكنّه يدبّر أمراً ما، ومن يستطيع التّكهن بماذا يفكّر، وماذا يخطط؟ الشّيطان وحده بإمكانه معرفة نواياه، لكنّي أعتقد أنه سيلفّق لها تهمة، ثم ينقذها منها، لتعرف أنّه الشّخص الوحيد الذي يستطيع حمايتها". قلت بأسى: "كان الله في عونها وعونك". قالت بسخرية: "بل في عون المثنى، أرجو حقّاً ألا يلقى مصير أبيه". قلت: "أبوه مجرم، ويستحق العقاب الذي ناله، كم أشتهي لو يقبضون عليه، ويحكّمونني به، ولو ساعة واحدة". ضحكتْ مستهزئة، وقالتْ: "مَنْ؟ أحمد علوان! يا لك من ساذج، ومن أين يأتون به؟ هل يعود الأموات إلى الحياة؟ لقد مات، وأصبحت عظامه مكاحل، لكنّهم على أيّة حال يتمنّون عودته، لذا تركوه حيّاً في أذهان النّاس، ولو استطاعوا إعادته إلى الحياة، لينتقموا منه ثانية، لفعلوا". فتحت فمي بذهول، وسألتها وقلبي يكاد يتوقف: "مات؟ متى؟ كيف؟ أين". قرّبت رأسها مني، وهمست: "الأمر بيننا، وهو سر خطير للغاية، أرجو ألا تنسى ذلك، وتورّطني في أمر لا أحتمل نتائجه. ما حدث في تلك السّنة عام 63، أنّهم قتلوه في السّجن، وأشاعوا أنّه هرب، ثمّ لاحقوه لأنّه يرتكب أعمالاً تخريبية، وبدأت سلسلة من الاغتيالات تُسجّل باسمه، كانوا بحاجة لشخص يحمل مسؤولية بعض الجرائم الغامضة، والتّصفيات الضرورية ذات الطابع الثأري الشّخصي بين أفراد الجماعة، والسّلطة، وقد أراح أحمد علوان الطّرفين، الأخوان والسّلطة، كلاهما حمّله وزر العديد من الجرائم، وخرج الشّيخ ماهر، ليخطب في المساجد منددا بالمجرم الخطير الذي يعتدي على أمن البلد! ووصفه بالخائن والعميل. على من اعتدى المسكين؟ اعتدى على

مصلحة مشتركة بين ماهر الصّياد وعبد الفتّاح، تخص فريدة خانم على ما أعتقد".

قلت بذهول: "لكنّي رأيت صورة عن جواز سفره، وتاريخ مغادرته البلاد في إحدى الصّحف". قالت بسخرية: "وكأنّك لا تعرفهم! أمن الصّعب عمل جواز سفر، وكتابة سيرة ذاتية، وتلفيق تهم؟ كأنّك تعيش خارج العالم!".

حقّاً كنت أعيش خارج العالم، أدركت ذلك فور دخولي السّجن، بعد أن استدعاني أبو فراس، وحقق معي بتهم عديدة، من دون أن يقترب من التّهمة الحقيقية الوحيدة، لقائي بزوجته هدى! صحيح أنّ إدراكي جاء متأخراً، لكنّه كان صاعقاً وصادماً إلى حدّ غير مقبول. خاصة حينما ضمّتني والمثنى زنزانة واحدة في سجن تدمر! تعمّق حينها إحساسي بانتمائي إلى "العالم التحتي"، وهي تسمية أطلقها "الخبير" – وهو أحد المساجين – على شبكة السّجون السّورية، حدّثنا مرّة أنّه خبير سجون، أكثر من السّجّانين، زارها جميعاً، وحلّ في أرجائها العامرة معزّزاً مكرّماً، وقد نال أحكاماً تراوحت بين أشهر وسنوات ومؤبد! وبتهم لا تحصى، شجار، سرقة، وتهريب، وقمار، وآخرها تجارة سلاح. كان يضحك، وهو يخبرنا بأنّها التّهمة الشّريفة الوحيدة الّتي نال عليها أقصى عقوبة، مع أنّ اسمها نظيف جداً "تجارة"!. وقد استفدنا جميعاً من "الخبير" وعلاقته الطيبة مع السّجّانين في تهريب أشياء كثيرة من وإلى السّجن، خاصّة الجرائد، الّتي يلف بها الطّعام خصيصاً لنعرف ماذا يجري في العالم الآخر الذي نبذنا، وقتل رغبتنا في الحياة.

أعترف أنّي لم أحبّ المثنى، ولم أستطع الاقتراب منه في الأسابيع الأولى لسجني. شعرت بنفور من هيئته، من كلامه، من صمته،

بالإضـــافة إلى اختلافـــنا الفكري، فأنا لا أستطيع أن أتقبّل شخصاً من الإخوان المسلمين، مهما كانت مصيبته كبيرة، لكنّي مع الأيام، وجدت نفـــسي أتحـــدّث معه، ونشأت بيننا صداقة قوية، كان مختلفاً تماماً عن الـــصّورة الّـــتي تشكّلت في ذهني عنه. هو من تشجّع وبدأ الحديث، فـــوجدت بيننا أشياء مشتركة، ربّما حديثه عن خربة الورد، وطفولته البائـــسة، ويتمه، وكفاحه الطّويل ضدّ الفقر في سبيل دراسته، وفشل قـــصّة الحـــبّ الوحيدة في حياته، أشياءٌ قرّبت بين قلبينا، لدرجة أنّي أســـررت له بهمومي ومشاكلي وسبب سجني، متجاوزاً كلّ الفوارق الّـــتي صنعها العالم الآخر بيننا، أيقنت أنّ تلك الفوارق المصنوعة بأيدي الآخـــرين لا وجود لها في عالمنا التّحتي هذا. عالمٌ من الألفة والتّلاحم، عـــالمٌ حمـــيم، لا يمكن للسجّانين الواقفين "فوق" أن يفهموا شيئاً من تفاصـــيله المـــربكة، يستفزهم ضحكنا، يستفزهم صبرنا، تستفزهم لا مبالاتـــنا، كـــم هـــم حمقى!. قال لي المثنى: "أتعلم أنّي لا أهتم كثيراً لمصيري، فأنا لا أرجو من عالمهم شيئاً، من أحببتها، طعنتني في ظهري، وذهـــبت بعـــيداً، مَنْ خرجتُ مِن صلبه أورثني تاريخاً أسود، ولولا أمٌ عجـــوز تنتظـــر عـــودتي بماء عينيها، لما حفلت بالموت، ولو جاء هذه اللحظـــة، لكنّـــي أصبّر القلب بقول ناظم حكمت "أن تكون سجيناً، ليـــست هنا المسألة... فالقضية هي ألاّ تستسلم!". لكنّهم لم يتركوا له الفرصة ليصمد، فقد أعدموه تلك الليلة فجراً، وكنت أسمع صوت ابتهالاته طيلة الليل، وأتصوّر أنّه كان يعرف أنّها ليلته الأخيرة، لكنّ أحد المساجين قال لي يومها: "لا أحد يعرف مصيره، لكنّنا مؤهلون لزيارة الموت في كلّ لحظة، لهذا لا ننام الليل بانتظاره، ننتظره بإيمان أنّـــنا ســـنجد حياة أفضل عند ربٍ كريم، سبحانه وتعالى، الأجر والثّواب عنده.

تلـــك الكلمـــات أقلقتني زمناً طويلاً، وتمنّيت خروجي من ذلك المكـــان الكـــريه، وتقت لرؤية "عالمهم". بعد موت المثنى صرت أكره بقائـــي بين هؤلاء الّذين يرجون الأجر والثّواب في عالم ثالث، لا يمتُّ للحياة بصلة! يا لهم من حمقى!

يبدو أنّ باباً للفرج فُتح من حيث لا أدري، فقد استدعوني في صباح يوم قائظ، وأركبوني سيارة، ونقلوني إلى منطقة أخرى، لم أعرف أين أنا، ثمّ حشروني في سيارة جيب، وفي طريق خالٍ بين مدينتين خمّنت أنّه قريب من الحدود الأردنية، رموني من السّيارة، وعادوا أدراجهم!

إلى الآن لا أعـــرف من الّذي أنقذني؟ ولا أعرف كيف وصلت عمّان، ما أنا على يقين منه أنّهم يعرفون!).

احـــتجت إلى أسبوع كامل من العزلة، كي أمتص الصّدمة، كيف فاتـــت تلك السّنوات معه، و لم يخطر لي مرّة أن أفتح هذا الدّفتر؟ لم ينفع لومـــي لنفـــسي، كلّ شيء واضحٌ أمامي، لقد تجمّعت الأقدار والظّروف كلّها لتجعلني أعيش هذه التّجربة المريرة. زواجي منه، واكتشافي لكلّ هذه المـــصائب دفعـــة واحدة، موت المثنى، خداع شوقي المستمر لي، اشتراك أبـــــي وأبو فراس بجريمة رهيبة، تضاف إلى سجلهما الحافل بالتّجاوزات والأخطـــاء، وربّمـــا بالجرائم المخفية. كانت رسائل حسين حينها النافذة الوحـــيدة على العالم بالنسبة لي، فقد أغلقت نافذتي الافتراضية، وأسدلت الستائر كي لا ألمح شمس استكهولم وإن من خلال النّافذة.

كانـــت روحي تغرق في سوادها تدرجياً، وأشعر أنّ العالم لم يعد له أيّ وجود بالنسبة لي.

في الـــيوم الخـــامس رفعت السّتائر قليلاً، ووارت النّافذة، لكنّ نافـــذتي الافتراضـــية بقيت مغلقة، كنت مصرّة على إبعاد حسين عن عالمي، على الرغم من كلّ ما أحسّ به تجاهه.

أخـيراً قررت أن أخرج من عزلتي، أن أواجه شوقي، تبدو جريمة سطوي على شيء يخصّه أمام هذه الجرائم تافهة ولا معنى لها.

قرعت الباب مراراً، لكنّ أحداً لم يفتح لي، أطلّت جارة من بابها، وقالت: "النـزيل ترك منـزله منذ أسبوع، سمعت أنه سيسافر للعلاج، أين لا أعرف!".

لا أدري ما الذي جعلني أذهب إلى حسين بالرغم من أنف قراري العنيد بإبعاده عن حياتي.

هـل أصبح طريقي إليه خالياً؟ كانت مفاجأة لم أستطع استيعابها مباشـرة في انـتظاري، فـتحتْ لي الباب، استقبلتني بإلفة، ونادته: "حـسين". حـين رأيته قادماً إليّ من غرفة النوم، وجسده يقطر ماءً، تـوقفت الكلمـات في حلقي، هربتُ بدمعي خارج الشّقة، وخارج الـشّارع، وقـررتُ أن أغـادر استكهولم إلى أيّ مكان لا أراه فيه. مـسحت ايميله، وأغلقت نافذته الافتراضية، وأغلقت هاتفي في وجهه، لكنّـي لم أسـتطع مسح آخر رسالة عليه "روحي لك فدوة، ارجعي لأشرح لك".

(5)

لماذا تأخر؟

فتحتُ جهاز الهاتف مرّات عديدة، لا تزال رسالته اليتيمة، تضيء الشاشة "عظّم الله أجرك، وأعطاك عمراً مديداً، أنت أقوى من الموت، لـــكِ عمري إلاّ (يوماً) سأراك فيه، انتظريني غداً في الرابعة". لم يصدّق قلبـــــي حـــين سمعـــت جرس الباب، بالكاد استطعت ضبط انفعالي وخطواتي، سبقتني أم فاتح، ناديتها: "سأفتح أنا، اذهبـــي إلى المطبخ". صدمتني نظراته المتفرسة في شكلي، قال بلهفة:

- ماذا حدث؟ لماذا ترتدين الأسود؟

احتجت لزمن كي أتماسك، وأفهم، وأرد، قلت ببرود:

- تفضل.

قال:

- ألن تقولي لي الحمد لله على السّلامة؟ ألم تنتبهي إلى...

قلت:

- الحمد لله على السّلامة، انتبهت، الحمد لله أنّك بخير، متى عدت؟

قال:

- الـــبارحة، أوّل شـــيء فكّرت فيه أن أزورك، قلت في نفسي، خلافنا لا يجب أن يفسد الودّ بيننا، أم لك رأيٌ آخر؟

رأيٌ آخر! في الحقيقة لم أفكّر بأيّ شيء يخص علاقتي بشوقي بعد انفصالنا، و لم أتوقع أن أراه مرّة أخرى، لا قبل عودتي ولا بعدها، لقد

نـــسيته تمامـــاً بعد انفصالنا، عشت حياتي بروتينها القاتل، أذهب إلى المدرسة، وأعود منها، آكل وأشرب، أرتاد الحدائق، وكلّ شيء هادئ ورتيب! ولن أقول مملٌ وقاتل. ما الذي أتى به في هذا التوقيت؟ اللعنة، هـــذا مـــا كان ينقصني. جلس على الأريكة، وطلب من أم فاتح الّتي وقفـــت بالباب مرتبكة، أن تصنع له قهوة حلوة، نظرت إليه بامتعاض، وقلت:

– لا يوجد عندنا سكّر، (التفتُ إليها) هاتي قهوة مرّة.

اعتذر قائلاً:

– آسف، والله طلبتها حلوة بحكم العادة، نسيت أنّكم في عزاء، عظّـــم الله أجـــرك. تعـــرفين؟ توقعت أن أجد صعوبة أكبر في المطار، توقعت عرقلة كبيرة، لكنّ الأمر كان أبسط بكثير مما توقعت. تعلمين؟ حـــين نـــزلت من الطّائرة، انتابني يقين أراحني، بأنّ الحزب على حق، فكيف يمكن للعقل الجماعي الخالد أن يخطئ؟

كـــادت بعـــض الأفكـــار السّوداء تراودني حين ابتسم لي رجل المخابرات بلطف، وهو يتأبط ذراعي بطريقة حميمة، ويقول لي: "الحمد لله على السّلامة، ستكون ضيفنا لدقائق فقط، ثم نصحبك بالسّلامة إلى البيت!" توقعت حينها أن يكون فخاً، وأن أجد "أبو فراس" بانتظاري! لكنّـــي فوجئت بأنّ كلّ شيء تغيّر، وعلمت أنّ "أبو فراس" قد غادر البلاد إلى فرنسا، هل تعرفين ذلك؟ المهم أنّي لم أترك الأفكار السّوداء تسيطر على عقلي، بل رجمتها بحجارة يقيني بأنّ كلّ شيءٍ في البلد قد تغيّر، وأبعدتها بصدق، و لم أكن مخطئاً، مجرد توقيع صغير على أوراق في الفـــرع، وودّعـــوني بمثل ما استقبلوني به! حتّى أنّهم لم يسألوني أين كـــنت، لاشكّ عندي أنّهم يعرفون، مع هذا أستغرب، هل تتخيّلين أنّ ذلك حقيقي؟ لقد حصل معي، ولا زلت مذهولاً.

لم أرد، ربّمـــا لأنّـــي لم أجد ما أقوله، ولأنّ ذهني كان مشغولاً بتأخـــر شمـــس. أتت أم فاتح تحمل صينية القهوة، ويبدو أنّها فهمت بحسّها أنّ الضيف غير مرغوب فيه، وأنّه شخص آخر غير الّذي أنتظره، فجلست قريبة منه، وراحت تحدّثه عن المرحوم، وتسأله أسئلة محرجة، عن عمله، ومن أين جاء، وو...

حين علمتْ أنّه كان زوجي، نظرت صوبـــي باستفهام، فهززت كتفي بلا مبالاة. تابعتْ استنطاقه عن سبب انفصالنا، وعودته. ببساطة اســـتطاعت أم فـــاتح أن تجعله يفصح عن هدف الزيارة، فاجأني طلبه بتصفية الخلافات بيننا، فاجأني أكثر حين قال:

- هـــل ستتركينني جالساً هنا في الصّالة كضيف؟ أنا متعب من السّفر.

قلت بضيق:

- الفنادق كثيرة، ألا ترى أنّي لا أستطيع استضافتك، ليس عندنا رجل يقوم بالمهمة.

قال باستغراب:

- ولكنكِ زوجتي.

قلت بعصبية:

- كنت. بإمكانك أن تغادر الآن، لقد قمتَ بالواجب.

- سأعتبر نفسي لم أسمع ما قلتِ، لأنّي أعذرك، أنت حزينة، ولا تعرفين بما تتفوهين، أستأذن.

حـــين خرج، صفقت الباب خلفه، وقلبـــي تتسارع دقاته. لقد كـــنت مجـــنونة في تلـــك السّاعة التي فكّرت فيها بالارتباط به. كان جـــسدي يرتعش بشدّة، وأعصابـــي تكاد تنهار، حين سمعت صوت عـــبد الـــوهاب من هاتفي النّقال "يا ترى، يا ترى يا نسمة". وصلني

صـــوته مصحوباً بهدير الموج القريب، لم أستطع السّيطرة على انفعالي، وتـــأوه الفرحُ داخلي في مزيج غريب من الرعشات والدّمع والكلمات المـــتقطعة. لم أشأ أن يضبطني متلبسة بعشقه على هذا النّحو المفضوح، لكنّه التقط بسرعة عجيبة ذبذبات صوتي الملونة بأحاسيسي عبر الهاتف، صمت قليلاً، ثمّ قال: "أنتظرك في "العصافيري" لا تتأخري".

لم يكـــن بحاجة لتأكيده ذاك، و لم أكن بحاجة لسماع المزيد، فقد أغلقت الهاتف، وأنا أنـــزل الدّرجات مسرعة صوب المدخل، من دون أن تـــستوقفني المـــرآة، أو تـــساؤلات أم فاتح، ولا نظرات الجارات الفاحصة، ولا صياح الأولاد عند المنعطف.

أردت أن أســـابق الرّيح إليه، ماذا لو كنت أملك مقدرة النّسيم علـــى التّواجد في كلّ الأمكنة في الوقت ذاته؟ بدا واضحاً أنّ الأحلام تصيبني بالإحباط أكثر، وتبعد الأمل مسافة أخرى، فقد انتظرت زمناً لا بأس به قبل أن أستطيع عبور الشّارع بسبب الزّحام، وتعثرت بخطواتي مـــرّات على الرصيف، قبل أن أدخل المقهى، لأبحث عنه بقلب شُغِفَ بتفاصيل ذلك الماضي البعيد، فتركني أعوم في لجة التردد، وبقي هناك. مع أنّي في هذه اللحظة أحتاج لكلّ حواسي، لأتماسك قليلاً فوق أرضٍ لا تستقرّ تحت قدميّ، أحتاج تركيزاً أكبر، كي لا أفسد اللحظة بركام القهر والتّردد والتّقلبات المفاجئة لمشاعري.

لم أفهـــم شـــيئاً من عبارات التّرحيب الّتي نطقتها شفتاه، كنت أراقـــب حركة يديه، نظرته تلك الّتي غاصت في قلبـــي، أصابعه الّتي الـــتقطت كفي، وخبَّأتْهُ كيمامة بين يديه. استسلمت لخفقات القلب الحـــارّة، وأغمضت عينيّ، وأنا أتحسس بروحي الدّفء الذي سرى في جسدي إثر لمساته المتكررة لكفي الغافية بين يديه.

قلت بارتباك:

- كم سأحتاج من الزمن لأستطيع أن ألتقي بك؟

ردّ قبل أن يستوعب الشّجن المغلّف بالعتب في نبرة صوتي:

- أعتذر، حقك عليّ، لا أعرف كيف أبرر تقصيري.

قلت بمرح يخفي غصة في حلقي:

- تعتذر؟ أين تصرف هذه الكلمة؟

قال ضاحكاً، مدارياً ارتباكه:

- في باب اللوم والعتب والمحبة.

تساءلت غامزة:

- وكم سأنتظر على الباب؟

قال بجدية:

- حسب المحبة.

قلت بلا تفكير:

- إذن سأجده فوراً.

قال بسرعة، وكأنّه يتراجع عن قرار اتّخذه:

- مـــا أســـهل أن نجد في طريقنا - أثناء البحث عمّ نحبّه - ما نكرهه!

قلت بفتور، وقد تلاشت فرحتي، وخمد اندفاعي:

- كأنّـــك تفلـــسف حياتي، دائماً تختصر حياتي بكلمتين، كنت أبحث عمّن أحبُّ، و لم أجده.

- لكنّه موجود.

قال بلهفة. تباطأتُ بالردّ، نظرت في عينيه، ارتعشت يدي كيمامة مبللة بالنّدى، قلت:

- أمامي؟

حدّق فيّ بثبات:

- أعتقد.

تراجعت أصابعي لتمسك طرف الطّاولة بعصبية، وقلت بيأس:

- تعتقد؟

قال مؤكداً:

- أعـــتقد نعم، ولست أظن، والاعتقاد يقين، أم تشكّين؟ اسمعي آخر ما كتبته.

عطر الليلك يزداد انتشاراً
وعجيج يتصاعد من البحر،
هذا هو الخريف، بغيومه الكثيفة وأرضه النابضة،
ونحن يا حبيبتي، قد بلغنا نضج العمر،
ويخيل إلينا أنّنا عشنا مغامرة عمر بألف عام
لكننا ونحن نعدو، أقدامنا حافية، واليد باليد،
تحت الشمس،
ما زلنا أطفالاً، بعيون مفعمة بالدهشة[1].

تنبهت حواسي فجأة، ارتعش قلبـــي، وزادت دقاته. تصاعد الدّم إلى وجهي، ليضرب بعنف أذنيّ.

كـــدت أنطـــق "آه" مـــوجعة تقتلع ضلوعي، حبستها بحسرة، وأغلقت شفتيّ من جديد. قلت بعد صمت طال:

- كلماتك تشي بـــي...

تقلّصت عضلات فكيه، ضغط بيده على الطّاولة، وأشاح بوجهه صوب البحر، ثوانٍ، وغرق في شرود، آثرت ألاّ أخترقه، رحت أراقب ملامحـــه، ما الذي يخيفه؟ تساءلت باستغراب، أيعقل أنّه يخاف زوجته؟ حتّـــى اللحظـــة أجـــد صعوبة في اختراق تلك الهوة اللزجة بيننا، أهو

(1) ناظم حكمت.

الفـــراق؟ أهو الزمن؟ تراكم تلك التّفاصيل الصّغيرة الّتي لم نعشها معاً؟ هـــل أســـتطيع أن أعبر إليه بكلّ بساطة، ناسية كلّ ما مرّ بـــي بعده؟ لـــيس اكتـــشافاً، أنا على يقين أنّه شخص آخر. أغمضت عينيّ على صورة في الذّاكرة، حاولت أن أمحو ضبابيتها، لأتأمله بوضوح.

"افتحـــي عينيك". سمعت العبارة، ربّما من دون قصد مني، لأنّي كـــنت بعـــيداً في عالمٍ آخر، أسمع عبد الوهاب يغني"كل دا كان ليه"، وأراني بقـــربه في بـــيت صـــغير، غارقـــان كلانا في تفاصيل جسدينا الملـــتحمين، كان صوت عبد الوهاب يتسلّل عبر الكلمات الّتي يهمس بهـــا في أذني، فتخـــتلط برائحة البرد والنّرجس، والتصاقي به. "افتحي عينـــيك". تكـــررت العبارة لتنتزعني من جذوري المزروعة في ذكرى غائمـــة لآخـــر لقـــاء بيننا في بيت صديق له! هل التقيته في بيت أحد أصـــدقائه حقّاً؟ أكاد أشكُّ في ذلك، مجريات الأحداث الّتي في الذّاكرة تقـــول، إنّنا لم نلتقِ سوى في الأماكن العامة، لكنّ أحلامي تصرُّ على استحـــضار مـــشاهدَ تجمعنا في أماكنَ لها خصوصيتها الشّديدة، فيها شمـــوعٌ خافتة، وكلماتٌ حارة، والتحامٌ لا يمكن أن يكون مجرد خيال! خطر لي أن أسأله، هل يذكر ذلك؟ قلت مترددة:

- أتحبّ سماع عبد الوهاب؟

قال مبتسماً:

- أذكـــر أنّك تعشقين أغانيه، أذكر تحديداً، أنّك مغرمة بأغنية "فـــين طريقك". قلت وقد شعرت بالخيبة، لأنّه لم يذكر تلك الأغنية المصحوبة بذكرياتي الحميمة معه:

- بل لا أحبّ سوى"بفكّر في اللي ناسيني وبنسى اللي فاكرني".

ضحك بقهقهة، خلت أنّها رجّت أركان المقهى، قلت بغيظ:

- هل قلت لك طرفة؟

قال متحاشياً غضبـــي:

- لا، لكنّـــي تذكّـــرت أنّك كنت تتحينين الفرص دائماً لتقولي أشياء تستفزني، وتصيبني في الصّميم، أردت بضحكتي أن أقول، كأنّك لم تتغيري!

قلت بغصة:

- حقّاً لم أتغيّر؟

شـــدّ يدي ثانية، وضغط أصابعي، قبل أن أفتح فمي لأتساءل إن كان يعرف حقّاً أنّ استفزازي له كان مقصوداً. قال:

- يحـــقّ لك أن تكرهيني، أعرف أنّني آلمتك كثيراً، لكن ما أنا على يقـــين منه أنّك لم تفعلي، و لم أفعل، وأنّنا حملنا لبعضنا حبّاً، بقي مدفوناً في أعماقنا تحت رماد أيام الفراق، لهذا كنت دائماً أخشى لقائي بك، أخاف ألاّ أستطيع السيطرة على نفسي، أخاف أن يحرقني جمرك من جديد.

لم يتـــرك لي الفرصة لأغلق فمي الّذي فتحه الذّهول، و لم تغلقه رغـــبتي في الانـــسحاب الكامل من المكان والزمان، ونسيان التّواريخ والموجودات. تابع قائلاً:

أشعر بضعف تجاه خلوتنا هذه، لا أملك نفسي في هذه اللحظة، مـــا أعـــيه جيداً أنّه لا توجد مشكلة في لقائنا، تعلمين؟ منذ احتضنتْ كفـــي أصـــابعك في لقائنا الماضي، وأنا أشعر بالحريق يلتهم جسدي، فيهما حرارة مريبة.

فوجئت بكلامه، أيعقل أنّه لا يشعر بالتغيير الذي أحدثه الزمن في جسدي وروحي؟! أيعقل أنْ يقبلني هكذا بعد هذه السّنوات الطويلة؟ كمـــا من قرون مضت، هرب الدّم من أصابعي، وشعرت بالبرد! ربّما يذكـــر كـــيف كانـــت تلك البرودة في أصابعي تمتص حرارة جبينه، فيسترخي على كتفي! هل شعر بمعنى البرد في أصابعي؟

يخـــاتلني الـــضوء المنسل من النّافذة خلفه، فتخضرُّ عيناه بآلاف الـــسنابل، تخـــرج من التماعة ابتسامته يمامةٌ تحطُّ على قلبـــي، تهدل، وتنقر حبّات الشوق من أصابعي. ثانية يخاتلني الضّوء... تعتم عيناه بغيم ماطـــر، فـــلا أكـــاد أميّز سحابات الشهد فيهما، أقرأ لهما أسفاري، فتتداخل الفصول...

ومـــا بين المطر والصحو، تثلج أناملي ياسميناً بين راحتيه، وما بين المطـــر والمطـــر، يوشوشني موج أنفاسه القريبة من نبضي "أحبك" قبلة فقـــبلة، يقطر شوقه نوراً لا يكاد يفصح عن حضوره، قبلة ولمسة، فإذا الـــزمن يهـــرب مـــن أصابعي تاركاً دفئه. ثوانٍ ومضى! ما بين الحذر والـــرغبة، امـــتدّ الجسر مغرياً بالعبور. نبّه مشاعري النّائمة بقوله: لا أســـتطيع الـــسيطرة على نفسي. كنت أخشى أن أقول له إنّي أحتفظ برغباتي كلّها بانتظار لحظة لقائنا هذه!".

"أين كنتَ؟" همستْ شفتاي باستغراب مصحوب بالحسرة، أين كـــان حـــين كانت كلماته هذه طوق نجاتي؟ أين اختفى، حين كنت أحتـــرق بصمت، وأتناثر رماداً؟ أيعقل أنّي هنا، أجلس أمامه ببلاهة، أستمع إلى وجيب قلبـــي، ولا أملك لهذا الحزن المفاجئ ردّاً؟

أيعقل أنّي أرفض وبكلّ قوتي أن أتزحزح تجاهه خطوة واحدة؟ لا أفهم نفسي! أليست هذه الكلمة الّتي كنت أنتظرها؟ ألم أفكّر مطولاً في انتـــزاعه من عالمه المستقر بحياديته المقيتة؟ ألم أقرر أن آخذه من يده إلى دنيا جنوني مهما كان الثّمن؟ لماذا أطيل التّفكير في العواقب؟ لماذا تبرز ابنـــته وزوجته وبيته ليشكّلوا حاجزاً من الأسلاك الشّائكة بيني وبينه؟ وهـــل أهتم لكلّ هذا؟ ألم أقل إنّه مجرد هراء؟ نعم مجرد هراء، لا يمكن لأيّ شيء في هذا العالم أن يوقف تدفق الدّم الحار إلى قلبـــي. لا يمكن لأيٍّ كان في هذا الوجود أن يقف بين كلماته وبيني. هل أضحك على

نفسي؟ مجرد تفكيري هذا يعني وبوضوح حضور كلّ ما يخص حياته في زمن البعد بيننا، لا يمكن أن أنسف كلّ ذلك، من المستحيل أن أستعيده ثانـــية. قلت بصوت خفيض: "كيف سأخرج منك وتخرج مني؟ لستَ هاجساً ولا كابوساً لأصحو منك، وأغتسل بالمطر بعيداً عن أرقي بك. آه لـــو أستطيع أن أنسل منك انسلال الضّوء من جسد العتمة، آه لو أستطيع سلخ هذه الخلايا الجلدية المحيطة بجسدي، لأنّها تنفث رائحتك حـــولي، آه لو أستطيع أن أحرقها، وأنثرها رماداً، كي لا أراك! أخاف مـــواجهة وجهي في المرآة، كي لا تنعكس صورتك المرسومة في حدقة عيني على صفحتها".

لكن...ما أسهل أن يموت كلّ شيء وكأنّه لم يكن، ما أسهل أن أحتـــضن يـــده، وأسحبه إلى الخارج، بعيداً عن عيون رواد المقهى، ما أسهل أن نتوغل بعيداً في الشّاطئ حتّى نصل بقعة لا يوجد فيها بشر. لا أعتقد أنّي مجنونة بما يكفي لاتّخاذ قرار خطير إلى هذه الدّرجة، ولا أعـــتقد أنّي عاقلة لدرجة التّخلي عن حلم انتظرته طيلة السّنوات المليئة بالهزائم الّتي مرّت من عمري. لكن أيّهما العقل وأيّهما الجنون؟ في ظلّ اخـــتلاط المفاهيم لا يبقى أمامي إلاّ المغامرة! هل يجب أن أقتنع أن ما أفعلـــه هو الصّواب؟ لا، ليست حياته السّابقة بعيداً عني، ليست تلك المسافة من البعد، ليست تلك الأسلاك الشّائكة هي السّبب، بل أنا، لم أســـتطع طيلة تلك السّنوات قتل الحياد داخلي، رغم محاولاتي المتكررة لنـــزع فتيل العقل الذي يربط ماضيَّ بحاضري، الفتيل الذي اشتعل في غفلـــة مني حين امتدت يدي إلى مائة قرنفلة، وقرّبتها من القلب برفق، منذ تلكَ اللحظة لم تنطفئ نار الجنون، أم تراه العقل؟

كأنّه قرأ أفكاري، أخذ يدي، وأمرني بالنّهوض. عبرنا الشّارع إلى سيارته، قال: "تنتظرك مفاجأة هناك. سترين كم هي جميلةٌ المنطقة الّتي

يقـــع فيها بيت صديقي، بيت منعزلٌ في الغاب، بيت من خشب، كما في الحكايـــات، سوره الخارجي مصنوعٌ من جذوع الأشجار بيد فنان، لم يتعرّض لها بالقطع أو الصّقل، سيعجبك بالتأكيد.

يعـــرف أســـاليب كثيرة تغريني، لكنّها بعيدة جداً عن الأسلوب المباشر الأكثر تأثيراً، لِمَ لا يقول إنّه يريد الانفراد بـــي هناك؟ ربّما هذه هـــي مفاجأته الّتي يرفض الإفصاح عنها. لكن متى خطّط لكلّ ذلك؟ هـــل جـــاء إليّ وهو يعرف تماماً ماذا سيفعل، وماذا سيقول؟ وأنا الّتي كنت أظن أنّي...

"أغمضي عينيك" ربّما لا أريد أن أفتحهما لأنّي لا أريد أن أرى، ســـتبقيان مغلقتين على الحلم، الصّورة الّتي في الذّاكرة، صورة أوّل لقاء لـــنا عـــند البحـــر، حين مشيت حافية على الرّمال، ورميت كتبـــي وحذائي، وفتحت ذراعيّ للرّيح، احتضنت الكون، الخريف، والنّوارس، وأنا وأنت!

"أغلقـــي عينـــيك" أظنّ أنّي لم أسمع العبارة بطريقة خاطئة، فقد تـــوقفت الـــسّيارة فجأة في طريقٍ جبلي، لم أكن أرى شيئاً على بعد خطـــوات لكثافة الأشجار وكثرة المنعطفات. مما زاد قلقي - وأنا أنظر مـــن خـــلال الزجاج - أنّ الضباب تكاثف إلى درجة مزعجة، لكنّها مثالية لمجنونين، يُخلقان في هذه اللحظة منفصلين عن العالم بكلّ ما فيه. ذاكرة بيضاء تماماً، شوّشها صوت مسجل السّيارة، انطلق صوت عبد الـــوهاب، تـــسلّل كمدية في جسدي، فتمطّت الذّكريات من جديد، مـــلأت فـــضاء السّيارة بروائح الزنبق والقرنفل والنّرجس. مكبّلة بها، أشعر أنّه لا فكاك لي من قيد تسلّطها على جسدي وأحاسيسي. ببطء تنـــزلق يده على عنقي" إياك أن تفتحي عينيك". من قال له إنّي أريد فـــتحهما؟ أخاف على الحلم من التّبدد، أخشى أن يكون هذا الضباب

مجـــرد أبخـــرة منبعثة من ذاكرتي، أخشى أن يكون كلّ ذلك مجرد قوة مخـــيلة، صنعت لي حياتي الماضية، وأخرجتني من قسوة الواقع لأحيا في حلـــم يقظة دائم، يعالج شمس فيه جراحي بكلماته، وأصابعه، ولكنّي أحـــسّ بجسده كاملاً يقترب، أحسّ به بشكلٍ لا يمكن أن يكون مجرد حلم، أو مخيلة صَنَعَتْ في الماضي المعجزات! أحسّ أنفاسَه تلسع عنقي، قبلـــته الحارة تنفست فوق جلدي، فارتعش جسدي بكليته، أردت أن أهرب من مشاعري المضطربة بفتح عيني، لكنّي لم أجرؤ، قرّب قرنفلة من أنفي، وهمس: "تعلمين المناسبة؟ تلك الّتي كان يجب أن أجلب فيها قرنفلة واحدة، ها قد أتيتك بها، كلَّ عام وأنتِ حبيبتي".

كـــنت مسلوبة الإرادة، تماماً كما حدث في ليلتنا الأخيرة، تبدو التّفاصيل واضحة في مخيلتي هذه اللحظة، وكأنّها تحدث الآن، جسدي المستـــسلم قـــربه علـــى الفراش البارد، أنفاسه تحاول تدفئتي، أصابعه، كلماتـــه، كان يصرُّ - كما الآن - "إياك أن تفتحي عينيك"، الفراش يـــتحوّل إلى جمرة ملتهبة، ينضو عني ملابسي، وخلال لحظات، يخرس الوجـــود من حولنا، ونرتفع معاً فوق سحابة، الأشجار تتلصص علينا، الـــنّجوم تـــشرع نـــوافذها لنسيم أنفاسنا، وحين تهمد حركتنا، يعود الوجـــود إلى دورانـــه، فأسمعه يقول: "ابقي عينيك مغمضتين، أريد أن نبقـــى هـــناك" كلانـــا يدرك "هناك" ويعرف ماذا تعني للآخر. سمعته يهمـــس بحرارة "أريدك، أحتاج للصهيل على تخومك حتّى أصل إلى ما لا أريد الوصول إليه". قلت هامسة: "لكن تلك اللحظة من النّشوة هي ما تبغيه دائماً". غمس شفتيه في أذني، وزفر: "لا أنكر أنّي أسعى إليها دائمـــاً، لكـــنّ المتعة أحياناً تكون في الطريق، وليست في الوصول إلى الهدف (أليست الذروة هي النقص؟)"[1].

(1) العبارة للشاعر الفرنسي إيف بونفوا.

فرضتْ حركة الحياة حولنا نفسها بقسوة، تسلّلت أصواتُ الباعة من الشّارع، والأغاني من نوافذ الجيران، اختلط كلُّ شيء بصراخ أطفال يلعبون الكرة، مع هذا كنّا نأمل لدقائق، أن نبقى هناك، ونرفض أن نفكّ الاشتباك الفوضوي لجسدينا، قبل أن ترغمنا طرقاتٌ مؤدبة على باب الغرفة للبحث عن وجودنا داخل الفوضى الّتي أحدثناها. هل أسمع صوت عبد الوهاب بعد كلّ هذا يختلط بهمسه ورائحة النّرجس والبرد القادم من أسفل الباب؟ أكاد أكون على يقين أنّه يغني "قا لي كام كلمة يشبهو النّسمة في ليالي الصّيف" وشمس يصرّ"لا تفتحي عينيك" وجمرة أصابعه تحرق جلدي، وتخلّف وراءها أكوام الرماد!

فتحتُ عينيّ، حدّقت في المكان الضيق، تكاثف البخار على زجاج السّيارة، ولم يعد بإمكاني التّأكد من ما يجري في الخارج.

تحسستُ عنقي بتلقائية وأنا ألمح نظراته الحيادية، سألته باستغراب:

- لماذا توقفت هنا؟

قال بهدوء:

- دخلت الطّريق الخطأ. لا بدّ من العودة، لكنّ الضباب الكثيف يمنعني من الرؤية بوضوح، أخشى أن آخذ طريقاً خاطئاً مرّة أخرى.

قاطعته بنزق:

- دائماً تسلك الطريق الخطأ.

السّبب الحقيقي الذي جعلني مستفزة وغاضبة، أنّ شمس يتصرّف بحياد، وكأنّه لم يلمس جسدي منذ دقائق، لم يحاول أن يقترب مني، لماذا يخشى أن تكون عيناي مفتوحتين؟

لماذا يجلس بعيداً عني؟ عندما كنتُ مغمضة العينين كنّا ملتصقين، ألغى المسافة، وعبر إليّ، وكأنّنا لم نفترق يوماً. الآن يتجاهل ما فعله، وكأنّه ارتكب خطيئة!

نظـــرت إلى السّاعة، كانت تشير إلى الرابعة عصراً، لم أكن واهمة إذن، مـــضى علينـــا في هـــذه البقعة أكثر من ربع ساعة. ارتياحٌ غمر روحـــي، وأرخى أعصابـــي، اتكأت على مسند مقعدي، وأغمضت عـــينيّ بكامـــل إرادتي، لم أشعر باستلاب، ولا بسيطرة صوته الهامس، أردت ذلك، دخلت الغرفة ثانية، خطوت بقدميّ الحافيتين فوق الفراش الفوضـــوي، اندســـست تحـــت اللحـــاف البارد، ارتجفت ضلوعي، والتصقتُ به أكثر.

أدركت بما لا يقبل الشكّ، أنّ شمسه تشرق في الطّرف الآخر من الكون، وأنّي وصلت متأخرة جداً، غادرني في اللحظة الّتي التقينا فيها، و لم أعـــد أعرف والسيّارة تنطلق من جديد، هل هو شمس نفسه الّذي يقود السّيارة بهذه السّرعة الجنونية؟ صرخت به:

- خفف السّرعة، قلبـــي لا يحتمل.

ضحك قائلاً:

- مـــا بـــك؟ منذ متى تخافين؟ أكاد لا أعرفك! أيعقل أنّك هشة وضعيفة إلى هذا الحدّ؟

كدت أصرخ ثانية، وأقول له، إنّي كائن سريع العطب، وأخشى على قلبـــي من التّوقف، لكنّي لا أجرؤ على البوح بمشاكلي الصّحية، الّتي تسبب لي هذا الخوف من السّرعة، لا أجرؤ أن أقول لشمس، إنّي امرأة مختلفة عن تلك الفتاة الّتي عشقها، أو عرفها في ذلك الزمن الذي مـــن المفترض أن يكون جميلاً، لا أجرؤ أن أزيل أصباغي وأقنعتي كلّها دفعـــة واحـــدة، ليراني عارية، يشف الجلد عن عظامي المتعبة المتآكلة. كـــيف له أن يعرف أنّ هذه الموجات الحارّة من الدّم الّتي تصبغ وجهي ليـــست خجـــلاً؟ كـــيف له أن يدرك أنّ دقات القلب العنيفة، ترافق اضطرابات في الغدة الدّرقية، ومشاكل صحية أخرى؟ كيف لي أن أغيّر

جلدي، وأسلخ ذلك الزمن الذي حفر أخاديده في روحي، لأبقى بين كفـــيه كعود نرجس غض؟. "لنفترق أحبابا، فالطّير كلّ موسمٍ يفارق الهـــضابا، والـــشّمس يا حبيبـــي، تكون أحلى عندما تحاول الغيابا". أربكني قوله: "افتحي عينيك، بماذا تفكرين؟ منذ غادرنا المقهى، وأنت شـــاردة! هل تحسين بألمٍ ما؟". هل عليّ أن أجيب بصراحة، أم أنفي شـــعوري بـــالألم، وأكتفي بخداع مظهري الخجول المنكمش في مقعد السّيارة لعينيه؟

قلت هامسة: "هناك أخطاء مخجلة، يجب أن نصححها".

قـــال: "هناك أخطاء طبيعية، لا بدّ منها كي نكون عشاقاً خائبين أو بشراً أسوياء... كباقة القرنفل المئوية!".

صدر للكاتبة

- جـــذور ميتة: مجموعة قصصية، صادرة عن دار سعاد الصّباح، 2001، حائزة على الجائزة الأولى.
- جبل السّمّاق: الجزء الأوّل "سوق الحدادين" رواية، صادرة عن دار فصلت، حلب 2004.
- نـــساء بلا هديل: مجموعة قصصية، حائزة على الجائزة الأولى لموقع لها أون لاين، 2004.
- ذاكرة الرماد — رواية، صادرة عن دار الحوار، اللاذقية 2006.
- جـــبل السّمّاق: الجزء الثاني "الخروج إلى التيه" رواية، حائزة على الجائـــزة الأولى لمهـــرجان المزرعة، صادرة عن دار العوام، دمشق 2007.
- المعراج - رواية، صادرة عن دار العوام، 2008.

عين الشمس

رواية

إبتسام إبراهيم تريسي

من يدري! فقد كان من الممكن
ألاّ نحبّ بعضنا إلى هذا الحدّ،
لو لم تكن روحانا تريان بعضهما
البعض من كلِّ هذا البعد
ومن يدري! فلربّما لم نكن
قريبين إلى هذا الحدّ
لو لم يُفرّق شملنا الزمان.

(ناظم حكمت)

ISBN 978-9953-87-816-4
9 789953 878164

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص.ب: 222 الصفاة
الرمز البريدي 13003 - الكويت
info@masaa.info - www.masaa.info

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com